

تجديد الحقوق



0147856



Bibliotheca Alexandrina

# القام قلبية

القاهرة ٣



مطبعة بحران بكتبة مصر

# القائمة الجذرية

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

دار مصر للطباعة

سميد جودة الأسعار وشركاه



مالَت الشمس عن كبد السماء قليلا ، ولاح قرصها من بعيد فوق القبة الجامعية الهائلة ، كأنه منبثق منها إلى السماء ؛ أو عائد إليها بعد طواف ، يغمر رعوس الأشجار والأرض المخضرة وجدران الأبنية الفضية والطريق الكبير الذى يشق حدائق الأورمان بأشعة لطيفة : امتصت برودة يناير لظاها ، وبشت فى حناياها وداعة ورحمة . وقد قامت القبة على رأس صفيين من الأشجار الباسقة امتدت مع الطريق ، فلاحَت كإله يجثو بين يديه كهنته العابدون ساعة العصر والسماء متجلية فى صفاء ، مطرزة بعض نواحيها المترامية بسحاب رقاق : والهواء يتمخبط بين الأشجار باردا فترجع أوراقها أنينه ونحيبه .

فى السماء دارت حدآت حيارى : وعلى الأرض انطلقت جماعات الطلبة . كانوا يغادرون الفناء الجامعى إلى الطريق مشتبكين فى أحاديث شتى ، ثم لاحت بينهم جماعة من الطالبات لا يتجاوزن الخمس ، يسرن فى خفر ويخلصن نجيا . وكان ظهور الفتيات فى الجامعة لا يزال حدثا طريفا يستثير الاهتمام والفضول ، خاصة للطلبة المبتدئين ؛ فجعل هؤلاء يتبادلون النظرات ويتهايمسون ، وربما علت أصواتهم فبلغت آذان زملائهم . قال طالب :

— لا يوجد وجه واحد بينهم يوحد الله ؟  
فأجاب طالب آخر بلهجة لم تخل من تهكم :  
— إنهن سفيرات العلم لا الهوى ..

فقال ثالث بحمية انتقادية ، وهو يتفحص ظهور الفتيات المهزولات :  
— ولكن الله خلقهن ليكن سفيرات الهوى !  
فقهقه الأول ضاحكا وقال مدفوعا بروح الاستهتار والادعاء :  
— اذكر أننا في الجامعة ، وأن الجامعة مكان لا يجوز أن يذكر فيه  
لا الله ولا الهوى ؟

— منطقي جدا ألا يذكر الله ، أما الهوى ؟..  
فقال أحدهم بلهجة تقريرية تنم عن أستاذية ليس وراءها مطمع لعالم :  
— الجامعة عدو لله لا للطبيعة ..  
— نطقنا بالحق . ولا يؤيسنكم قبح هؤلاء الفتيات . فهن دفعة أولى  
للجنس اللطيف وسيبعن أخريات . الجامعة موضة حديثة لا تلبث أن  
تنتشر ، وإن غدا لناظره قريب ..  
— أتحسب أن فتياتنا يقبلن على الجامعة كما أقبلن على السينما  
مثلا ؟

— وأكثر . وسترى هنا فتيات على غير هذا المثل السيء .  
— وسيزحمن الشباب بلا رحمة .  
— الرحمة هنا رذيلة .  
— ولن يكلفن أنفسهن مشاق الحشمة ، فالقوى لا يحتشم !  
— وربما استعرت بين الجنسين نار !  
— ما أجمل هذا !..  
— وانظر إلى الأشجار والخمائل ! إن الحب يتولد فيها من تلقاء نفسه  
كما تتولد الديدان في قدور المش .  
— رباه ! هل ندرك ذلك العصر السعيد !؟  
— بيدك أن تنتظره إذا شئت ...  
— نحن في بدء الطريق والمستقبل باهر

وانتهوا من الحديث العام : وتناولوا الفتيات — فتاة فتاة — بالتهكم  
المرير ، والسخرية اللاذعة ..

\* \* \*

وكان أربعة يسرون معا على مهل ، يتحادثون أيضا وربما أصغوا بانتباه  
إلى ما يبلغ آذانهم من هذر الشباب . كانوا من طلبة الليسانس ، يشارفون  
الرابعة والعشرين : وتلوح في وجوههم عزة النضوج والعلم .. ولم تكن  
تخفى عليهم خطورة شأنهم ، أو بالحرى كانوا يشعرون بها أكثر مما  
ينبغي . قال مأمون رضوان بلهجة انتقادية :

— لا حديث للفتيان إلا الفتيات !

فقال على طه معقبا على انتقاد زميله :

— وماذا عليهم من ذلك ؟ إنهما نصفان يطلب أحدهما الآخر منذ  
الأزل ..

وقال محجوب عبد الدائم :

— اعذرهم يا أستاذ مأمون ، فالיום الخميس ، والخميس عند الطلبة  
يوم المرأة بلا منازع .

فابتسم أحمد بدير ابتسامة خفيفة — وهو طالب وصحافي معا —  
وقال بنبات خطائية :

— أدعوكم أيها الإخوان إلى إعلان آرائكم في المرأة ، على ألا يزيد  
البيان عن كلمات معدودات . ماذا تقول يا أستاذ مأمون رضوان ؟

فارتبك الشاب ، ثم ابتسم قائلا :

— أتريد أن تحملني على حديث أنتقد الغير على خوضه .. ؟

— لا تحاول الهرب ، هلم ، كلمات معدودات ، أنا صحافي  
والصحافي لا يئأس من حديث أبدا ..

وكان مأمون رضوان يعلم أن مراوغة أحمد بدير أمر عسير فاستسلم

قائلا :

— أقول ما قال ربى ، فإن رغبت فى معرفة أسلوبى الخاص ، فالمرأة  
طمأنينة الدنيا ، وسبيل وطىء لطمأنينة الآخرة .  
وتحول أحمد بدير إلى على طه ودعاه للكلام بإيماءة من رأسه .  
فقال الشاب :

— المرأة شريك الرجل فى حياته كما يقولون ، ولكنها شركة دعامتها  
— فى نظرى — ينبغى أن تكون المساواة المطلقة فى الحقوق  
والواجبات .

فالتفت أحمد بدير إلى محبوب عبد الدائم وسأله ضاحكا :  
— ورأى شيطاننا العزيز ؟

فقال محبوب عبد الدائم باهتمام مسرحى :

— المرأة .. صمام الأمن فى خزان البخار ..  
فضحكوا كما تعودوا أن يضحكوا عقب سماع آرائه . ثم سألوا أحمد  
بدير :

— وأنت ما رأيك ؟

فقال الشاب باستهانة :

— على الصحافى أن يسمع لا أن يتكلم ، خاصة فى عهدنا  
الحاضر .

— ٢ —

وانعطفوا مع أول طريق مقاطع لطريق الجامعة ، وساروا فى اتجاه  
المديرية . كان مأمون رضوان أطولهم قامة ، ومحبوب عبد الدائم فى  
مثل طوله تقريبا . أما على طه فريضة متين البنيان ، وأما أحمد بدير فقصير  
جدا كبير الرأس جدا . وكان مأمون رضوان يريد أن يختم ساعات العمل  
أجمل ختام قبل أن يستقبل يوم اللهو فقال بصوته المتهدج الصاعد من  
قلبه :



... أنسانا حديث المرأة ما نحن بصدده ، فما تعليقكم النهائي على المناظرة التي شهدناها .. ؟

دارت المناظرة حول « المبادئ » وهل هي ضرورية للإنسان أو الأولى أن يتحرر منها . ؟

فقال علي طه مخاطبا مأمون رضوان :

... نحن متفقان على ضرورة المبادئ للإنسان ، هي البوصلة التي تهتدي بها السفينة وسط المحيط ..

فقال محبوب عبد الدائم بهدوء ورزانة :

... طظ ..

ولكن علي طه لم يلق إليه بالا واستدرك مخاطبا مأمون :

... بيد أننا مختلفان في ماهية المبادئ ..

فقال أحمد بدير وهو يهز كتفيه :

... كالعادة دائما .. !

فقال مأمون وقد تألفت عيناه بنور خاطف شأنه عند الاهتمام :

... حسبنا المبادئ التي أنشأها الله عز وجل .

فقال محبوب عبد الدائم كالمتعجب :

... لشد ما يدهشني أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير ..

فاستطرد علي طه قائلا :

... أؤمن بالمجتمع ، الخلية الحية للإنسانية ، فلنزع مبادئه ، على

شرط ألا نقدها لأنه ينبغي أن تتجدد جيلا بعد جيل ، بالعلماء والمربين .

فسأله أحمد بدير :

... ماذا يحتاج جيلنا من مبادئ ؟

فقال علي بحماس :

... الإيمان بالعلم بدل الغيب ، والمجتمع بدل الجنة ، والاشتراكية

بدل المناقصة ..

فعلق محجوب عبد الدائم على كلامه قائلا :

\_\_\_ طظ .. طظ .. طظ ..

فسأله أحمد بدير :

\_\_\_ وأنت يا أستاذ محجوب ما رأيك في المناظرة ؟

فأجابه بهدوء :

\_\_\_ طظ ..

\_\_\_ هل المبادئ ضرورية ؟

\_\_\_ طظ ..

\_\_\_ غير ضرورية إذا ؟

\_\_\_ طظ ..

\_\_\_ الدين أم العلم ؟؟

\_\_\_ طظ ..

\_\_\_ في أيهما ١؟

\_\_\_ طظ ..

\_\_\_ أليس لك رأى ما ؟

\_\_\_ طظ ..

\_\_\_ وهل طظ هذه رأى يرى ؟

فقال محجوب بهدوءه المصطنع :

\_\_\_ هي المثل الأعلى ..

والتفت مأمون رضوان إلى على طه وقال ، وجل همه أن يذكر رأيه لا أن

يجذب أحدا إلى عقيدته :

\_\_\_ الله في السماء ، والإسلام على الأرض ، هاكم مبادئى ..

فابتسم على طه وقال بلوره كما قال محجوب عبد الدائم من قبل :

\_\_\_ لشد ما يدهشنى أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير ..

فقهقه محجوب قائلا :

\_\_\_ طظ ..

والقى عليهم نظرة سريعة وهم آخضون فى مسيرهم وقال :  
— يا عجباً ! كيف تجمعنا دار واحدة ؟ أنا رأسى هواء ، والأستاذ  
مأمون قمقم مغلق على أساطير قديمة ، وعلى طه معرض أساطير حديثة .  
ولم يلقيا بالا إلى قوله ، لأنه طالما أعيتهما معرفة الحد بين جده وهزله  
ولأن مناقشته متعبة فهو يروغ من التطويق بالتهريج .  
وكانوا شارفوا دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا ، فودعهم أحمد  
بدير وذهب إلى الجريدة التى يعمل بها مساء ، ومضوا ثلاثتهم إلى الدار ،  
ليأخذوا أهبتهم لسهرة الخميس .

### — ٣ —

تقع دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا . هى قلعة هائلة ذات فناء  
مستدير واسع ، يقوم بنيانها على محيطه فى شكل دائرة ، مكونة من طباق  
ثلاثة ، يتركب كل واحد منها من سلسلة دائرية ، من الغرف المتلاصقة  
تفتح أبوابها على ردهة ضيقة تطل على الفناء . كان الأصدقاء الثلاثة  
يسكنون ثلاث حجرات متجاورة فى الطابق الثانى . وقد صعد مأمون  
رضوان إلى حجرته الصغيرة ، وأخذ فى تغيير ملابسه ، وكانت الحجرة  
مؤثثة بفراش صغير ، يقابله صوان ، يتوسطهما وراء النافذة الصغيرة  
مكتب متوسط وضعت عليه الكتب والمراجع . وكان الشاب ممن يحبون  
الكتب حبا بالغا ، فما أن وقعت عيناه على معجم « لالاند » حتى لاحت  
على شفثيه ابتسامة خفيفة وشت بحبه وولعه . بيد أنه لم يضع وقتاً ،  
فتوضأ وصلى العصر ، ثم ارتدى « ملابس العطلة » وغادر الحجرة إلى  
الطريق ، ومضى يرسم جسمه الرشيق هيئة عسكرية جذابة فى مسيره ،  
وكان ذا قوام ممشوق ، نحيفاً فى غير هزال ، أبيض الوجه مشرباً بحمرة ،

أجمل ما فيه عينان سوداوان نجلاوان . تلوح فيهما نظرة لامعة ، تذكى ضياء وجمالا وذكاء . وكان يتقدم في مسيره لا يلوى على شيء ، لتقديمه وقع شديد ، ولعينيه هدف لا تحيدان عنه ، كان هدفه ذلك اليوم بيت خطيبته بمصر الجديدة . وكان مأمون يعالج أمور قلبه بنفس النزاهة والاستقامة اللتين يعالج بهما جميع أمور حياته .. خطب الفتاة — وهي كريمة قريب له من ضباط الجيش العظام — بعد مشورة أبيه ، وتم الاتفاق على أن يعقد عليها عقب الانتهاء من دراسته ، وصار يتردد على بيتها كل خميس ، فيجالس الأسرة مجتمعة ، ويمضي بضع ساعات في سمر لذيذ . ولم يخطر له على بال قط أن يدعو فتاته إلى السينما ، أو أن يدبر حيلة للانفراد بها ، ذلك أنه كان من الكافرين بالبدع الحديثة — على حد تعبيره — الثائرين عليها ، فلقى سلوكه من أسرة الفتاة — أسرة حافظت على تمسكها بالتقاليد القديمة — كل إعجاب وتقدير . بيد أن ذلك لم يمنع قلبه من الخفقان وهو آخذ في طريقه المعهود ، فبلغ طريق الجيزة بعد دقائق واستقل الترام . وبدا في جلسته المعتادة ، ونظرته الصافية ، وقامته العالية ، شخصية غنية بعناصر الجمال والجلال . فلو أراد أن يكون عمر بن أبي ربيعة لكان ، ولكنه كان ذا عفة واستقامة وطهر لم يجتمع مثلها لشاب . كان ضميرا نقيًا ، وسريرة صافية ، كأن قلبا مخلصا ينشد الدين الحق والإيمان الراسخ والخلق القويم ، وقد نشأ في طنطا ، وكان والده مدرسا بالمعاهد الدينية — رجل ذو دين وخلق — فشب في بيئة أقرب إلى البداوة بساطة ودينا وخلقا وقوة ، وعرض له في صباه عارض ترك في حياته أثرا قويا . ذلك أنه أصيب بمرض أقعده عن اللحاق بالمدارس حتى الرابعة عشرة ، فذاق مرارة العزلة ، وعرف الألم ، وانصهر في أتون تجربة قاسية ، ولكنه استطاع أن يدرس الدين على والده فتفقه فيه غلاما يافعا . ولما دخل المدرسة الابتدائية دخلها فتى مراهقا وقلبا كبيرا وروحا حيا وذكاء وقادا

.. على أنه لم يخل من تعصب وحدة ، بل كانت تعتريه لحظات قسوة جنونية ، تنضب فيها خصوبة نفسه ، فينطلق كلسان من لهب يلقف ما يلقاه ويلتهم ما يتصدى له فيضاعف العمل إن كان يعمل ، أو يستغرق في العبادة إن كان يعبد ، أو يحتد في النقاش إن كان يناقش ، أو تعلو الكآبة والانقباض إن كان يعتزل ، وفي تلك الحياة البسيطة لم يجد الفتى سبيلا إلى تحقيق ذاته إلا في العمل ، فبز الأقران جميعا . وكان في قدرته أن يتعبد ساعات متتابعات لا يسكت لسانه عن ذكر الله ، وكان يذاكر في الأيام الأخيرة من العام الدراسي عشرين ساعة في اليوم ، فكان أول الناجحين في البكالوريا ، كما ينتظر أن يكون أولهم في الليسانس ، فصار التفوق من أحلامه العليا كالإسلام والعروبة والفضيلة ، ولم يسمح لمخلوق أن يدانيه في تفوقه ، ولكن لم ترسب للمنافسة في صدره أبخرة خبيثة ، بفضل قوته المخارقة ، وثقته الكبيرة بنفسه ، وإيمانه الراسخ بالله . فسميا بإنسانيته إلى أعلى المراتب ، ولذلك لم يجعل من إيمانه سبيلا إلى الزهد العاجز أو الفناء في الغير ، فكان يقول : إن الإيمان امتلاء بالقوة الربانية لتحقيق مثل الله العليا على الأرض . فكان شابا عظيما ، وإن أخفق أن يكون محبوبا ، لأن تفوقه مثار لحسد الحاسدين ، وسلوكه احتقار صامت لحياة الآخرين ، ثم إنه لم ينج من ميل للوحدة تأصل في طبعه منذ عهد مرضه العصبي الطويل ، هذا إلى جهل بأصول اللباقة الاجتماعية ، ونكران لروح الفكاهة ، وولع بالصراحة جعلت من حديثه أحيانا سوط عذاب ، فسماه منتقدوه تارة بالجامعي الريفى ، وتارة بالمهدى غير المنتظر . وقال عنه طالب مرة : « الأستاذ مأمون رضوان إمام الإسلام في عصرنا هذا ، وقديما أدخل عمرو بن العاص الإسلام في مصر بدهائه ، وغدا يخرج منه مأمون رضوان بثقل دمه » . وظل الشاب على ولائه للتفوق وإن خافه ومقته في أحيان كثيرة ، أجل كان يخاف ذاك الشعور بالتعالى والتفوق

ويستعيد بالله من شره ، ولكنه عجز عن قهره ، ولذلك لم يرمق عظيما بعين الإعجاب الحق ، وأعلن فى صراحته يوم افتتح الملك الجامعة استهانة برجال الدولة الذين حضروا الاحتفال ، ولذلك أيضا جعل يهز منكبيه استهانة كلما رأى الطلبة يتحمسون لمن يدعونهم بالزعماء ، وكان ينكر الأحزاب جميعا ، ويأبى الاعتراف « بالقضية المصرية » ويقول بحماسة المعهود : إن هناك قضية واحدة هى قضية الإسلام عامة والعروبة خاصة . ومن عجب حقا أنه لم يتأثر بموضة الإلحاد التى كانت ذائعة بين طلبة الجامعة على عهد بهاء وإنما مرّد ذلك إلى أنه التحق بالجامعة ، فى الثالثة والعشرين وقد آمن إيمانا راسخا بثلاثة أشياء لم ينكرها بعد ذلك طوال حياته : الله ، الفضيلة ، قضية الإسلام . فلم يزغ بصره حيال نور الجامعة الجديد ، ولبثت صخرة إيمانه القائمة تنكسر عليها أمواج السيكلوجى والسيسولوجى والميتافيزيقا . تحدى بإيمانه العلم والفلسفة جميعا وجعلهما من ذرائعه ومقوماته ، وسره أيما سرور أن يجد أعلام الفلاسفة فى ظل الله دائما : أفلاطون وديكارت وبسكال وبرجسون . كما رحب قلبه المخلص بالوفاق الذى بشر به القرن العشرين بين العلم والدين والفلسفة ، فالיום تنحل المادة إلى شحنات كهربية أشبه بالروح منها بالمادة ، واليوم تسترد الروحية عرشها المسلوب ، واليوم يشغل العلماء بالتفكير الدينى ويرد رجال الدين شرائع العلم والفلسفة ، فطوبى للشباب الفيلسوف المؤمن ! غير أن شاب الجيزة تغير عما كان عليه فتى طنطا المصاب ، صار أوسع صدرا وأرحب فهما ، أمكنه أن يصغى إلى مجون محبوب عبد الدائم مبتسما ، وأن يناقش على طه فى قيمة الدين والإلحاد ، وأن يتلقى صابرا سهام الناقدين والساخرين ، إلا إذا احتد واتقدت عيناه وعرفته تلك اللحظة الرهيبة ، فهناك يرتد عنه البصر وهو حسير ! وكان الشاب يجد بين زملائه مؤمنين صادقين ، فلم يشعر فى إيمانه بعزلة ، ولكنه لم يظفر بواحد

يشاركه حماسه فى الدعوة إلى الإسلام والعروبة ، فقد استغرقت الأذهان أمور أخرى فى ذلك الوقت كالقضية المصرية ودستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة البضائع الأجنبية ، ولكن الفتى لم ييأس فى وحدته ، ولا كان من الممكن أن يخالط اليأس قلبا كقلبه .

عاش مشغولا بالآمال الكبار ، إلا أن قلبه استطاع أيضا أن يتسهم الحياة ، وأن يخف مسرورا إلى استقبالها ... بل جعل ينظر من نافذة الترام إلى الخارج فى شبه جزع ، يود لو يطوى الترام فى غمضة عين الطرق إلى مصر الجديدة ...

#### — ٤ —

ولبث على طه فى حجرتة حتى مالت الشمس إلى المغيب ، وكان يجلس إلى النافذة وعيناه إلى شرفة دار صغيرة قديمة ، تقع عند مدخلها دكان سجائر ، تقوم على ناصية شارع العزبة — امتداد شارع رشاد باشا من ناحية عزبة الدقى — فيما يواجه دار الطلبة . كان مرتديا ملابس إلا طربوشه ، متأنقا كمعاداته ، يحسب الناظر إلى منكبيه العريضين أنه من هواة الرياضة البدنية ، وكان فتى جميلا ذا عينين خضراوين ، وشعر ضارب لصفرة ذهبية ، ودلالة واضحة على النبيل ، لبث ينظر إلى شرفة الدار الصغيرة القديمة بعينين تتحير فيهما نظرة انتظار ولهفة حتى دبت فيهما حياة ويقظة بدخول فتاة إلى الشرفة ، فنهض ملوحا يديه ، فابتسمت إليه وأومأت إلى الطريق ، فلبس طربوشه وغادر الحجرة ثم الدار ، وانطلق إلى شارع رشاد باشا ، ومضى يتمشى متمهلا فى الشارع الكبير قامت على جانبيه الأشجار الباسقة تقبع وراءها القصور والفيلات ، وجعل يرسل الطرف فيما وراءه بين لحظة وأخرى ، حتى رأى — على ضوء

الغروب الهادئ — صاحبة الشرفة قادمة تخطر . فدار على عقيقه خافق  
الفؤاد من السرور ، واتجه نحوها مورد الوجه ، حتى التقت أيديهما ،  
فاشتبكت اليمنى فى اليسرى ، واليسرى فى اليمنى وغمغم الفتى :  
— أهلا ..

فغمغمت ووجهها يشرق بابتسامة لطيفة :  
— مساء الخير ..

واستخلصت يديها برفق ، وتأبطت ذراعه ، واستأنفا السير إلى شارع  
الجيزة يمشيان مشية المتمهل الذى ليس له وراء المشى من غاية . هى فتاة  
فى الثامنة عشرة ، تضىء محياها بشرة عاجية ، وعينان سوداوان يجرى  
السحر فى حورهما والأهداب ، أما شعرها الفاحم وما يحدثه تجاوب  
سواده مع بياض البشرة فيخطف الأبصار . وقد حوى معطفها الرمادى جسما  
لدنا ناضجا ينتشر سحرا ووهجا . سارا متمهلين يبهج منظرهما الشباب  
والحياة . وجعل على طه يرقب أنحاء الطريق بطرف حذر كأنما يطلب  
غرة ، والفتاة تلحظه بطرف خفى منتظرة على شوق وسرور ، حتى اطمأن  
الفتى إلى غفلة العيون . فضم أصابعه تحت ذقنها ، وأدار وجهها إليه  
وألصق شفثيه بشفتيها حتى رطبنا برضاها ، ثم رفع وجهه متنهدا من  
الأعماق وتتابع خطوطهما صامتتين ، ورأته يلقي عليها نظرات فاحصة ،  
فذكرت — على سحر الموقف وفتنته — معطفها الذى كاد يبلى ، ففتر  
سرورها ، وقالت بالرغم عنها :

— أيسوؤك أن ترى دائما هذا المعطف العتيق ؟

فلاح الإنكار فى وجه الشاب وقال مؤنبا :

— كيف تلقين بالا إلى هذه الصغائر ؟ إن فى المعطف كنزا جعله

الحظ السعيد من نصيبى .

ولم توافقه على أن المعطف من « الصغائر » بل كانت تقول



لنفسها مرات متأسفة : إن العيش السعيد شباب وثياب ! ولحظت بذلك الصوفية الأنيقة فرغبت فى لومه . وقالت :

— يا لك من وراء !. أتعد اللباس من الصغائر وأنت تتأنق مزهوا .. فتورد وجهه حياء ، وبدا كالطفل المرتبك ، ثم قال كالمعتذر :  
— البدلة جديدة .. وليس من الممكن ابتياع بدلة قديمة . ولكن الملابس أعراض تافهة . أليس كذلك يا حبيبتي ؟

بيد أنها خافت مناقشته ، لأنه كان يتوئب للمناقشة باهتمام ، ويقف منها موقف المعلم ، ولم تكن ترتاح إلى ذلك . والواقع أنه لم يكن يخلو من تناقض . كان كثيرا ما يستهين بالملابس والمآكل ونظام الطبقات ، ولكنه كان يلبس فيتأنق ، ويأكل لذيذ الطعام حتى يشبع ، وينفق عن سعة . أما إحسان شحاتة فكان لديها ما تقوله ، وما تعلم أنه ينتظر رأيها فيه ، فقالت بصوتها الرخيم الذى يعابث الغرائز :

— كدت أتم الكتاب الذى أعرتنيه .

فبدا الاهتمام على وجهه ، لأنه كان يرغب أن يحب عقلها كما يحب شخصها ، وسألها :

— ورأيك ؟

فقالت بصراحة :

— فهمت أقله ، ولم أفز من هذا القليل بطائل .

فشعر بخيبة وسألها :

— ولمه ؟

فابتسمت إليه لتخفف من وقع كلامها واستدركت :

— محور الكتاب — الذى تسميه قصة — أفكار وآراء ، وأنا أرتاد فى

الكتب الحياة والعاطفة !

— ولكن الحياة فكر وعاطفة !

فلمت أطراف شجاعته وقالت :

— لا تطوقنى بمنطقك ، فربما لا أستطيع دفعه ، ولكنه لن يغير من ذوقى ، الموسيقى مقياس الفن الحقيقى فى نظرى ، فما تجاوز مادة الموسيقى فى الكتاب لا ينبغى أن يعد من الفن فى شيء .  
فهاهنا رأيها ، وابتسم ابتسامة باهتة ، وقال بأسف :  
— إنك تحرمين على نفسك أشهى ثمار الفن الحقيقى ..  
فقالت ضاحكة :

— مجدولين ، آلام فرتر ، آلام رفائيل ، تلك آيات الفن الذى أحبه .  
قالت ذلك بلهجة من يقول « لكم دينكم ولى دين » . فأمسك الشاب عن الكلام ، وتساءل هل يئأس حقا من تغيير رأيها ؟ .. إنه يريد صادقا أن يتحابا بقلبيهما وعقليهما ، وأن تكون شركة حياتهما تامة منسقة ، وأن يجد فيها الحبيبة والزميلة والند المحترم . إنه يحبها حبا يملك عليه قلبه ونفسه ، ولكنه يرجو أن يجعل منها فى المستقبل زوجا غير الزوج التى تعرفها البيوت الشرقية . وانتهى بهما المسير إلى شارع الجيزة ، فانعطفا إلى يسارها ، وتنهد الشاب بارتياح ، فالشارع كالمقفر ، وجوه كالمظلم ، ورفع راحتها إلى فمه ، ولثمها بشغف ، ثم مال نحوها فأخذ قبله مطمئنة لذيدة الطعم ، من شفتين ممثنتين طريتين . ولمحها تسبل جفنيها لوقع القبلة ، فانتفض جسمه القوى ، وشاعت فى روحه شرارة سرور مكهربة ، وقال وهو يزدرد ريقه :

— ما أطفك .. ما أجملك !

ومضت فترة سكون لذيدة ساحرة ، ثم تنهد وقال فى شبه حسرة :  
— بينى وبين الامتحان النهائى أشهر معدودات ، أما أنت !  
فقالت :

— امتحان البكالوريا فى يونيه . ماذا تختار لى ؟

فقال الشاب بحماس :

— كليتي ..

وهي وإن كانت الضرورة تحتم عليها أن تتم دراستها . إلا أنها وددت لو  
قال لها مثلا : « حسبك دراسة وهلمى إلى عشنا ! » فشعرت بشيء من  
الاستياء وسألته :

— لماذا أختار كليتك ؟

— لنكون عقلا واحدا وفنا واحدا ومهنة واحدة ..

— مهنة واحدة ؟

فقال بحماسة الذى لا ينضب :

— أجل يا حبيبتي وظيفة المرأة أخطر شأنا من عمل الجارية . محال  
أن أخون مبادئى ، أو أن أرضى بحرمان المجتمع عضوا جميلا نافعا  
مثلك !

وكانت مقتنعة برأيه على وجه آخر ، لأن الضرورة تملئ عليها أن تختار  
مهنة يوما ما . بيد أنه ضايقها — وإن لم تدر لماذا — حماسه لرأيه ،  
وودت لو كانت هي التى حملته على قبوله على تمنع وتردد منه .  
ومضيا فى الطريق المقفر . يستلهمان آمالهما الحديث ، ويفصلان  
حديثهما بالقبل .

كانت إحسان شحاته عظيمة الشعور بأمرين : جمالها وفقرها . كان  
جمالها فائقا . وقد استأسر سكان دار الطلبة ، وجعل سكان الحجرات  
يرسلون شواظ أنفسهم فتلتقى جميعا فى شرفة الدار الصغيرة البالية ،  
وترتمى عند قدم الفتاة الحسناء الفخور . ولكن لم توجد بالدار مرآة  
حقيقة بأن تعكس ذاك الجمال الصبيح ، فالفقر حقيقة ماثلة كذلك ،  
وقوى شعورها به إخوتها السبعة الصغار ، وأن لا مورد لهم إلا دكان سجائر  
مساحتها متر مربع وجل زبائنهم من الطلبة ! وطالما خافت على جمالها

عوادى الفقر ، وسوء التغذية . والواقع أنه لولا وصفات أمها — كانت الأم من قيان شارع محمد على قبل أن يتزوجها المعلم شحاتة تركى — لهزل جسمها ، ولذبل ردهاها اللذان مدحهما أحد شعراء كلية الطب بمعلقة رنانة . وقد عرفت على طه ، اختاره قلبها من دار الطلبة جميعا ، وحظى بإعجابها شبابه وجماله ونبله ومستقبله ، بيد أن أمرين هامين جعلتا يتنازعان قلبها من أول لحظة : حياة قلبها وحياة أسرتهما ، أو بمعنى آخر على طه والآنحوة السبعة الصغار ، وكانت عرفت — قبل على طه — شابا موسرا من طلاب القانون . وقد أدركت من سلوكه أنه يطمع فيها متعة لقلبه ولهوا لشبابه ، فأخذت حذرهما . وكان والدها يطلعان على أسرار حياتها ، فما راعها إلا إغراء أمها وطمع أبيها فى مال الشاب ! وتنبهت إلى حقائق حياتها المرة ، وخوافيها المحزنة . والواقع أن والديها لم يضمنوا للأخلاق احتراماً قط ، وكانت شركتهما عشقا قبل أن تصير زواجا ، وظل أبوها يرتزق فى سوق الجمال بجماله وصفافته حتى تزوجته أمها ووهبته ما ادخرت من مال ليتاجر به ، فبدد ما بدد على المخدرات والقمار ، وبقيت له دكان السجائر الصغيرة . ولكنه كان يقول لنفسه متعزيا : « ضاعبت حياتى حقا ولكن البركة فى إحسان » . فوجدت فيه الفتاة كما وجدت فى أمها عونا للشيطان والسقوط . ولكنها لم تسارع إلى السقوط ، فقد تلقت اهانة عن غير قصد فنار كبرياؤها وأنقذها ، إذ رأت الشاب صديقها يجالس أباهما يوما فى الدكان ، فأدركت أنه يساومها على عرضها . وثار غضبها ، وشعرت بالخزى والعار ، ثم قطعت الشاب بقسوة لم تدع له أملا ! خرجت من التجربة ظافرة ، ولكن بعد أن علمت أنها تعيش فى بؤرة . ثم إنها شعرت فى قرارة نفسها بأنها تخلصت فجأة من الرقابة والقيود ، وأنها صارت حرة تفعل ما تشاء بغير حساب . وأحدث شعورها بتلك الحرية المطلقة فى نفسها ثورة ، لبثت حيناً بغير هدف ولا وازع أيضا . ولكن

يقظة جنونية دبت في عواطفها فتمطت ترتاد متنفسا ، وإن عقلها الحياء والتردد ، كان الجور خائفا والرئتان سليميتين ، فدلّت الظواهر على أن النهاية محتومة ما منها مناص . وجعل أبوها الفاجر يقول لها متأسفا على ضياع الشاب الموسر : « إنك مسئولة عنا جميعا ، وخصوصا إخوتك السبعة » . رياه ، هل تستطيع أن تعتصم بإرادتها حيال تلك الدوافع الفاجرة ؟ ألا يمكن أن يتواصوا بالصبر حتى تتم تعلمها بمعهد التربية وتجد مهنة شريفة ترتزق منها ١٩ واستسلمت للمقادير في غير ثقة ولا إيمان شأن ضعاف الإرادة .. حتى جاء على طه . وجدت في على ودا صادقا ، وإخلاصا قويا ، ومقصدا نبيلًا ، فدعم إرادتها المزعزعة . وأنقذها من غمرة الحيرة والخوف ، وأعاد إليها شعور الاحترام والكبرياء : فأحبته وناطت به آمالها . ورمى عم شحاته تركى الشاب الجديد باستياء وقال عنه : « إنه شاب فقير ، حتى السجائر لا يدخنها ! » وقال للفتاة مرة ساخرا : « مبارك عليك الشاب الجميل الذى بعثه الله ليجمعنا ! » ولكنها أعرضت عنه ، ووضعت أملها في المستقبل : فهو كفيل بأن يهيئ لها مهنة محترمة وأن يحقق لها أحلام قلبها ...

أما على طه فكان شابا ذا مزايا حسنة كثيرة . كان مثالا طيبا للروح الاجتماعية الحقة ، ففي عهد دراسته الأول كان عضوا بارزا في القسم المخصوص ، وجمعية الرحلات المدرسية ، وجماعة الخطابة والصحافة ، يجيد الحديث والخطابة وطهى الطعام والغناء ، مع ميل محمود للاطلاع والثقافة واستمساك مخلص بالفضيلة . وبانتقاله إلى الجامعة ضاق ميدان نشاطه ، ولكنه عمق وارفع ، فصار « الأستاذ » على رئيسا لجماعة المناظرات ، وتميز على الأقران بقوة الخطابية وثقافته العامة وحضور بديهته وكان يهتم بالمثل العليا ويتحدث بحماس وإيمان عن المدينة الفاضلة ، فصدقه عارفوه ، ولكن بعض المغرمين بالنقد أشاعوا عنه

أنه داهية لا يشق له غبار ، وأنه يغزو الأوساط جميعا ملثما بالفضيلة ، فيصيد الحسان باسم العلم والفضيلة . وأنه يتحدث عن الأخلاق كما يتحدث الخاطبة عن عروس لم ترها ولكنهم غالوا وكذبوا ، والحقيقة أن الشاب كان صادقا مخلصا ، وأنه إذا كان يحب الجمال فقد أحبه بنزاهة وإخلاص . بيد أن حياته لم تخل من أزمات عنيفة ، فقد تزعزعت عقيدته منذ مستهل حياته الجامعية ، وتعرض لآلام التحول الفتاكة ولكنه كان شجاعا صادقا . فاستقبل الحياة الجديدة بإرادة متوثبة وعقل شغوف بالحق . ولم يكن من الهازئين الماجنين ، ولم يكتفم إعجابه بمأمون رضوان لصدقه وشجاعته ، ولكنه ارتقى بين أحضان الفلسفة المادية : هيجل وستولد وماخ ، وآمن بالتفسير المادى للحياة ، وارتاح أيما ارتياح للقول بأن الوجود مادة ، وأن الحياة والروح تفاعلات مادية معقدة ، وأن الشعور صفة ملازمة عديمة الأثر كصوت العجلة الذى يلزم دورانها دون أن يكون له فيه أى أثر . وطالما قال له مأمون رضوان : إن الفلسفة المادية فلسفة سهلة ولكنها لا تحل مسألة واحدة حلا مقبولا . ولكن على طه كان شابا اجتماعيا ، لا يصبر على التأمل طويلا . ويذاكر فى أسبوع ما ربما ذاكره مأمون فى يومين ، فإلى جانب وقت القراءة هناك وقت للرياضة وآخر للمناظرة وثالث للرحلة ورابع للحب إلخ .. فحسبه من الفلسفة هذا التفسير الجامع وليستأنف سيره فى الحياة ولكن هنالك عقبة كأداء تنذر بأن تصير هاوية جارفة : الأخلاق ؟ .. نهضت أخلاقه فيما مضى على دعامة من الدين ، فعلام تنهض اليوم ؟! ما الذى يمسك على الفضائل قيمتها بعد الله ؟ أم تراه يزدريها كما ازدري عقيدته من قبل ، ثم يلتقى بنفسه فى تيار الحياة الجارف بلا وازع ولا ضمير ؟! إن المنطق واضح ، والنهائية محتومة ، ولكنه تردد وتماسك واتقى بقوة القصور الذاتى ، وتسائل : ألا يمكن أن يحيا كما يحيا أبو العلاء ؟ ولكن أبا العلاء كان

ضريرا مجدورا سوداويا ، أما هو فشاب جميل مفتول العضلات ، اجتماعي المزاج ، فأنى يكون له الزهد والتقشف !! ووجد نفسه فى مثل الحيرة التى وجدت فيها إحسان شحاتة عقب تحررها من ظل والديها . وأخيرا ظفر بمنقذه كما ظفرت بمنقذها ، التقى بأوجست كونت رجل المجتمع ، وبشره الفيلسوف بإله جديد هو المجتمع ، ودين جديد هو العلم . آمن بالمجتمع البشرى والعلم الإنسانى ، واعتقد أن للملحد — كما للمؤمن — مبادئ ومثلا إذا شاء وشاءت له إرادته . وأن الخير أعمق أصولا فى الطبيعة البشرية من الدين ، فهو الذى خلق الدين قديما وليس الدين الذى أوجده كما كان يتوهم وجعل يقول عن نفسه : « كنت فاضلا بدين وبغير عقل ، وأنا اليوم فاضل بعقل وبلا خرافة وثاب إلى مثله العليا آمننا مطمئنا . ممتلئا حماسا وقوة ، وشغف بالإصلاح الاجتماعى ، وحلم بالجنة الأرضية ، فدرس المذاهب الاجتماعية ، حتى طاب له أن يدعو نفسه اشتراكيا .. وانتهى المطاف بروحه — التى بدأت رحلتها من مكة — إلى موسكو ! . وطمع يوما أن يجذب أصدقائه المقربين إلى الاشتراكية ولكنه لم يفلح . قال له أحمد بدير معتذرا : « إني صحافى وفدى . والوفد حزب رأسمالى » وقال له مأمون رضوان بإيمانه المعروف « للإسلام شتراكيته المعقولة ، فيه الزكاة التى تضمن لو طبقت بدقة العدالة الاجتماعية دون جور على الفرائز التى يستمد الإنسان منها العون فى كفاحه ، فإذا أردت للدنيا نظاما يهبىء لها الأخوة الحققة والسعادة والعدالة فدونك والإسلام » . أما محجوب عبد الدائم فهز منكبيه استهانة وقال باقتضاب : « طظ » . ومهما يكن من أمر فقد عرف لحياته هدفا أنقذه من الحيرة والفوضى والفساد . وحق له أن يقول على نفسه مسرورا : « هاكم بطاقتى الشخصية وهى تغنى عن كل تعريف : فقير واشتراكى ، ملحد وشريف ، عاشق عذرى ! » .

انتظر محبوب عبد الدائم فى حجرته كذلك ، ولكن دون أن يغير  
ملابسه لأنه لم يكن كصاحبيه يملك بدلة خاصة ليوم الخميس وكان يرقب  
الطريق من نافذته ، فرأى مأمون رضوان وهو يغادر الدار فى مشيته  
العسكرية ، ولاحظ إيماءة الهوى بشرفة الدار الصغيرة القديمة ، ثم رأى  
العاشقين الشابين يوافى أحدهما الآخر إلى شارع رشاد باشا . وشيع كل  
واحد منهم جميعا : « طظ » مفعمة سخرية وحقدا . فسخريته تضرر  
دائما حقدا . وكان ينتظر ميعاده ، إلا أنه يؤثر الظلمة ويحب الستر ،  
فخلت الدار تقريبا إلا منه . كان محبوب عبد الدائم — كمأمون  
رضوان — طولا ونحافة ، إلا أنه شاحب مفلفل الشعر ، يميز وجهه  
جمحوظ عينيه العسليتين وصعود شعيرات حاجبيه إلى أعلى ، هذا إلى نظرة  
قلقة متقلبة يوحى يريقها بالتحدى والسخرية . ولسم يكسن به  
كصاحبيه — جمال ، ولكن لم يكن بقسماته كذلك قبح منفر .  
ولا يخطيء الناظر إليه ما يدل عليه منظره من التحدى ، فما ينفك فى  
خوف من أن يقذفه بنكتة أو دعابة أو ملاحظة لاذعة . وكان يرى حياته  
ملبئة بالمشكلات ، ويضع على رأسها جميعا مشكلته الجنسية ،  
ويصفها بأنها مشكلة عسيرة الحل كالقضية المصرية سواء بسواء ! وقد  
رأى احسان شحاتة ، وطالما أثارت بركان شهوته ، رآها — كما يرى أى  
امراة أخرى — صدرا وعجزا وساقين ، وكانت إحدى مفاتيها هذه كافية  
لإطلاق شرارة كهربائية فى صدره ، ولكن الفتاة — علسى حد  
قوله — أحسنت الاختيار ، وآثرت الفتى الأشقر ذا العينين الخضراوين .  
ولبثت حياته مقفرة موحشة ، فقلبه فى ظلام وعقله فى ثورة دائمة . كان



صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه ، وفلسفته المحرية كما يفهمها هو . ووظظ أصدق شعار لها . هي التحرر من كل شيء ، من القيم والمثل والعقائد والمبادئ ، من التراث الاجتماعي عامة ! وهو القائل لنفسه ساخرا : « إن أسرتى لن تورثنى شيئا أسعد به فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به ! » وكان يقول أيضا : إن أصدق معادلة فى الدنيا هي : الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ . وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه . فهو يعجب بقول ديكارت : « أنا أفكر فأنا موجود » . ويتفق معه على أن النفس أساس الوجود ، ثم يقول بعد ذلك إن نفسه أهم ما فى الوجود ! وسعادتها هي كل ما يعنيه . ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من أن المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعا ، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عشرة فى سبيل نفسه وسعادتها ! . وإذا كان العلم هو الذى هيا له التحرر من الأوهام ، فليس يعنى هذا أن يؤمن به أو أن يهبه حياته ، ولكن حسبه أن يستغله وأن يفيد منه . فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين ، وإنما غايته فى دنياه : اللذة والقوة ، بأيسر السبل والوسائل ، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة . لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه ، ولكن تهيؤ لها نما معه منذ أمد بعيد . فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة ، كان والداه طيبين جاهلين . ولظروفهما الخاصة ، أتم تكوينه فى طرق بلدة القناطر . وكان لداته صبية شطارا ينطلقون على فطرتهم بلا وازع ولا تهذيب فسب وقذف واعتدى واعتدى عليه وتردى إلى الهاوية . ولما انتقل إلى جو جديد . — المدرسة — أخذ يدرك أنه كان يحيا حياة قذرة ، وعانت نفسه مرارة العار والخوف والقلق والتمرد . ثم وجد نفسه فى بيئة جديدة ، طالبا من طلاب العلم بالجامعة ، ورأى حوله شبانا مهذبين يطمحون إلى الآمال البعيدة والمثل العالية . ولكنه عشر

كذلك على نزعات غريبة وآراء لم تدر له بخلد . عثر على موضحة الإلحاد والتفسيرات التي يبشر بها عنماء النفس والاجتماع والأخلاق والظواهرات الاجتماعية الأخرى ، وسر بها سرورا شيطانيا ، وجمع من نخالتها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه الذى نهكه الشعور بالضعفة ، لقد كان وغدا ساقطا مضطجلا فصار فى غمضة عين فليسوفا ! المجتمع ساحر قديم ، جعل من أشياء فضائل ، وجعل من أشياء رذائل ، وقد وقف على سره وبرع فى سحره وسيجعل من الفضائل رذائل ومن الرذائل فضائل ؟ وفرك يديه سرورا ، وذكر ماضيه أطيب الذكر ، ورمى مستقبله بعين الاستبشار ، وألقى عن عاتقه شعور الضعفة . بيد أنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن فلسفته سرية ، يجوز أن يدعو مأمون رضوان إلى الإسلام جهارا ، ويجوز أن يعلن على طه اعتناقه لحرية الفكر والاشتراكية ، أما فلسفته فينبغى أن تظل سرية — لا احتراماً للرأى العام فإن من مبادئها احتقار كل شيء — ولكن لأنها لا تؤتى أكلها إلا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحده ! ألا ترى أنه إذا آمن الناس جميعا بالرديلة لم يتميز بينهم بما يتيح له التفوق عليهم ؟ لذلك احتفظ بها لنفسه ، ولم يعلن منها ما هو فى حكم الموضحة كالإلحاد وحرية الفكر . إلا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة فإنه ينفس عن قلبه بالمزاح والسخرية ، فبدأ للقوم ماجنا لا شيطانا مجرما . ومضى فى سبيله فقيرا بلا خلق يرصد القرص ويتوثب للانقضاض عليها بجسرة لا تعرف الحدود .

\* \* \*

لبث فى حجرته ينتظر الظلام ، فلقلبه أيضا مغامرات ولكن حبه كفلسفته لا يحيا فى النور ، وما فتاته فى الواقع إلا جامعة أعقاب سجناء . ولشد ما أغضبه حفظه من الحب ، ولكن ما الحيلة ونقوده لا تكاد تفى بضرورات الحياة ؟ وكثيرا ما يهزأ بنفسه فيقول : « لست خيرا

منها فهي جامعة أعقاب سجائر ، وأنا جامع أعقاب فلسفة ، ثم إنى فى  
نظر المجتمع شر منها ! » وقد رمت بها المصادفات بين يديه ، فلم يدع  
الفرصة تفلت ، وقال متعزياً : من تواضع لله رفعه . رآها ذات  
مساء — وكان يتمشى فى طريق العزبة المقفر — وراء شجرة تين مع أحد  
بوابي شارع رشاد باشا . فترى بها حتى رآها تسير بمفردها بعد أن عاد  
النوبى إلى الشارع الآخر ، واقترب منها بجرائته ولمس منكبها وهو يقول  
مبتسماً :

— رأيت كل شيء .

فتوقفت الفتاة عن المسير ، ورمته بعين داهشة ، وتبينها على ضوء  
الطريق فوجدتها شديدة السمرة كاعب الشديس فاضطربت أنفاسه ،  
وحدها بعين نمر مفترس .. وأفادت الفتاة من دهشتها فسألته باستهانة :  
— ماذا رأيت ؟

فأجاب محجوب وعيناه تقولان لها « برح الخفاء » :

— شجرة التين .. البواب ..

فسألته بنفس اللهجة الدالة على الاستهانة :

— وماذا تريد ؟ ..

فقال بصوت مضطرب :

— مثله .

— أين ؟

— ليكن نفس المكان :

فدارت على عقبيها ، ولكنها قالت قبل أن تهتم بالمسير ، وبصوت يدل

على الإنذار :

— ثلاثة قروش !

فغمغم بارتياح :

— جميل .

ثمن زهيد لا تنوء به ميزانيته والفتاة لا تخلو من ثدى كاعب . بيد أنه يرجو أن تكون سمرتها القائمة لونا طبيعيا لا ترابا متلبدا ، وما عليه بعد ذلك إلا أن يتحمل الرائحة الكريهة المنبعثة من جسدها ، لا بأس ، فشيء خير من لا شيء ، وهسل ينسى أنه نفسه لم يكن يستحس — فى القناطر — إلا فى المواسم ؟. بل إنه ليتساءل : ألا يسوى الظلام بين النساء جميعا ؟ وسألها وهما عائدتان :

— ألك عهد طويل بالبواب ؟

— كلا . هذه أول ليلة .

— ألم تتواعدا مرة أخرى ؟

— كلا .

فقال محجوب بارتياح :

— ولكن لن تكون الليلة آخر ليالينا .

فتمتت وهى تثبت الخمار على رأسها :

— وجب .

\* \* \*

وكان الظلام يتلغ الكون ، وما زال بموقفه من النافذة ينتظر موعد صاحبه ، ثم سمع نقرا على الباب ، فدلف منه وفتح ، فرأى بواب الدار يلوح له بخطاب . وأخذ الخطاب ورد الباب ، وألقى على الظرف نظرة سريعة فرأى ختم القناطر ، ثم لاحظ بسهولة أن الخط غير خط أبيه فمن عسى أن يكون كاتبه ؟ إنه يرى ذلك الخط أول مرة ..

وفض الغلاف متعجبا وقرأ ما يأتى :

حضرة الشاب الفاضل محجوب افندى عبد الدايم :  
السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فإنه يؤسفنا أن نخبركم بأن والدكم  
العزیز مريض وملازم الفراش ، ونسأل الله أن يجعل العواقب سالمة ، ولكن  
لا بد من حضورك فى أقرب وقت لتطمئن عليه بنفسك ، وقد طلبوا إلى أن  
أكتب هذا إليك فلا تتأخر والسلام .

شلى العفش ( صاحب بقالة القناطر الخيرية )

هذا يعنى أن أباه فى حالة عجز تمنعه من أن يمسك بالقلم فماذا  
أصابه ؟ وقرأ الكتاب للمرة الثانية وقد لاح الوجوم فى وجهه الشاحب وجعل  
يشد حاجبه الأيسر بأنامله . ومن عجب أنه لا يذكر أن أباه شكوا المرض  
يوما ما ، كان دائما متين البنيان ثقيل الخطوات ، فلا شك أن مرضا  
خطيرا غدر به وأعجزه . ترى ما الذى يخبئه الغيب ؟ .. وماذا يدخر له  
ولوالدته ؟

ولكن لا يجوز أن يضيع الوقت سدى ، أو أن يؤخر سفره دقيقة .  
وكتب كلمة لمأمون رضوان يشرح سبب سفره المفاجئ ، ولف جلبابه  
فى جريدة قديمة . ثم غادر الدار . لم يمش إلى الشارع العزبة كما كان  
يرجو منذ دقائق ، ولكنه أخذ فى شارع رشاد باشا أو شارع على وإحسان  
كما يدعوه سائرا . ومضى يحدث نفسه قائلا : « لو انتهى أجل الرجل  
لوئدت آمالى جميعا ... رباہ ! أيمكن أن يحدث هذا وما عاد بينى وبين  
الامتحان النهائى سوى أربعة أشهر ! » وجد فى الطريق المقفرة الغارقة  
قصوره فى جلال الصمت لا يسمع إلا وقع قدميه ، حتى بلغ الجيزة ،

واستقل الترام ، تظلل الكآبة وجهه وعينييه ، وفي جلسته المحزونة سرح به فكره إلى صاحبيه المقربين : مأمون رضوان وعلى طه ، فنفس عليهما ما يتمتعان به من طمأنينة وثقة : مأمون رضوان أبوه مدرس بالمعاهد ، ذو مرتب حسن فلا تعيش أسرته في ظل الخوف ، وهو يعطى الشاب ما يكفيه وأكثر ولولا حرق مأمون الذي جعله يوقف حياته على العلم والعبادة لكانت له لذات الحياة ولكنه أحرق ، والحمقى دائما مجدودون . أما على طه فأبوه مترجم ببلدية الإسكندرية ذو مرتب ضخم ، والشاب يقبل على التمتع بالحياة في حدود مثله ، فهو شاب سعيد ، وحسبه إحسان كي يكون سعيدا ، ولعل إنسانا ما لم يثر حسده كما يثيره هذا الشاب الجميل الموفق ، هو هو البائس !.. أبوه — ترى ألا يزال أباه — كاتب بشركة الألبان اليونانية بالقناطر ، خدمة خمسة وعشرين عاما ومرتب ثمانية جنيهاً . وإذا انقطع عن العمل فمكافأة أشهر معدودات . وكان الرجل يبذل له من مرتبه ثلاثة جنيهاً شهريا أثناء السنة الدراسية ، فنهضت بالضرورات من مسكن ومأكل وملبس ، ورضى بها الشاب رضاء المتمرد المغلوب على أمره وجعل يرمق ملاذ القاهرة من بعيد ، ويسترق السمع إلى أخبارها بنهم وألم . كان ينطوى على شهوة جامحة بقدر ما يضيق بطموح جشع . تواردت عليه هذه الخواطر فسأته تلك الساعة أكثر من أى وقت مضى . ثم فكر فى العلاقة التى تربطه بهما ، وفيما يسمونه بالصدقة ، غافلا عن مشاهد الحقول والمياه التى يطوبها الترام فى جريه السريع . أله صديق حقا ؟ كلا ، وما الصدقة إلا إحدى الفضائل التى كفر بها ١٩ . حقا إنه يميل إليهما كثيرا ، فنقاش مأمون يستهويه ، وروح على تجلبه إليه ، ويلذه أن يجتمع بهما يتحادثون ويتحاورون ولكن ما شأن ذلك كله بما هو معروف عن الصدقة ١٩ . إنه مع ذلك يحسدهما ويمقتهما ؟ ولا يتردد عن إبادتهما لو وجد فى ذلك

نفعا . ومضى يقول لنفسه بلهجة التحريض : « الحرية المطلقة .. طظ المطلقة .. ليكن لى أسوة حسنة فى إبليس .. الرمز الكامل للكمال المطلق .. هو التمرد الحق ، والكبرياء الحق ، والطموح الحق ، والثورة على جميع المبادئ ! . وانتهى الترام إلى محطة الإسعاف ، فتركه واستقل تراما آخر إلى ميدان المحطة ، ومن ثم إلى المحطة نفسها ، ثم انطلق إلى شباك تذاكر الدرجة الثالثة وابتاع تذكرة . ولما تحول عن الشباك وجد نفسه أمام شاب فى الثلاثين . متوسط القامة مع ميل إلى القصر والبدانة ، مثلث الوجه كبيره ، كثيف الحاجبين ، حاد البصر ، مستدير العينين ، يلقي على ما حوله نظرة متعالية كلها ثقة وزهو ، فعرفه ، ودنا منه ماذا إليه يده باحترام هاتفا :

— الأستاذ سالم الإخشيدى ! .. السلام عليكم ..

فالتفت إليه دون أن تتغير ملامح وجهه ، ونادرا ما يتغير وجهه ، فهو لا يندهش ولا يزعج ولا يبدو عليه سرور ولا حزن ، فإذا أراد أن يعلن غضبه — وكثيرا ما يفعل — استعان بنبرات صوته الغليظ . التفت نحو محجوب وقال بهدوء ورزانة :

— كيف أنت يا محجوب ؟

— شكرا لك والحمد لله .. ولكن ما الذى جاء بالأستاذ إلى

المحطة ؟

فقال الإخشيدى بصوته الرزين :

— مسافر إلى بلدتنا القناطر لزيارة والدى ، ولكن ما الذى جاء بك

أنت وليس الوقت بموسم إجازات ؟

فقال محجوب بأسف ظاهر :

— إلى القناطر أيضا لعيادة والدى المريض .

— عبد الدايم افندى مريض ؟ .. كتب الله له السلامة . بلغه

تحياتى .

ثم سارا جنبا لجنب فى اتجاه موقف القطار . وكانت أخبار الإخشيدى انقطعت عن محبوب فترة يسيرة ، فسأله :

— ألا تزال يا أستاذ سكرتيرا لقاسم بك فهمى ؟

فلاحت شبه ابتسامة فى عينى الإخشيدى وقال :

— أنا مرشح الآن لوظيفة مدير مكتبه . المذكورة فى المستخدمين .

فقال بسرور ظاهر لا ظل له فى نفسه :

— مبارك .. مبارك يا أستاذ !

فرفع الرجل حاجبيه يزهو ، وقال باقتضاب :

— درجة خامسة .

فهتف محبوب :

— مبارك .. مبارك ، العقبى للرابعة .

فقال الإخشيدى متفلسفا :

— بلدنا منهوب مسلوب ، مسؤولياته بيد الضعفاء الأغبياء ، ومهما

نرتق فلن نزال دون ما نستحق !

فأمن محبوب على قوله قائلا :

— صدقت يا أستاذ .

ثم استأذن الإخشيدى واتجه نحو عربة الدرجة الأولى ، وأتبعه الشاب

عينيه حتى اختفى ، ثم سار إلى الدرجة الثالثة تعلق وجهه الكآبة والأحلام .

واتخذ مجلسه من العربة ورأسه لا ينسى عن التفكير ، والإخشيدى

لا يسرح خياله . منذ عامين كان الإخشيدى طالب ليسانس

مثله — محبوب — الآن ، ولعله كان مثله أيضا يكفر بالمبادئ ولكن

دون جلبة أو ضوضاء .. وربما كانا لا يختلفان اختلافا جوهريا فى شيء

فهما فى الذكاء سواء ، وهما فى الأخلاق — أو عدم الأخلاق — سواء .



ولكنهما جد مختلفين فى الإعصاب : فسالم الإخشيدى يزن كلامه وزنا دقيقا ، ولم يعرف عنه أنه مس مبدأ من المبادئ أو خلقا من الأخلاق بكلمة سوء ، أما محبوب فعلى حذره سحر من كل شيء ، ومما يذكره محبوب ولا ينساه أن صاحبه عرف آخر عهده بالكلية كزعيم خطير من زعماء الطلبة ، وكان من أبطال لجان المقاطعة وموزعى المنشورات ضد الدستور الجديد . ومما يذكره ولا ينساه كذلك أن الإخشيدى دعى يوما لمقابلة الوزير ، فذاغت عن المقابلة الأفاويل ، وتوقع كثيرون أن يقع اضطهاد أو بغى ، ولكن الفتى انقلب فجأة وبغير تدرج . انسحب من ميدان السياسة كله ، وتوقف نشاطه الذى لم يكن يعرف الحدود ، ولم يعد يُرى إلا فى حجرات المحاضرات . ولكن إذا واجهه أحد بسؤال عن سر انقلابه أجابه ببرودة المعهود : « ميدان الجهاد الحقيقى للطلبة : العلم ! » ثم حصل على الليسانس ، وعين — قبل أوائل الطلبة — سكرتيرا لقاسم بك فهمى ، وكان واسطته الوزير نفسه . بل وضع فى السادسة — وهى وقتذاك فردوس مفقود — وها هو يرشح للخامسة قبل أن يمضى على تعيينه ستان ، وبعد أن استقال بمدة كبيرة الوزير الذى عينه ، مما يدل على أنه حاز ثقة قاسم بك نفسه وأنه يسير قدما . يا له من مثال يحتذى ! يا له من رجل يستحق من الإعجاب قدر ما يستوجب من الحسد .. لكم يبدو عليه جاه المنصب ، وإقبال الحياة .. ماذا يضيره إذا احتقره مأمون رضوان أو على طه ١٩ .. طظ ..

وكان القطار يطوى الأرض طيا ، والبرودة تنفذ إلى الداخل على الرغم من إحكام غلق النوافذ ، ولكنه لم يشعر بالبرودة تماما إلا حين كف عن التفكير فزرر الجاكete واعتدل فى جلسته . سرعان ما عاد إلى تذكر أبيه المريض ، فأدرك أنه يفرق فى الأحلام متغافلا عن الهاوية تحت قدميه . وعاد إلى وجومه ، مرسلا نظرة حزينة كهيبة ، حتى وقف القطار فى القناطر ، فآخذ لفافته وغادره . ثم ترك المحطة إلى الطريق العام ، وألقى على المدينة نظرة شاملة وهتف : « يا قناطر يا بلدنا .. وزعى الحظ بين أبنائك بالعدل ! » .

ولم تمض سوى دقائق معدودات حتى وجد نفسه أمام البيت الصغير الذى ولد فيه ، بيت من طابق واحد ، يتقدمه فناء ترائى مسوّر بدرابزين خشبي ، يدل مظهره على البساطة والتكشف .

وكان يواجه المحطة فى الجانب الآخر من الطريق ، ويطل سطحه على الحقول فيما وراء السكة الحديدية . وبدا البيت مظلمًا غير بصيص نور يلوح من خصاص نافذة أبيه . فخفق قلبه خفقانًا متداركًا ، وصرخ به الخوف والرجاء . واجتاز الفناء إلى المدخل وطرقه بخفة ، فسمع وقع قبقاب ، وعرف صاحبه وفتح الباب ، وبدا شبحها وراءه ، فأقبل نحوها قائلاً :

— مساء الخير يا أماء .

فسمع صوتًا يقول متنهدا : « أنت ا ! » ثم أخذت يده بين يديها ، وقالت بنفس الصوت المتعب :

— كيف أنت يا بنى ؟ حدثنى قلبى بأنك الطارق .

وكان الدهليز مظلمًا فلم يتبين ملامح وجهها ، فردّ الباب وهو يتساءل بلهفة :

— أماء .. ماذا حدث ؟ .. كيف حال أبى ؟

فقالَت المرأة بصوت محزون :

— ربنا يأخذ بيده .

ووضع لفافة الجلباب على خوان ، ودخل الحجرة بقدمين محاذرتين ، وسبقته عيناه إلى الراقد على الفراش ، واقترب منه ، وكان رأس الرجل مائلًا نحو الجدار . غمغم بصوت خافت :

— مساء الخير يا أبى .. كيف حالك ؟

ولم يبد على الأب أنه سمع حسا أو أدرك شيئا ، فانحنى إلى أم على رأسه  
وقالت :

— محجوب يمسي عليك ..

واعتدل رأس الرجل ببطء ، وتحرك جفناه ، ثم أبرز يسراه ، فأخذها  
محجوب بين يديه وقبلها ، وبدا الرجل مريضا جدا وبدت عيناه مظلمتين  
كأنهما تقطران من ماء آسن ، وفمه معوجا ؛ قال محجوب :

— أبى .. كيف أنت ؟ .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وثبت الرجل عينيه عليه ، وتكلم بصوت متحشرج ، متقطع المخارج  
قائلا :

— لم يعاودنى النطق إلا ظهر اليوم !

فارتاع محجوب وسأل أمه :

— هل عجز وقتنا عن النطق ؟

فقالت المرأة المتعبة :

— أجل يا بنى . كان فى عمله عصر الثلاثاء الماضى كالعادة ، فسقط  
فجأة فاقد النطق ، وجاءوا به محمولا ، ودعوا بالطبيب . وأتى الطبيب  
فحجمه وحققه ، ولا يزال يعود كل صباح ، ولكن لم يعاوده النطق إلا قبل  
ظهر اليوم .

— ماذا قال الطبيب ؟

فلاحت فى عينيها نظرة حيرى ، وتحركت شفتاها دون أن يسمع لها  
صوت ، فقال أبوه :

— قال إنه شلل .. شلل .. جزئى ..

وارتاع الشاب لفظاعة الاسم ، وإن كان يجهل حقيقته كل الجهل .  
وأرادت أمه أن تفرخ روعه فقالت :

— ولكنه أكد صباح اليوم زوال الخطر ..

فاستطرد الأب بصوته المتقطع الغامض :  
— إني .. أفهم .. ما يقال .. لن أعود كما كنت أبدا ..  
فعض محجوب على شفثيه وسأل والدته :  
— هل وقع الأمر بفتة ؟

— كلا يا بني ، كان أبوك كعهدنا به صحة وعافية ، بيد أن ثقلا اعتور  
ساقه اليمنى ، وصداعا شق عليه مساء الاثنين ..

وساد الصمت ، فأغمض المريض جفنيه ، وليث بلا حراك ، كأنما  
راح فى سبات عميق . وعطف الشاب رأسه إلى أمه ، فأيقن أول وهلة أنها  
لم تذق للنوم طعما منذ مساء الثلاثاء ، عيناها محمرتان ذابلتان ، تطوقهما  
هالتان زرقاوان ، وبشرتها شديدة الصفرة ، وامتلا حزنا وكمدا ولاح والداه  
لعينيه مخلوقين بائسين مثله تماما . وجلس على كرسي قريبا من الفراش ثم  
أطرق متفكرا : هذه أسرة يتعلق مصيرها بحياة رجل مهدم ، فماذا تحت  
الجفنين المطبقين ؟ .. أحياة أم موت ؟ .. أنجاح أم تشرد ؟ لماذا لم  
يتأخر هذا الشلل عاما آخر ؟ وذكر شارع رشاد باشا الصامت الجليل ،  
والقصور القائمة على جانبيه ، والباشوات والبكوات تحملهم السيارات منه  
وإليه ، والنساء اللاتي يلحن وراء ستائره وبين خمائله . فأين من أولئك  
والداه البائسان ؟ . وهذا البيت المتداعى ! ! وجعل يقول لنفسه : إنه  
لو كان وريث أحد تلك القصور وأشفى أبوه — الباشا — على الموت  
لانتظر موته بفارغ الصبر . وتنهد من قلب مكلم وقد احتدم الغيظ فى  
قلبه ثم تساءل وهو لا يتحول عن إطراره : ترى كيف تنتهى هذه  
المأساة ؟

\* \* \*

واسترق النظر إلى أمه ، وكانت تجلس مطرقة عند قدميه ، فرآها غارقة  
فى السواد الذى حلفت ألا تخلعه مدى الحياة منذ ماتت له أختان

بالتيفود ، ذابلة الوجه ، تبدوا أكبر من سنّها الذي جاوز الخمسين بقليل ، تنوء بأنقال عمر أنفقتة أمام لهب الكانون ووهج الفرن ، تعجن وتخبز وتغسل وتكنس ، فتجبرت أصابع يديها وبرزت عروق ظاهر كفها ، لم تجد في حياتها وقتا للثرثرة ، كانت كالبتروال الذي يحرك آلة كبيرة دون أن تدركه الحواس . وكانت تحب ابنها حب عبادة ، وقد تضاعف هذا الحب بعد وفاة شقيقته في ميعة الصبا ، ولكنها لم تترك أثرا يذكر في تكوينه وتربيته ، وكانت لا تجد في حياتها من تكلمه فعاشت كالبهكم في صمت وجهالة . وقد أقسرت الظروف أباه على الاختفاء من حياته كذلك ، فكان يواصل العمل في الشركة من الصباح حتى ما بعد العشاء ، ثم يهرع بعد ذلك إلى حلقات الأذكار حتى منتصف الليل ، فكان لا يكاد يرى ابنه . وكان رجلا مجتهدا دمويا ، مخلصا لبيته ، وصورة منها ، لا يشذ عنها في شيء ، يفاخر كثيرا بقرابته لأحد كبار الموظفين — قريب زوجه — وكان كزوجه لا يعرف الراحة ، فلم يهنا بحياته الزوجية ، واقتصرت رعايته لابنه على إلزامه بالقيام ببعض فروض دينه — مستمتعنا بالعصا في أحايين كثيرة ، لذلك جميعه ، نشأ محجوب على خوف من أبيه ، وانطلق إلى الشارع الذي أتم تربيته وتكوينه ، ولذلك كانت صلته بوالديه واهية ياهتة . كان يحب أمه أكثر من أبيه ، ولكنه بات على استعداد دائما لأن يخضع صلته بهما لفلسفته المدمرة التي لا تبقى على شيء ، فلم يكن حزنه حزنا على والده بقدر ما كان إشفاقا على الرجل الذي ينفق عليه ثلاثة جنيهاً كل شهر .

فى صباح اليوم الثانى جاء الطبيب وفحص المريض وحققه بالكافور ، ثم صرح بارتياحه للحالة مؤكدا أن الخطر زال تماما . وغادر الرجل الحجرة يتبعه محجوب حتى أدركه فى الفناء ، والتفت الطبيب إليه وقد أدرك الباعث الذى حمله على اللحاق به :

— الحقيقة ما قلت لأبيك ، الإصابة جزئية وإلا كانت القاضية . بيد أنى صارحته كذلك بأنه لن يعود إلى عمله ، وسيلازم الفراش بضعة أشهر ، ولكنه سيحرك جنبه المشلول . بل ربما عاود المشى . ووقف انتباهه عند « لن يعود إلى عمله » فلم يدر شيئا مما قال بعد ذلك ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وعاد إلى الحجرة ذاهلا ، وكان أبوه ذا طبيعة عملية ، لا يدع أمرا معلقا إذا أمكن أن يبت فيه برأى ، فدعا ابنه إلى الاقتراب من الفراش ، وقال بلسان ثقيل :

— أصغ إلي يا بنى ، لن أعود إلى عملى بالشركة ، هذه هى الحقيقة فماذا ترى ؟

فازداد صدر محجوب انقباضا ، ولزم الصمت فى انتظار النطق بالحكم ، فاستدرك الرجل :

— ربما منحتنى الشركة مكافأة صغيرة ، ستفقد بلا ريب قبل مضى أشهر قلائل ، بل المؤكد أنه لن يبقى منها شيء بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر ، ولكن لن أعدم نصيرا يجد لك وظيفة تنهض بنا جميعا .. فقال محجوب بتوسل ، وقد نطقت عيناه بالألم والقنوط :

— الامتحان يا أبى على الأبواب ، نحن فى يناير وهو فى مايو ، أما إذا وظفت الآن فسأعد كحامل البكالوريا ، وفى ذلك ضياع لمستقبلى عظيم ..

فقال الأب بحزن :

— أعلم ذلك ، ولكن ما الحيلة ؟ أخاف أن نتعرض للفضيحة أو نهلك  
جوعاً !

فقال الشاب بتوسل حار ، وبصوت مملأ حماساً وقوة :

— أربعة أشهر ، أربعة أشهر فقط بيني وبين ثمرة كد خمسة عشر  
عاماً .. أمهلني قليلاً يا أبتى ، ستكفيينا المكافأة حتى أنهض على قدمي ،  
لن نجوع ، ولن نتعرض للفضيحة بإذن الله .  
— وماذا يكون من أمرنا إذا أخطأ تقديرك ؟ .. إذا خاب سعيك لا قدر  
الله ؟ إن حياتنا بيدك !؟

فقال محجوب وهو يعرض بنواجذه على أهداب الأمل :

— أنت لا تدري يا أبتى كيف سيكون اجتهادي ! لن يحول بيني وبين  
النجاح حائل !

وتردد الشاب لحظة ثم قال :

— وهناك قريب والدتي أحمد بك حمديس !

ولكن والده رفع يسهام محتجاً ، وقطب استياء ، فخاف الشاب أن  
يفقد عطفه ، وأن يذهب ما بذل في إقناعه هباءً ، فقال بسرعة :

— لا حاجة بنا إلى معونة أحد ، وستسير الأمور بإذن الله وفق آمالي  
وأدرك أنه أخطأ بذكر قريبهم العظيم الذي تناساهم واحتقر صلته بهم  
منذ تبوأ مركزه الرفيع . أجل إن والده يفاخر جهاراً — على مسمع من الغرباء  
— بقرابته ، ولكن طالما أنحى عليه باللائمة أمام والدته ، وطالما أضمر له  
الاستياء واللوم . أدرك محجوب ذلك نادماً ، وعاد يقول :

— لا حاجة بنا إلى معونة أحد ، ولكن ينبغي أن نستوصي بالصبر وأن  
نطمئن إلى رحمة الله ، أربعة أشهر فحسب وبعدها الفرج .. !  
وكان أبوه يعلم أن المكافأة تكفيهم — مع التقدير — خمسة أشهر أو

سنة ، فتفكر مليا ثم سأله :

— تستطيع أن تعيش بجنيه واحد فى الشهر ؟

جنيه واحد ! أو ما يساوى إيجار حجرة بدار الطلبة ؟ .. رياه ! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقتة ثلاثة جنيهات ، فماذا هو صانع غدا بجنيه واحد ؟! ولم يمهل الرجل طويلا فاستدرك قائلا :

— لا حيلة لى والخيار بين يديك !

هل يملك خيارا حقا ؟! كلا ، إن أباه مُكره ، وما عليه إلا الإذعان والتسليم قال :

— لتكون مشيقتك .

فقال الشيخ :

— لتكون مشيئة الله ، والله مسئول أن يوفقك لما فيه الخير ، وأن يصل بك جناحنا المهيض .

واقترح الرجل على ابنه أن يرحل مساء حتى لا يضيع وقتا هو فى أشد الحاجة إليه . وعند المساء ودَّع الشاب والديه ، فقبَّل يد والده ، واستسلم لأمه تقبله وتباركه . وحين همَّ بمغادرة الحجرة سمع والده يقول له :

— الله معك اجتهد وتوكل على الله ، ولا تنس أنك أملنا الوحيد .. ومضى إلى المحطة ، ومهما يكن من أمر فقد استنقذ من الحيرة التى نهكته عند مجيئه . وعلم الآن أن أمله لا يزال معلِّقا بخيط لم يقطع بعد . أما ما يُنذر به المستقبل من متاعب فسيعرف كيف يعالجها مهما كلفه الأمر . وودَّع البلد وداعا فاترا . واتخذ مكانه بالقطار ، وسرعان ما تناسى البيت والأسرة فلم يعد يذكر إلا نفسه ، تساءل وهو ينتفح حاجبه الأيسر : لماذا قُدِّر له أن يولد فى ذلك البيت ؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدمامة ؟ أليس من الظلم أن يرسف فى هذه الأغلال قبل أن يرى النور ؟ ولو كان ابن حمديس بك مثلا لكان له جسم غير هذا الجسم



ووجه غير هذا الوجه وحظ غير هذا الحظ ، ولذاق الطمأنينة والسلام ،  
ولاقتنى سيارة . وتفكر محزوناً في الفقر الذي يترصص به ، فرآه ينسم إليه  
هازئاً كأنما يقول له : « ما استطعت دفعي بثلاثة جنيهات ، فهل تدفعني  
غداً بجنيه واحد ! » . أين يسكن ؟ .. كيف يأكل ؟ .. وهز رأسه في  
كمد ، ولكنه لم يشعر بخور أو تخاذل . كان عظيم الثقة بنفسه ، جريئاً  
إلى أقصى حد ، بيد أنه تميز غيظاً وحنقاً .

— ٩ —

وشارف شارع رشاد باشا والشمس تلوب في بحيرة الشفق الدامية ،  
والسمرة تلون حواشي الآفاق . ولاحت منه التفاتة وهو ينعطف إلى الشارع  
فرأى على طه قادماً من ناحية الجامعة ، فوقف ينتظره ، وتصافحا ثم قال  
على باهتمام :

— حدثني الأستاذ مأمون عن مرض والدك ، فأسفت لذلك غاية  
الأسف . وإنه ليسرني أن أستدل بسرعة عودتك على اطمئنانك !  
وكره أن يطلع مخلوقاً على أحزانه ، فقال باقتضاب مبتسماً :

— شكراً لك ..

— أليس هو بخير ؟

— بلى .. شكراً .

وسارا جنباً لجنب على مهل كأنهما يتنزهان ، وتساءل محجوب ترى  
آت صاحبه من موعد غرام أم ذاهب إليه ١٢ . هذا الشاب الذي يجد في  
محضرة من ذواعي السرور قدر ما يجد من ذواعي الألم ، واسترق إليه النظر  
فرآه يسير حالماً يضيء الابتسام وجهه ويقبس جبينه من نور البشر  
والبشاشة ، ويهتز طرباً من نشوة الحب . أليس توفيق العاشق كظفر  
المحارب لذة وخلاء ١٣ .. وشعر برغبة لا تقاوم في استدراجه إلى هذا

الحديث الجميل ، فقال مشيراً إلى مغارس الشجر مبتسماً ابتساماً لها  
معناها :

— آه لو ينطق هذا الشجر !

فقطن على طه إلى مرمى إشارته ، وكان وجدانه من اليقظة بحيث  
ألحت عليه الإبانة والحاجة إلى التعبير ، فقال بتأثر :

— أستاذ محجوب ، هو ما تظن ، ولكن لا تنظر إلى الأمر بعين  
السخرية ، كلا ، ما هو بالهزل . إن هزة قلب خطير له من المغزى في هذا  
الوجود ما لحركة الأفلاك في السموات ؛ فلا تذكر أبداً خزان البخار  
وصمام الأمن .

وشعر محجوب نحو محدثه باحتقار شديد ، ضاعفه ما نمت عليه  
نبراته من التأثر ، وضاعفه أيضاً ما يكنه له من الحسد ، وقال في نفسه  
ساخراً : حتى وظيفة التناسل يريد الأحمق أن يجعل منها محرّاباً مقدساً ،  
ثم قال بهدوء وبرود :

— يا أيها العاشقون ، لا أعبد ما تعبدون !

فابتسم على قائلاً :

— ولا نحن عابدون ما تعبد .

وخاف محجوب أن تعيد سخريته الشاب إلى رشاده ، فندم على ما  
فرط منه وأراد أن يداريه ، فغيّر لهجته وتساءل باهتمام ظاهري :

— غريب أمر هذا الحب !.. بيد أن فتاتك متفوقة حقاً !

فقال على بحماس :

— ليس الجمال فضيلتها الوحيدة : روحها لطيف ، وفؤادها ذكي ،  
ويعجزني وإيم الحق أن أعبر لك عن امتزاج روحينا . هذه إحسان !..

واضطربت نفس الآخر لدى سماع الاسم ، فامتلاً حنقاً فجأة . ترى  
أهذه هي الغيرة التي يقولون عنها ؟ .. يا للعار ! كيف يقع في ذل الغيرة من

يطمح إلى تحطيم الأغلال جميعا ١٢ وعاد يقول بلهجة جديدة يخفى بها  
سخرية جديدة :

— أظن كمال هذا الامتراج يوجب أن تكون فتاتك محررة من الدين ،  
مؤمنة بالمجتمع والمثل العليا والاشتراكية !  
فقال على برزانة :

— حسبنا أن نمحيا حياة وجدانية روحية واحدة ، وسوف يتحد عقلانا  
بالاختلاط ، فنكون أسرة سعيدة يوما ما ..

فقال محجوب باستغراب :

— أبلغتما هذا الحد ؟

— نعم .

— هل تكاشفتما ؟

— نعم . سأنتظر حتى تنتهى من دراستها العليا ..

— مبارك يا أستاذ .

وعز عليه أن يهنئ وهو أحق إنسان بالعزاء ، وامتلأ شجنا وانقباضا ،  
فاز على بأجمل مليحة فى القاهرة ، وغدا الجسد اللين الطرى من نصيبه  
واندفع إلى السؤال بغير روية :

— كيف عرفتھا ؟ .. فى الطريق ؟ ..

فقال على بدهشة :

— كلا .. من النافذة !

— ولكن غيرك نظر أيضا ؟

أفتنت منه الجملة بغير روية أيضا ، فندم عليها أشد الندم ، وخاف أن  
يفهمها صاحبه على حقيقتها فاستدرك بضلله :

— جيراننا الطلبة ينظرون كذلك ..

فصمت على مبتسما ، وسكت محجوب أن يورده لسانه عشرة

جديدة . وشارفا دار الطلبة : بدت كالثكنة العسكرية ، بيناتها الضخم ونوافذها العديدة الصغيرة ، ورأيا فى مقابلها— عند ناصية شارع العزبة — دار عم شحاتة تركى ، كان الرجل واقفا أمام دكانه ، كان فى الخمسين ، أبيض البشرة ، حسن الوجه فقال محجوب لنفسه ساخرا : « نعم الصهر » . ودخلا الدار الكبيرة ، أسعد الناس وأشقاها

## — ١٠ —

واجتمع الأصدقاء الثلاثة فى حجرة مأمون رضوان ، وكانت النافذة مغلقة والمدفأة وسط الحجرة يعلوها غشاء من الرماد . وكان مأمون ينتقد خطبة الجمعة التى استمع إليها ظهرا ، وجعل يقول إن خطب الجمعة فى حاجة ماسة إلى التجديد ، وأنها بحالتها الراهنة دعوة صريحة للجهل والخرافة .

ولم تكن خطبة الجمعة مما يأبه له صاحباها ، بيد أن على طه قال : — الحاجة ماسة حقا إلى وعظ من نوع جديد ، من كليتنا لا من الأزهر يبينون للشعب أنه مسلوب الحقوق ، ويدلّونه على سبيل الخلاص ..

وكان من عادة محجوب عبد الدائم أن يشترك فى أحاديث صاحبيه ، لا عن إيمان برأى فلم يكن له رأى يؤمن به ، ولكن حبا فى الجدل والسخرية . ولكنه شعر ذلك المساء— أكثر من ذى قبل— أنه من الشعب البائس الذى يعنيه على ، فأراد أن ينفس عن صدره المحزون بالكلام ، ولم يكن الشعب شيئا يهمه ، ولكنه لم يستطع أن يطرق همومه الخاصة إلا عن سبيله ، فقال :

— جميل .. إن علّتنا الفقر .

فقال على طه بحماس :

— هو الحق ، الفقر الذى يختنق فى جوفه الفاسد ، العلم والصحة والفضيلة ، إن من يرضى بحال الفلاح حيوان أو شيطان !

فقال محجوب فى نفسه : أو عاقل مثلى على شرط أن يكون غنيا . ثم تساءل بصوت مسموع :

— عرفنا الداء ، وهذا شيء ميسور ، ولكن ما العلاج ؟

فقال مأمون رضوان وهو يثبت طاقته :

— الدين ، الإسلام باسم لجميع آلامنا ..

ومدّ على طه ساقيه حتى كادتا تمسان المدفأة ، وقال دون مبالة لما قال صاحب الحجرة :

— الحكومة والبرلمان ..

فقال محجوب :

— الحكومة .. أى الأغنياء أو الأسر . والحكومة أسرة واحدة . الوزراء يعينون الوكلاء من الأقارب ، الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب ، المديرين ينتخبون الرؤساء من الأقارب ، الرؤساء يختارون الموظفين من الأقارب ، حتى المخدم يختارون من خدم البيوت الكبيرة . فالحكومة أسرة واحدة ، أو طبقة واحدة متعددة الأسر ، وهى حقيقة بأن تضحي بمصلحة الشعب إذا تعارضت مع مصلحتها .

— والبرلمان ؟

فقال محجوب مبتسما بخبث :

— النائب الذى ينفق مئات الجنيهات قبل أن يُنتخب لا يمكن أن يمثل الشعب الفقير ، والبرلمان فى ذلك شأنه شأن المؤسسات الأخرى ، انظر إلى قصر العينى مثلا . فالاسم مستشفى الشعب الفقير ، وبالفعل

حقل تجارب لإجراء اختيارات الموت على الفقراء ..

فقال على طه بهدوء :

— السخط شعور مقدس ، أما اليأس فمرض ، ومهما يكن من أمر  
فالبرلمان بحيرة تلتقى فيها جداول متباينة المصادر ، لا محيد عن أن  
تمتزج أمواها ، وينشأ عنها نبع جديد ..

فابتسم محجوب ابتسامة مرة وتمتم :

— تعجبنى هذه الأسماء : أحمس والهكسوس ، منفتاح واليهود ،  
عراي والجراكسة !

فقال مأمون رضوان ضاحكا :

— أعجب شيء أن طه شيوعى بئاء بينما أنت مدثر .. أنت أحق الناس  
بلقب فوضوى .

فقهقه محجوب حتى سعل وقال :

— نحن نشق على أنفسنا أكثر مما ينبغي ، كأن هذه الحجرة مسئولة  
عن رفاة الدنيا ..

فقال على طه :

— سوف تصفى جدرانها إلى آمال الأجيال المتعاقبة ما دامت حجرة  
للطلبة ..

فقال مأمون رضوان باهتمام متسائلا :

— هذه الحجرة معمل تفريخ ، فما الخطوة التالية ؟

فقال محجوب بسرور شرير :

— السجن إن كنا من الضادقين !

ثم ذكر الهموم التى جاء بها من القناطر ففقد حماسه للحديث ،  
ونفض مستأذنا فى الانصراف بتعب السفر ، ومضى إلى حجراته ،  
وجلس إلى مكتبه الصغير محزوناً متفكراً : إذا انتهى يناير انتهت معه

« رفاهية » حياته الراهنة ١ . أجل بدت له هذه الحياة فيما مضى جحيما ، ولكنها إلى ما ينتظره من حياة الغد نعيم مفقود ١ . ولا شك أن الأشهر الثلاثة القادمة تحمل في طياتها ألوانا من الشقاء لم يحلم بها قط ، فماذا هو صانع ؟ ومضى يشد حاجبه الأيسر مقطبا يلوح في وجهه الشاحب العزم والتحدى ..

## — ١١ —

ونشط في الأيام الباقية من يناير للبحث عن حجرة رخيصة ولم يظفر بحاجته بسهولة لأن الحي من الأحياء المأهولة ، ولأنه مكتظ بالطلبة ، وهؤلاء يتقاتلون على الحجرات المنعزلة فوق الأسطح ، ثم عشر في النهاية على حجرة سطحية بعمارة جديدة بشارع جركس — على مقربة من ميدان الجيزة — ولكن جدتها كانت طامة عليه لأن صاحب العمارة أبي أن يكرى الحجرة بأقل من أربعين قرشا ، فاضطر محجوب إلى القبول مغلوبا على أمره . وأخبر أصحابه بأنه سينتقل إلى حجرة بعمارة جديدة ، وقال لهم — وهو يغمز بعينه — إن أسبابا خاصة دعت إلى ذلك . قال ذلك وهو يعلم أنه سيعجزه غدا وصال جامعة الأعقاب ، ولكنه أثر كذبا من هذا النوع على إذلال كبريائه . ووجد نفسه في حاجة إلى نفقات النقل وابتياح مصباح غازي ، فنظر في أثاثه البسيط فلم يجد شيئا يمكن الاستغناء عنه ، سوى صوان الثياب الصغير — أشبه بصندوق منه بصوان — باعه سرا بمساعدة البواب بثلاثين قرشا . وفي أول يوم من فبراير حزم متاعه وودع أصحابه وانتقل إلى الحجرة الجديدة . وأدى الإيجار مقدما فلم يبق معه من نفقته الجديدة إلا ستون قرشا هي جماع ما يملك طوال الشهر . قرشان لليوم الواحد ، للغذاء والغاز ، وهناك الغسل ضرورة لا محيص عنها — وليترك

الكنس جانباً... ثم الحلاقة ، أما فتجان القهوة فمن الكماليات المحرمة .  
وليس فيما بقي من أثاثه الحقيق ما يمكن الاستغناء عنه أو ما يطمع أن يأتيه  
بشمن يذكر ، فالفراش وهو أهم ما لديه لا يكاد يساوى نصف جنيه ، ونفقه  
مع ذلك لا يقدر : فعليه يرقد وتحت حشيته يحفظ ثيابه . وهز رأسه  
ذا الشعر المفلفل وغمغم : « ستكر الأشهر الثلاثة كما يكر غيرها من  
الأيام ، ولن أموت جوعاً على أى حال » . وبات ليلته الأولى بالمسكن  
الجديد .

وفي صباح اليوم الثانى غادر الحجرة بعد أن أغلقها ، وأراد البواب أن  
ينظفها له ولكنه رده مشكوراً ، وكان فى الحقيقة يهرب لأنه لا يستطيع أن  
يتنازل له عن مليم واحد . وبلغ ميدان الجيزة ، وجال ببصره حتى استقر على  
دكان فول مدمس فتوجه إليه واجماً . ووجد جماعات العمال يقتعدون الإفريز  
أمام الدكان يلتهمون طعامهم ويتحدثون ويتضحكون فقال لنفسه :  
« أصبحت واحداً من هؤلاء العمال الذين يرثى لهم على طه .. » وطلب  
نصف رغيف وانتحى جانباً يأكله بشهية ، فأنتهى ولما يشبع . وكان بطبعه  
عظيم الشهية يتناول فى إفطاره صفحة فول ورغيف غير البصل والمخلل ،  
ولكنه لا يستطيع أن يأكل أكثر من وجبتين صغيرتين فى اليوم . وهز منكبه  
ومضى فى سبيل الجامعة وهو يقول : « لشد ما أنا فى حاجة إلى صفاء الذهن ،  
فإما النجاح وإما الانتحار ! » ومضى وقت الدراسة كالعادة ، وقابل أصحابه  
جميعاً ، وأنفقوا فى حذيفة الأورمان وقتاً غير يسير يتناقشون فى المحاضرات .  
وعندما أزف وقت الغداء انفصل عنهم فذهبوا إلى المقصف ، وعاد هو إلى  
ميدان الجيزة ، بالأمس فقط تناول غداءه بالمقصف مع على ، ومأمون ،  
وأحمد بدير ، وكان مكوناً من صفحة سبانخ باللحم الضانى وأرز وبرتقالة ،  
أما اليوم 1... ، وأقبل على دكان الفول وقد استقبله صاحبها بابتسامة  
وهو يقول : « أهلاً وسهلاً » . فأذته تحيته ونالت من كبريائه . وكان  
إلى جانب دكان الفول دكان كباب فحمل الهواء دخان الشواء إلى



أنفه . فسأل لعابه وتوجعت معدته ، ثم أخذ الرغيف — ومضى فأرأ من الرائحة الشهية . وعاد إلى حجرتة وفتح بابها ، فشم رائحة هواء فاسد لأنه كان قد ترك النافذة مغلقة ، ورأى الغبار يعلو المكتب والكتب ، والبطانية مكومة على الفراش ، فأدرك أن عليه منذ الساعة أن يكون طالبا وخادما وربما « غسالة » أيضا ، وشرع فى القيام بوظائفه الجديدة ممتعضا ثائرا ، الحياة الجديدة شاقة متعبة ، سيواصل دراسته بلا ريب ، وسيواصلها بعزم وعناد ، ولكن لن يسكت له جوع أو يطمئن له جانب ، وسيسهر الليالى طاولا ، يجلس إلى مكتبه الساعات الطوال مثلج الأطراف مقوس الظهر ، وربما فضحه مظهره وعرضه للهزة والسخرية ، وربما نال منه الجوع فأسقمه .

ولكن ليس له إلا أن يكافح بصلاية وعناد ، وأن يتحدى الناس والحظ والدنيا جميعا وأن يغضب وأن يحقق وأن يجن جنونا . استمر فى عمله حتى انتصف الليل ، ثم ترك مكتبه إلى فراشه ، ووقد عليه منهوك القوى ، وهو يغمغم :

— انتهت أولى ليالى محتى !..

— ١٢ —

وفى صباح اليوم الثانى استيقظ متعبا موجع الرأس ، ومن عجب أنه لم يكن جائعا ، ولكنه ذكر آلام جوع الليلة الماضية ، فإن رغيـف الفول لم يصمد بعد العشى . وتركه لجوع قاس أليم ، وقد خطر له أن يضرب عن طعام الإفطار على أن يتناول فى غدائه رغيـفا ونصف ، فيضمن راحة الليل ويذاكر رخي البال ، أما ساعات النصف الأول من النهار فالدروس كفيـلة بأن تشغله عن معدته فى أثنائها . فكرة طيبة جديدة حقا برأس فقير معدم

والعادة كفيّلة بأن تجعل الألم غير أليم ، بيد أنه ما كاد يكرع كربة روية ويستروح نسائم الصباح في الطريق حتى تمطى وحش معدته ، فانهارت عزيمته ، وهرب إلى دكان الفول لا يلوى على شيء . وراح ... وهو يتناول طعامه ... يذكر ما يقال عن سير متصوفى الهنود ، وعجب كيف يقاومون الجوع تلك المقاومة الخارقة ، وكيف يصبرون على الألم ذلك الصبر المر ، ويجدون في هذا وذاك لذة عالية .. ربا .. لشدة ما احتارت هذه الكلمة البديعة « اللذة » بين أمزجة البشر . أما هو فلذاته بيّنة ، وحرمانه بين كذلك ، حتى جامعة الأعقاب أمست عزيزة المنال . وذهب إلى الكلية ، وحضر الدرس الأول ، ثم مضى إلى الحديقة ينتظر الدرس الثانى الذى يبدأ بعد ساعتين وجلس على أريكة وسط جمع من الطلبة يستمتعون بأشعة الشمس اللطيفة التى يجود بها فبراير جود مقتر شحيح . وكانوا يتحادثون بحمية الشباب وينتقلون من موضوع إلى موضوع كيفما شاءوا : تلك الأنسة البدينة التى تضطرب نبراتنا ويتهدج صوتها إذا نهضت لقراءة نص من النصوص ، ومستر أرفنج مدرس اللاتينى ذو الشعر الذهبى .. ألم يكن من الإنصاف لو خلق أنثى ، وتخلقت أنسة درية ذكرا ؟ السينما وتهديدها للثقافة الحقّة والفن الرفيع ، والويسكى والحشيش وأيهما أمتع ، هل يعود دستور سنة ١٩٢٣ ؟ ، من صاحب الفضل الأكبر فى إنشاء الجامعة ؟ الملك أم المغفور له سعد زغلول ؟ جماعة مصر الفتاة هل هم مخلصون أم دسيسة ؟ من أحق بالفضل فى نهضة المسرح يوسف وهبى أم فاطمة رشدى ؟ أيهما خير للوطن أن يتم الأمير فاروق دراسته فى إيطاليا كما يريد والده ، أم فى إنجلترا كما يريد الإنجليز ؟ . امتلأ الجو آراء وملاحظات ، وضج بالضحكات والصياح ، واشترك محبوب فى الكلام بقدر ، وأصغى لما يقال بسخريته كالعادة ، ثم نهض يتمشى فى أرجاء الحديقة الواسعة ، حتى أزف وقت الدرس

فانطلق إلى الكلية ، وبعد انتهاء الدرس خرج متأبطاً ذراع أحمد بدير ، وقد قال له الشاب الصحافي :

— مبارك عليك السكن الجديد .

فقال محجوب مبتسماً :

— بارك الله فيك .

فسأله الشاب وعلى شفثيه ابتسامة مأكرة :

— من أسرة أم من بنات الهوى ؟

فأدرك محجوب في الحال عم يتساءل صاحبه ، وارتاح لذلك ، وأجابه بابتسامة غامضة قائلاً :

— هذا سر لا يذاع !

— هل تقيم معك في الحجرة أم توافيك إليها الليلة بعد الليلة ؟

فقال محجوب بزهو :

— الإقامة مجلبة للشبهات كما تعلم !

فهر الصحافي رأسه وهو يمصمص بفمه وقال :

— يا حظك !..

وتتابعت أيام فبراير ومتاعب الحياة تصكه صكاً ، ولاحقه شبح الجوع ليلاً نهاراً ، فلم تطمئن معدته إلا سويعات معدودات في اليوم الطويل . وكان إلى عمله الدراسي يكنس حجراته وينظف مكتبه ويرتب فراشه ويغسل مناديله وجواربه وقمصانه . ولم يدر كيف يقتنى الحوائج التي يعدها غيره تافهة كابتياح قطعة من الصابون أو غاز المصباح أو حاجته من الورق ، فاضطر أياً ما أن يقتصر على وجبة واحدة . وطحنه الجوع طحناً ، واشتد هزاله ، وشحوب وجهه ، حتى خاف على نفسه ، نفسه التي يحبها أكثر من الدنيا جميعاً أو التي يحبها وحدها دون الدنيا جميعاً ، لبث جائعاً وحيداً في الحجرة التي يحسب بعض صحبه أنها مهد غرام مستعر . لماذا

لا يسأل إخوانه أن يطعموه ؟ لو سأل على طه ما تأخر أو تردد ، ولو سأل  
مأمون رضوان لنزل له عن طعامه ولو كان كسرة خبز . فما الذى يمنعه ؟  
الكرامة ؟ .. الكبرياء ١٢ .. تبا له ! ألم يكفر بكل شيء ١٢ ألم يستهزئ  
بالقيم ؟ فما له يأبه للكرامة والكبرياء ١٢ تبا له . لا تزال فلسفته كلاما  
وهراء ، متى يصير رجلا حقا ؟ متى يفرط فى كرامته وعرضه كأنه يتفض  
ترايا عن حداته ١٢

وبلغ الكرب ذروته حين طالبت الكلية باقتناء كتاب فى اللغة اللاتينية  
ثمنه خمسة وعشرون قرشا ، فأسقط فى يده ، ولم يجد من ثمنه مليما  
واحدا . وقد بات الامتحان قريبا ! ماذا يصنع ؟ أما اللجوء إلى أحد من  
أصحابه فحل بغض مقيت ، خصوصا وهو يعلم أنه لن يقضى دينه إذا  
استدان ، فماذا يصنع ١٢ ومضى يوم ويوم ، واضطربت حياته أيما  
اضطراب ، وأوشك أن يدركه القنوط لولا أن ذكر قريب والدته الكبير أحمد  
بك حمديس !.. أيجوز أن يقنط وله مثل هذا القريب الكبير ١٢ . أجل إن  
والده يجد عليه وجدا عظيما ، ويقول إنه رجل جحود ، نسي أهله ، وتنكر  
لهم . هذا هو الواقع حقا ، ولكن والده مخطيء فى غضبه وليس البك  
مخطئا فى سلوكه . إذا كان قريبه يتكبر فجميع أمثاله يتكبرون ، ومن  
حقهم التكبر ولولا آداب الريف الحمقاء لما غصب والده . بيد أن تكبر  
البك لن يمنعه من أن ينظر إلى مسألته بعين العطف ، ويمد له يد المعونة ،  
فليقصد إليه آمنا ، وسوف يكفيه شر اللجوء إلى البغضاء !

وغادر حجراته وقد صدقت نيته على زيارة قريبه وتجربة حظه ، ولم يقتصد في تهيئة نفسه ، فكوى طربوشه ، ولمع حذاءه بقرش كامل أو بثمان وجبة كاملة ، ولكنه بدا رغم ذلك كالعليل شحوب وجه وهزال جسم ، وبحث في دفتر التليفون عن عنوان قريبه : شارع الفسطاط بالزمالك ، وحث إليه الخطى ..

وحلّق به الخيال — في مسيره — في عالم الذكريات المنظوية ، فأضأت فترة بعيدة من الزمن إذ هو في الثامنة ، وإذ قريبه لا يزال أحمد أفندى حمديس المهندس بالقناطر ، وكانت أسرة المهندس مكونة من زوجه الحسنة وتحية ابنتهما — في الرابعة — وطفل في الثانية من عمره . كانت أسرة سعيدة تزينها ربة مفرطة في الحسن . وفي ذلك الوقت لم يكن آل حمديس يترفعون عن مخالطة آل عبد الدائم ، ولم يأل عبد الدائم أفندى جهدا في إكرام الأسرة العزيزة . ولكم جاب الأسواق يبتاع الدجاج والحمام يهبيء لهم مائدة شهية . ولقد فاز هو بعطف حرم حمديس بك فكانت تشنى على ذكائه وتعجب بشطارته ، وتترك له تحية يلاعبها في فناء الدار وفي الطريق . ترى كيف صارت تحية الآن ؟ .. وهل تذكره ؟ . لقد انطوى ذاك العهد منذ خمسة عشر عاما ، فمسي واندر وانتهى ، وذهب بذكراه الزمن والإهمال . ولو كانوا شيئا ذا بال لرست منهم آثار في باطن الذاكرة ، ولكن آل حمديس كبروا وعظموا ولبشوا هم على ضآلتهم وتفاهتهم ، فأمحت القناطر من سجل الحياة ، وغاصت ذكرياتها في غياهب الماضي ، ونبت عبد الدائم أفندى موظفا بالشركة اليونانية . ترى

كيف صارت تحية ؟ .. ألا يمكن أن تتذكره ؟. ذلك الغلام الذى كان يحملها بين يديه ويجرى بها ما بين البيت والمحطة ١..١. أما حمديس بك فلا يمكن أن ينسى وإن تناسى ، سيدكره بمجرد أن يقع عليه بصره ، ولن يقبض دونه يده .

وبلغ الزمالك ، واهتدى — بعد سؤال — إلى شارع الفسطاط . كان كشارع رشاد باشا ضخامة وسكونا ، وتحتشد على جانبيه الأشجار الباسقة ، وتشتبك أغصانها من الجهتين ، فتجعل فوق أديمه ظلة من الأزهار الحمر . فرمق القصور بنظرة غريبة من عينيه الجاحظتين ، نظرة يقول لسان حالها متسائلا : « هل يمكن أن ينفذ الشقاء من هذه الجدران الغليظة ؟ أحق ما يقول مدعو الحكمة أم أنهم يخدرون القلوب الملتاعة ١٢ » واقترب بقدمين ثابتتين من الفيلا رقم ١٤ ، وسأل البواب بلهجة رفيعة ونبرات رزينة عن البك ، وأخبره أنه قريبه وأنه جاء لمقابلته ، فدعاه النبوى إلى السلامك ، ودخل حجرة كبيرة فاخرة الأثاث ، لم يسبق له أن دخل بيتا كهذا البيت ، أو وجد فى حجرة كهذه الحجرة ، فألقى على ما حوله نظرة متفحصة مقرونة بالدهشة والإعجاب والحسرة ؟ وتطلع بناظريه من نافذة قريبة فرأى ناحية من حديقة حافلة بآى الجمال المعطر . ترى كيف يكون استقبال البك له ؟ هل تدعوه حرمة لترى كيف صار الغلام شابا يافعا ١٢ هل يتذاكرون عهد القناطر ويسألون بشوق عن عبد الدائم أفندى الصديق القديم ؟ .. هل يتأثرون لمرضه ويدركون الباعث الذى حمله على طرق بابهم فيمدون له يد المعونة عن طيب خاطر ؟ .. يا لها من حجرة نفيسة ١..١. ألا يمكن أن يملك يوما قصرا كهذا يقصد إليه ذوو الحاجات ؟ ..

وسمع وقع أقدام ، فاتجه بصره نحو الباب ثم رأى البك — وقد عرفه من النظرة الأولى على تغير صورته وتقدم عمره ، قادما ، فنهض قائما وتقدم

منه فى أدب مادا يده ، فتصافحا والبك يمعن فيه النظر ، ثم قال مبتسما :  
— هو أنت إذا !.. بدا الاسم غريبا بادية الأمر ثم أسعفتنى الذاكرة ،  
الآن صرت رجلا ، كيف حال والديك ؟ .  
بدا الاسم غريبا بادية الأمر !.. هو أنت إذا !.. وتناسى محجوب  
ذلك كله وقال بإجلال :

— والدتى بخير ، ولكن والدى مريض ، بل فى حالة خطيرة !  
وعند ذلك جلسا ، وكان البك يرتدى معطفه يدل مظهره على أنه  
متأهب لمغادرة البيت ، وقال الرجل وهو يسند ظهره إلى مقعده :  
— لا بأس عليه ، ماذا به ؟

فقال محجوب بعناية وبصوت واضح :  
— أصيب والدى بشلل ألزمه الفراش ، فانقطع عن عمله ، وساءت  
الحال .

وناط أمله بالعبارة الأخيرة « ساءت الحال » فاسترق إلى البك النظر  
على أثر النطق بها ، ولكنه لم يجد لها أثرا يذكر ، وقال البك دون أن تتغير  
ملامح وجهه الباردة :

— أمر محزن ، أرجو أن تبلغه تحياتى ، وأنت يا محجوب هل انتهيت  
من الدراسة ؟

وأحنقه تغير مجرى الحديث ، وأثاره برود محدثه ، ولكنه لم يجد بدا  
من أن يجيبه قائلا :

— امتحان الليسانس فى مايو القادم .

— عظيم .. مبارك مقدما ..

ثم نهض وهو يقول :

— آسف جدا أن أتركك الآن لأنى على موعد هام .

فنهض الشاب قانطا حائقا يلعن فى سره المقابلة التى لم تستغرق

دقيقتين بعد فراق خمسة عشر عاما ! ألم يدرك الباعث الذى رمى به إلى بيته ؟ ألم تدله « ساءت الحال » على ما جاء من أجله ١٢ وتبعه إلى الخارج فى حيرة شديدة ، هل يمسك بذراعه ويهتف به : « إني فقير معدم وفى شدة الحاجة إلى معونتك فمد إلى يدك ! » وتوئب للعمل مجازفا بكل شيء ، ولكنه رأى على بعد قريب فتاة شابة وفتى يافعا يرقيان السلم فى هدوء ، فانهارُ توئبه وجمد بصره على القادمين . عرف تحية من النظرة الأولى على رغم التفاوت الكبير بين الصورة المائلة للحسن والصورة الثاوية فى الذاكرة ، وعرف من أوجه الشبه بينها وبين الفتى أنه شقيقها . نسي عزيمته ، وانقلب إلى حالة من الجمود .. والكبرياء . ونظر البك إلى ابنه مبتسما ، ثم أومأ إلى محجوب قائلا :

— الأستاذ محجوب قريبى .. تحية ابنتى وشقيقها فاضل .

وتصافحوا . وقال محجوب مبتسما :

— إني أذكرهما جيدا .

فقال البك وهو يتحرك نحو السيارة التى تنتظره :

— إذا امكث معهما بعض الوقت .

هل يملك معهما ؟. وتبادلوا النظرات فى تطلع وابتسام .. أما فاضل فشاب جميل نبيل المنظر فكّره من النظرة الأولى لأناقته وجماله ونبله ، وأما تحية ففتاة حسناء فائقة الحسن ، ربما كانت إحسان شحاتة أفتن منها حسنا ، ولكن تحية مثال كامل للتعبير عن الأناقة والكبرياء ، وأنموذج حى للأرستقراطية ، فسرعان ما بهرت حواسه ، وسرعان ما وجد فيها الرمز الحى للحياة العالية التى يتآكل قلبه حسرة عليها ، وقد سمرت عواطفه وهيئجت طموحه ، بيد أنها لم تثر شهوته كما فعلت إحسان ، ولا أيقظت بنفسه عاطفة سامية فلا عهد له بالعواطف السامية ، ولكن حركت به إعجابا مقرونا بالحنق ، ورغبة ممتزجة بالتحدى ، فشر فى أعماقه بنزوع إلى



السيطرة عليها والبطش بها ! وقر عزمه فى الحال على أن يمكث معهما . !  
وجلس ثلاثهم فى الثوى الفخم ، وأيقن أنه لن تخفى عليهما رثاءة هيئته ،  
ولكنه تلقى هذه الحقيقة بالاستهانة ، والواقع أنه كان يتمتع بقدرة عجيبة  
على قهر الحياء والارتباك . وعلى الأذراع باستهانة لا تعرف الحدود . !  
وقال فاضل مبتسما :

— هل تذكرنا حقا يا أستاذ ؟

فقال محجوب بهدوء :

— عشنا معا فى بلدة واحدة منذ خمسة عشر عاما ، كان اليك  
مهندسا بالقناطر وكنا نلعب معا فى « حديقة » بيتنا .  
فقال له الشاب بدهشة :

— لا أذكر شيئا عن هذا العهد .

وقالت تحية بصوت مهذب كمنظرها سواء :

— ولا أنا تقريبا ..

فألمه ذلك ، وقال مداريا عواطفه بالابتسام :

— كنتما صغيرين ، أما أنا فكنت فى الثامنة ..

فهز فاضل رأسه مبتسما وسأله :

— وهل انتهيت من الدراسة ؟

ترى هذا السؤال من تقاليد الأسر الأرستقراطية ؟ ! وأجاب :

— سأنتهى فى مايو .

— أية كلية ؟

— الآداب ..

فقال فاضل بلهجته الرفيعة :

— نحن سعداء إذ وجدنا قريبا مثلك .

فقال على الفور :

— وأنا أسعد لأنى وجدت قريبين .  
وكانت تحية تتفحصه بعينين أنثويتين ، فقالت لمجرد الرغبة فى  
الحديث كما يقضى الأدب :  
— لم نزر القناطر منذ تركناها .

وارتبك محجوب على غير عادته ، هل يدعوهما لزيارة القناطر  
ومشاهدة البيت ذى « الحديقة » التى كانوا يلعبون فيها ؟ بيد أن فاضل  
أنقذه من ورطته بأن قال موجهًا خطابه لشقيقته بلهجة ساخرة :  
— وهل زرت القاهرة التى تعيشين فيها ؟ أنت لا تعرفين إلا الصالونات  
والسينما ؟

فابتسمت تحية وقد تورد وجهها وقالت :  
— يالك من مغال سناخر ! ألا تعلم أنى أعرف القاهرة جميعا حتى دار  
الآثار والأهرام زرتها كالسائحين ١٩٠٠  
فخطر لمحجوب خاطر بديع فقال على الفور وقد خلص من ارتباكهِ :  
— دار الآثار والأهرام باتت مناظر مملولة ، هل زرت الحفريات  
الجديدة ؟

فتساءلت تحية ملتفتة إلى المتكلم :  
— الحفريات الجديدة ؟  
فأشار إلى صدره كأنه هو الذى اكتشفها وقال :  
ت حفريات الجامعة : بعد سير دقائق من الهرم الأكبر ، دنيا غريبة  
محاطة بالأسلاك الشائكة ، وجميع مفتشيها من أصدقائى وزملائى فمتى  
نذهب معا لمشاهدتها ؟

فقالت بسرور :  
— لا أدري ، ولكننى سأذهب يوما ما .. أليس كذلك يا فاضل ؟  
فقال فاضل بلا وعى منه وقد أخذ يعتوره الفتور :  
—

— طبعا .. طبعا ..

وشعر محجوب عبد الدائم وهو يعبر حديقة الفيلا بعد انتهاء الزيارة أنه من الممكن أن يتشأ بينه وبينهما نوع مما يسميه الناس بالصدقة . وتفكر فيما يمكن أن يفيد من هذه الصدقة إذا حدثت ، أم يخرج منها كما خرج من زيارة البك صفر اليدين ..

— ١٤ —

ووجد نفسه فى شارع الفسطاط مرة أخرى ولفحته ريح باردة عاتية لم يدر متى هبت ، تهز الأغصان فيضج الطريق بحفيفها ، وتصفر بين الجدران فيصم الأذان زفيفها . فسرت إلى جسمه المتعب رعدة تمشت فى مفاصله ، فأمشير أقسى من أن يحتمله ضعيف جائع . بيد أن أفكاره شغلته عما حوله فاقتحم طريقه نصف شاعر بقساوة الجو . ذكر فاضل ، وقارن بينه وبين نفسه ، هنالك الصحة والجمال والغنى وهنا المرض والدمامة والفقر ، ومع ذلك فهما قريبان ! أما تحية ففتاة أرستقراطية ، صورة حبة للدنيا التى يطمح إليها . ترى هل يذهب بها يوما إلى الأهرام ؟ إن فتاة مثلها لحقيقة بأن تكون مفتاحا سحرىا يفتح الأبواب المغلقة ويصنع المعجزات . تفكر فى ذلك طويلا ، ولكن يا أسفا . أيجوز أن يغرق فى تلك الأحلام وينسى همومه الراهنة ؟ من أين له النقود ليشاع كتاب اللاتينى ؟ وكيف له بمقاومة الجوع الذى بات يهدد جسده وعقله .. ! يا عجباً !.. هل من دليل على حقارة الإنسان أكبر من ضرورة الطعام لحياته ؟! أليكون هذا الطعام الذى يقتلع من الطين ويسمد بالقاذورات زبدة الحياة وقوامها ؟ وعماد التفكير ؟ والميدع الحق للمثل العليا ؟ أليس هذا دليلا على أن جوهر الإنسان قذارة وحقارة ؟! وحث خطاه . وكانت الرياح

لا تزال تزمجر كاسرة . والسماء تتلبد بالسحاب المظلم ، ومياه النيل  
الزمردية تصطخب وتعريد ، فألقى على ما حوله نظرة غاضبة ، وبصق على  
الأرض باحتقار كأنما يناصر الدنيا العداة ؟ .. ألا يحسن به أن  
يقترض ؟ .. ممن ؟ .. وكيف يقضى دينه ؟ لن يكون الشهر القادم بخير من  
سابقه ، بل لعله أسوأ ، فما العمل ؟ لو كان يعرف فن النشل ؟ .. النشل  
فن سحرى ، والنشال يملك ما فى جيوب الناس جميعا ، وقد عرف سادة  
هذا البلد مغزى هذه الحكمة . ولكن ما العمل ؟ هل يعيد على حمديس  
بك الكرة ؟ أيقابله فى الوزارة ويسأله صراحة المعونة ؟ واعتضت سبيل  
أفكاره صورة تحية . تحية بنبيلها وأرستقراطيتها . أيرضى أن تعلم أنه بائس  
شحاذا .. هذه الفتاة تحرك مشاعره . ليس مجنونا فيهدى كما هذى على  
طه ، فهى شهوة جديدة كنتلك التى علقى إحسان لا أفلاطون ولا هيام ،  
ومن عجب أنه كان عظيم الثقة بنفسه لحد غير معقول ، ربما كان مبعث  
هذا ما طبع عليه من جسارة وجراءة ، وفضلا عن ذلك كان يشارك العامة  
اعتقادهم فى التفوق الجنسى على الأغنياء ، فاعتقد صادقا أن تحية ليست  
بمنأى عن طموحه . كانت أحلامه لا توقفها السماوات ، وزادها الجوع  
جنونا ، ذلك الجوع الذى جعل من دراسته كفاحا مريرا ومن لياليه عذابا  
أليما . وكتاب اللاتينى ؟ تبا له . كيف يحصل على النقود ؟

واستيقظ في صباح اليوم التالي أهدأ نفسا ، فهدمت الأخيصة التي بعثتها في عقله زيارة آل حمديس . ولذلك أمكنه أن يثوب إلى رأى ، وأن يقرر أن يقصد إلى حمديس بك في الوزارة ماذا يده بالسؤال . مضحيا بصداقة تحية وفاضل . ولم ير بدأ من العدول عن الذهاب إلى الكلية ، وامتنع عن تناول الإفطار ليوفر ما يركب به الترام في الذهاب والإياب ، ومضى إلى حال سبيله فبلغ وزارة الأشغال في تمام العاشرة وعرف السبيل إلى سكرتير قريه ، فوجده رجلا في الأربعين ، فحياه بأدب وقال له :

— أريد مقابلة سعادة البك .

— من حضرتك ؟

— قريب البك .. محجوب عبد الدائم .

فاستنظره الرجل لحظة وغاب عن عينيه ، ولبث محجوب يفكر فيما عسى أن يقوله البك ، ويرتب الكلام ترتيبا مؤثرا . وعاد الرجل بعد قليل ، وجلس إلى مكتبه وهو يقول .

— البك يرأس المجلس الاستشاري فيحسن أن تعود يوما آخر . وبغته ذاك الجواب ، وكبر عليه ، فشعر بضربة تهوى على أم رأسه ، وقال برجاء :

— ولكنى أريده لأمر هام جدا .

— لا شك في هذا ، إن شاء الله ، ولكن يوما آخر .

— أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين .

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر :

... تعال مساء إذا شئت .

وغادر المكان مغیظا محنقا ، هل يتطلع الترام ما تبقى من نقوده ؟  
ألا فليذهب إليك ومجلسه الاستشارى إلى الجحيم . وأدرك أول وهلة  
أنه ينبغى أن ينتظر فى المدينة حتى العصر ... إذا أراد أن يقابل  
إليك ... توفيراً لنفقات الانتقال ، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذى ينهش  
معدته ، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثاً عن دكان فول ! وتناول الطعام  
الذى داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق فى طريق قصر  
النيل : ليقضى وقت انتظاره الطويل فى حدائقه . وكان الجو بارداً ،  
والسماء مليئة بالغيوم ! . وكان يسير مطرقاً مردداً بحقد وغضب :  
« أهاننى الرجل المجرم . أهاننى المجرم ! » ومع ذلك فهو مرغم على  
الجرى وراءه مرة أخرى ! .. هو عدو ما من صداقته بد ، وهو بعض  
الألم الذى تمتحنه به الدنيا . وأمر أصابعه على جبينه المحترق وقال :  
« لن أبكى .. سأحافظ على جبروتى ، ومهما بلغ منى الجوع فلن  
أصرخ مع الجبناء هاتفا يارب ! » وانتهت به قدماه إلى الحديقة .  
وراح يمضى الوقت ما بين الجلوس والمشى ضجراً مملولاً . وبسدت  
أطرافه ، وأحس تعباً فى معدته ، وتساءل خوفاً وفزعاً : « ألا يمكن أن  
ترك هذه الأيام السود آثاراً لا تزول أبداً العمر ! » وتجهم وجهه  
الشاحب ، ولاحت فى عينيه نظرة قلق محزنة . ومر على انتظاره نصف  
ساعة ، وكان يتمشى فى الطريق المحاذى للنيل ، لا يدري كيف يؤاتيه  
الصبر حتى يأزف الموعد ، وعلى مقربة من باب الحديقة الأندلسية  
الخلفية رأى فتاتين تدنوان منهنكثين فى الحديث والابتسام ، فألقى  
عليهما نظرة عابرة ، فعرف إحداهما كانت تحية حمديس دون سواها !  
كانت فى شغل عنه بصاحبها ! أما هو فقد أحدث ظهورها المفاجئ  
فى نفسه أثراً أى أثر ، انقطع حبل أفكاره : نسي أباهما ومجلسه

الاستشارى ، تناسى آلامه وجوعه : وتركز همه فى شىء واحد أن يلقاها ، ولم يحفل بمظهره ، ولا بوجود الفتاة الغريبة : ولم تتحول عيناه عنها فى معطفها السنجابى الملثف حولها فى أناقة أرستقراطية : ولعلها شعرت بعينه فنظرت نحوه ، وكانت أصبحت على بعد أذرع منه ، فاعترض سبيلها — وحنى رأسه تحية . ولاحت الدهشة فى وجهها : ثم تورّد ، وألقت عليه نظرة سريعة ، ثم مدت إليه يدها ، وقدمت إليه صديقتهما : وقدمته إليها : ثم وقفوا ثلاثتهم فى شبه ارتباك ، لقد اندفع إلى تنفيذ غرضه : ثم لم يجد ما يقوله ، ثم عمد إلى الأحاديث التقليدية فسألها :

— كيف حال الأسرة الكريمة ؟

فقالت برقتها الطبيعية :

— بخير شكرا لك .

وأنقذه عقله من ارتبাকে فذكره بحفريات الجامعة ، فسر لعثوره على موضوع للحديث وقال :

— هذه فرصة سعيدة تهيأت لى لأذكرك .. أنجز حر ما وعد ؟

فقالت مقطبة دهشة :

— لا أفهم شيئا .

فقال بلهجة تنم عن العتاب :

— الحفريات .. حفريات الجامعة .

— آه .. كلا لم أنس .

— متى ؟

— متى !

— نعم . لنكن عمليين : ما رأيك فى عصر الجمعة القادم ؟

فترددت قليلا ثم قالت وقد راق لها الاقتراح :

— حسن .  
— وفاضل بك ؟  
— سأخبره ...  
— لتتفق على موعد .  
— لا نريد أن نتعبك ، فسم موعدك .  
— الساعة الرابعة مساءً ، أمام محطة الأنويس بميدان الجيزة .  
وسلموا وافترقوا . واستأنف مسيرة . نجاح باهر فاق كل ما تمنى ،  
فصار الحلم موعدا . أجل لاحظ أن صاحبها تفحصت منظره بدقة ،  
ولكن ماذا يهم المنظر ، أليس أحقر رجل بامرأتين ؟ فما بالك إذا كان  
الرجل محجوب عبد الدائم ! إذا محتمل جدا أن تسمى العلاقات وثيقة ،  
وليس هذا بالأمر الهين ، فتحية من ذرائع الحظ التي يرفع بها المجدودين ،  
وهي بعد شيء نفيس أنيق ، ومن يعلم ..!؟ بيد أنه أدرك أنه لم يعد من  
الممكن استجداء حمديس بك ، إذ ليس من المنطق في شيء أن يمد يده  
اليوم إلى الأب سائلا . وأن يلقي كريمته غدا لقاء المودة والاحترام . ولو فعل  
لأبى الرجل على كريمته أن تذهب إلى موعد فتى بئس مثله ، ولأبت ذلك  
عليها نفسها الغالية ، فإما الاستجداء وإما اللقاء : ولكن لم يعد هناك  
اختيار ، أو أنه اندفع إلى الاختيار وهو لا يدري ، لقد سد هذا الباب في  
وجهه ..! ووجد نفسه بعد كل ما بذل من جهد يتساءل متحيرا :  
ما العمل ؟.. كيف أحصل على النقود ؟. وكان يحث الخطي مرتبكا  
مهموما ، ويعمل فكره دون توقف ، فذكر الأستاذ سالم الإخشيدى ،  
ولمعت عيناه الجاحظتان فجأة !.. أجل ، هذا جار قديم ، وهو غير  
مأمون رضوان أو على طه ، ولن يجد غضاضة في أن يمد له يده ، فلماذا  
لا يقصد إليه !؟.. يا لها من فكرة ، واليوم لم يكذ ينتصف بعد ، وبينه  
وبين الوزارة مسير نصف ساعة على الأكثر ، فليذهب بغير تردد . وقد  
ذهب .



وسأل عن مكتب الأستاذ سالم الإخشيدى سكرتير قاسم بك فهمى ، فقبل له بل مدير مكتبه ، ودلوه عليه ووقف على الباب ساع طويل القامة عريض المنكبين ، غزير الشارب ، فطلب أن يؤذن له عليه ، فغاب الرجل لحظة وعاد يقول بصوت غليظ « تفضل » . ووجد الحجرة مكتظة بالجالسين نساء ورجالا ، وغاب الإخشيدى ومكتبه وراء نصف دائرة من الموظفين يعرضون أوراقهم . ونظر الشاب فيما حوله وتساءل : متى ينفذ هذا الحشد من الخلق ؟ .. متى تنهيا له فرصة للكلام ؟ وعلا صوت الإخشيدى فى الحجرة ، ورنت نبراته الدالة على الأمر والسلطان ، تلاحظ وتنتقد وتعنف ، وأصوات الموظفين تكثرت بالشرح والتفسير والاعذار ، وجعل الموظفون يحملون أوراقهم ويغادرون المكان واحدا أثر واحد حتى فرغ المدير منهم فانتبه إلى وجود الشاب ، ومد يده ودعاه إلى الجلوس ثم التفت إلى الزوار ، وأشعل سيجارة وأخذ نفسا عميقا ونفخ الدخان فى لذة وإرتياح ، وقد لاح فى وجهه السرور والخيلاء ، واختلس محجوب إليه نظرات خاطفة : إنه شبعان وسعيد . ولا شك أنه أفطر زبدة وقشدة وعسلا ، تبدو عليه آى الصحة ، والاطمئنان إلى كرسية الكبير . وأحس نحوه مقتا وتساءل فى سره ساخرا . لماذا لا يعلق فى حجرته الكبيرة صورة صاحبة العصمة ست أم سالم بجلبابها الأسود الملوث بالتبن ١٢ . وكان الزوار أصحاب حاجات كالعادة ، فقدم بعضهم طلبات إعفاء من المصروفات المدرسية ، واستشفعته سيده فى ترقية ابنتها إلى الدرجة الخامسة ، ورجاه آخر أن ينقل له قريه إلى القاهرة وقد قضى فى الأرياف عشرين عاما من سنى خدمته ، وسأل شاب أن يؤذن له فى مقابلة البك

ليهدى إليه مؤلفه عن حياة الطفل حتى الخامسة ، وسمع الجميع يدعونه  
بإجلال واحترام : « سعادة البك » وهو يجيبهم بتؤدة وكبرياء وغطرسة .  
وتصبر محجوب فى قلق وعذاب حتى يفرغ البك المدير له . وحدثت  
المعجزة فخلت الحجرة . وتحول الإخشيدى إليه وقال :

— هكذا أقضى نهارى ، ثم أستأنف ليلا فى قصر البك !  
وتساءل محجوب فى سره حائقا : هل تريدنى أن أدعو الله أن يريحك  
من عملك ؟ ثم قال بملق مبتسما :

— على قدر أهل العزم تأتي العزائم !  
فهز الإخشيدى رأسه الكبير ، وكان لا ينى عن الاشارة بعظمته ،  
والهزء بفضل الغير . وقد عرف بحدة اللسان ومهاجمة أعدائه وأصدقائه  
على السواء . وقد قيل عنه بحق أنه شيد حياته على العمل المتواصل ،  
والدعاية لنفسه ، والتشهير بمنافسيه . على أن أنانيته كانت تصور له  
أكثرية المتصلين به كمنافسين ، ولذلك قل من نجا من شره . ولم يكن يأبه  
رأى الناس فيه ، وكأنه يؤثر فى باطنه أن يقال عنه ما أفضعه عن أن يقال ما  
أطيبه . وكان إذا بلغه قول سوء عنه يقول باحتقار « كل عاشق حق  
مكروه » . هز رأسه الكبير وقال للشباب :

— عمل متصل . لكن هل كفانى شر الألسنة ؟ .. هيهات .. ولن  
يفتا قوم قائلين رقى الإخشيدى إلى الخامسة وما مضى فى السادسة  
عامين !

فتظاهر محجوب بالانكار وقال :

— وهل وضع نظام الأقدمية لقتل الكفاءات ؟

— الظاهر أنى فى وزارة ، والحقيقة أنى فى مزبلة .. والآن يا عزيزى  
ما حاجتك ؟

فازدرد محجوب ريقه ، واعتدل فى جلسته ، ثم قال ببلهجة تنم عن

الرجاء :

— سالم بك ، إنك جار قديم وزميل قديم ، وملاذنا وقت الشدة .  
ياسعادة البك والدى طريح الفراش ، ونحن فى بأساء ، وأنا فى أزمة  
مؤيسة ، وقد نفذت نقودى : فدعنى أسألك بعض المعونة ..  
وتفحصه الإخشيدى بعينيه المستديرتين ، فأدرك أنه جائع ! ولكنه لم  
يتعود على أن يعطى أبدا ، ولا عهد له بفن الإحسان ، ولا كان من  
« الضعفاء » الذين تلين مظاهر البؤس من قلوبهم : فاعتبر الشاب وحاجته  
عائقا سخيفا اعتاق تيار أفكاره ، فتوثب لمحوه ، ولكن ماذا يجعل به أن  
يفعل ؟ يعتذر له ؟ ولكنه يكره الاعتذار خاصة لمن لا حول له . ثم تذكر  
أمرا فسأل الشاب :

— هل تجيد الفرنسية والانجليزية ؟

وشعر محجوب بخيبة رجاء ، لأنه كان يتوقع شيئا آخر غير هذا  
السؤال ؟ ولم يدر ما حكمة توجيهه إليه ! ولكنه أجاب قائلا :  
— نعم أجيدهما ..

— حسنا ... أتعرف مجلة النجمة ؟ .. صاحبها صديقى وزميلي  
وربما رجب بك إكراما لى ..

— هل أكلف بترجمة بعض الموضوعات ؟

— نعم .. مقالات .. فكاهات . خذ بطاقتى هذه واذهب إليه !  
وسأحدثه عنك بالتليفون . ولا تؤاخذنى فأنا ذاهب لمقابلة البك وعرض  
أوراقى عليه .. أليس هذا أكرم بك وأنفع !

ونفض الإخشيدى قائما ، وأخذ ملقا فى يسراه ، ومد يده للشاب :  
فمد له الشاب البائس يده وهو يسأله :

— أيدرك هذا العمل ربها معقولا ؟

فضحك الإخشيدى — ولشد ما بدا لعينيه بغیضا — وقال :

— لعلك سمعت عن ثراء الصحفيين ! على أنك ستجد ما أنت في  
مسيس الحاجة إليه .. وتقدمه الإنشيدى نحو الباب ، فجزع جزعا  
شديدا وأوشك أن يهتف به سائلا بضعة قروش ، ولكن الباب فتح قبل  
ذلك ، وبدا الساعى بجسمه الضخم الطويل ، فغادر الحجرة حاملا  
البطاقة . وغادر الوزارة واجما متحيرا ما زالت أزمته قائمة . ومجلة النجمة  
على فرض نجاح مسعاه إليها علاج آجل فما العمل ؟ .. وكيف يحصل  
على النقود ؟ .. وكانت الساعة تدور فى الثالثة . والجو بارد كما كان فى  
الصباح فخبط فى الطريق على غير هدى . مثقل الرأس قانطا ، وضافت  
الدنيا فى وجهه ، حتى كور قبضته مهددا ، وقال حانقا غاضبا بصوت  
أشبه بالنحيب : « سيدفع العالم ثمن هذه الآلام ! » . وقد أدرك أنه لم  
يبق إلا على طه أو مأمون رضوان .. لكم كره أن يمد لهما يدا ، ولكنه لم  
يعد يملك حيلة ، ولا بد مما ليس منه بد . ومضى إلى الترام متسائلا : أيهما  
يفضل ؟ كلاهما شاب نبيل ، ولكنه لا يحب على ، بينما لا يكره  
مأمون ، فضلا عن ذلك فمأمون رجل دين وورع ، فهو حقيق بأن يصون  
سره ، ويحفظه بالغيب ، جدير بأن يفضى عنه إذا تأخر عن قضاء دينه .  
ومضى إلى دار الطلبة ، وقصد إلى حجرة مأمون رضوان ، واستقبله  
الشاب بسرور وسأله :

— لماذا تغيب اليوم عن الكلية ؟

فقال محجوب :

— مكره أخاك ، لشد ما أعانى من الاضطراب ؟

وتفرس مأمون فى وجهه بعينيه النجلاوين السوداوين فهاله ما يرى من

الهزال والقنوط ، وسأله باهتمام واشفاق :

— ما بك يا أستاذ محجوب !

فقال دون تردد :

— ظروف قاسية ، فقدت آخر ملهم من نقودى ، لا أملك من ثمن كتاب اللاتينى مليما واحدا ..

ونهض مأمون قائما دون كلمة ، واقترب من المشجب ، ودس يده فى جيب جاكته ، وأخرج ثلاث ورقات من ذات العشرة ، وأتى بها إلى الشاب ، فأخذها محجوب وهو لا يصدق ، وفتح فمه ليشكر صاحبه ، ولكن صاحبه سارع بوضع أصبعه على شفثيه متمتما « هس » .  
وغادر دار الطلبة لا يلوى على شيء . حتى دار إحسان لم يلق عليها نظرة عابرة . وكان راضيا وساخطا معا ، راضيا لحصوله على النقود ، ساخطا لأنه بات مدينا لمأمون رضوان .

## — ١٧ —

وجاء يوم الجمعة الموعود ، فذهب إلى محطة الأتوبيس قبيل الميعاد بزمان يسير ومضى يسأل نفسه : ترى هل يفيان بوعدهما ؟ .. وفى الموعد المضروب جاءت سيارة فخمة وقفت أمام المحطة ، وأطل من نافذتها الوجه الجميل . فخفق فؤاده وهرع نحوها ، وفتح له الباب واتخذ مكانه ، ثم أدرك وقتئذ فقط أن تحية جاءت بمفردها . وعجب لذلك ، ولكن لم يطل عجبه ، وغمره سرور شامل ، وإن سأل بانكار متكلف :  
— أين فاضل بك ؟

فأمرت الفتاة السائق بالمسير ، ثم التفتت إلى محجوب وقالت بلهجة انتقادية :

— ركبنا معا ، ثم رأى فى الطريق « بعض الناس » فتخلف عن الرحلة وحملنى اعتذاره إليك .  
فأطرق محجوب ليخفى سروره ، وسألها بأدب :

— وكيف الوالدان الكريمان ؟  
— الحمد لله .. وهما يشكران لك هذه الرحلة الجميلة .  
— عفوا .. عفوا ..  
فقلت بصوت ينم عن الرجاء :  
— سنرى أشياء لذيذة .. أليس كذلك !  
فقال يقين وإن كان فى الحقيقة يذهب إلى هنالك أول مرة :  
— بكل تأكيد ..

وساد الصمت . وراحت الفتاة ترسل بصرها من النافذة ، وراح هو يسترق إليها النظر . هذه أول مرة يخلو فيها إلى أنثى تستحق أن توصف بالأنوثة حقا . وأين ؟ .. فى سيارة فخمة تحزن الحاسدين — فضل هذا التعبير عن تسر الناظرين — فأسكرت أنفه رائحة ذكية ، لا رائحة العرق الملبد بالتراب ، قدخله شعور المختنق إذا حمل إلى حجرة مليئة بالأكسجين ، ولم تكن به ذرة استعداد لخلق الصور السامية الطاهرة . فتركزت رغبته فى تخيل صورة واحدة : أن يلقي بنفسه عليها ! .. وشعر بدبيب الرغبة يسرى فى دمه . فألقى بصره إلى الخارج . وتساءل لماذا تخلف فاضل ؟ .. هل رأى فتاة حسناء فجري وراءها ؟ أم أن تحية نفسها عملت على التخلص منه ؟ وداعبه غروره الجنسى فقال : إنهما ( هو وهى ) من دم واحد ، وكما يقولون « فالدم يحن » ، ليس شيء بمستحيل . أما لو صدق حدسه فسترى أشياء للذيذة كما تحب ! .. والسائق ؟ .. لا يهم . فهو لا يستطيع أن يتصور الثراء والعفاف فى كائن بشرى معا ، ولا شك أن هؤلاء السائقين مدربون على التفاضى ! .. أجل .. أجل .. أو فما الداعى إذا لمجيئها منفردة ؟ .. إن أجمل حكمة هى التى تقول : « إذا خلا رجل بامرأة كان الشيطان ثالثهما » فأين هذا الشيطان ليحشو بين يديه ، ويلثم قدميه ؟ طالما كان للشيطان تابعا ومريدا أفلا يجزيه الشيطان

عطفًا بإخلاص ١٤. واسترد بصره من الخارج ، وشعر برغبة إلى  
جرها إلى الحديث ، فسألها :  
— والأنسة في الجامعة ؟  
فهزت رأسها نفيا وقالت مبتسمة :  
— كلية بنات الأشراف .  
فقال بسرور :  
— جميل .. جميل جدا ..  
وسألته تحية :  
— ماذا تنوى أن تعمل بعد الليسانس ؟  
وبغته السؤال . إن أقرانه يتحدثون عن المستقبل بحزن وبأس والسابقون  
منهم يقبعون وراء المكاتب في الوزارات يروحون بالشهادة على وجه  
أحرقها حرارة الدرجة الثامنة .. ولكنه بجسارته المعهودة تخلص من  
ارتباكها . وقال بثقة ويقين معا ، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين :  
— على أن أختار بين طريقتين ، فإما الانخراط في السلك السياسي ،  
وإما التحضير للدكتوراه فالتدريس في الجامعة ..  
فقالت مبتسمة :  
— جميل ..  
نساذا استعملت تعبيره الخاص ١٥. .. أتسخر منه الشيطانة أم تجهل هذه  
الأمور ١٦. .. وأراد أن يسبرها فسألها :  
— أيهما تفضلين ؟  
— أنا. ١٧. .. هذا شأن يعنك ..  
فقال بمكر ودهاء :  
— ويعنك أيضا ما دام يعنى قريبك .  
فتيرد وجهها وقالت :

— السلك السياسى أجمل ..  
وتمثل له حمديس بك ذاهبا إلى الخارجية للتوسط فى تعيينه ثم قال :  
— هذا رأى .. ما أجمل أن تمضى الحياة كلها ما بين بروكسل وباريس  
وفينا .

فاستضحكت قائة :  
— أو ما بين دمشق وأنقرة وأديس أبابا ؟  
فجاراها فى ضحكها ، ولكنه قال بدهاء :  
— هذه عواصم لا يذهب إليها من كان حمديس بك قريبه !  
وابتسما معا . وقال لنفسه راضيا أن اللبيب بالإشارة يفهم ، وحسبه  
ذلك الآن . أما عن المستقبل فقلبه يحدثه بأن هذه الفتاة لن تذهب من  
حياته كأنها شيء لم يكن . ومن يعلم ؟ إن الجسارة لا تنقصه ، بل لعل  
عيبه أنه جسور أكثر مما ينبغي . واستسلم لتيار أفكاره ، حتى انتبه إلى  
السيارة وهى ترقى الطريق الملتوى الصاعد إلى هضبة الأهرام . ونزلا عند  
سفح الهرم الأكبر وهو يقول :  
— الحفائر وراء أبو الهول بفراسخ معدودات .

وسارا سيرا غير يسير ، وجعلت أقدامهما تتغرس فى الرمال وتقلع  
بقوة . وكان الوقت أصيلا ، والجو باردا ، ولكن السماء صفت ، وأشرقت  
الشمس دون حجاب . بدت ملابسه فى وضوح النهار غير ذات أناقة أو  
جمال ، فقلق ، وقال لنفسه ساخرا : « لعلها تسأل نفسها لماذا لا يرتدى  
حضرته السفير معطفا ؟ » . وبعد مسير ثلث ساعة لاحت منطقة الحفائر  
تحيط بها الأسلاك الشائكة ، فتمتم محجوب :  
— وصلنا .

واقترب الشاب من الخفير وأرسله بورقة إلى مفتش المنطقة ، وعاد  
الرجل وأذن لهما بالدخول ، فدخلا ، ثم قابلهما المفتش وهو شاب دون



الثلاثين ، وكان من أصحاب محبوب ، فرحب بهما وقال لهما معتذرا :  
— ستريان الأماكن المسموح بزيارتها ، وهى التى تم الكشف  
عنها ، ولكنى لن أرافقكما إليها لأنى مشغول جدا ، ولا أظنكما فى حاجة  
إلى دليل ( وهنا هز محبوب رأسه موافقا ) حسنا . هاكما معبد الشمس  
وهو تابع للمعبد القديم المعروف بمعبد أبى الهول ، وإلى جانبه الجزء  
الخلفى لمقبرة الأمير سنفر ...

وقال محبوب لنفسه : « قضى الله لحكمة يعلمها أن نظل اليوم  
منفردين . وإذا كانت حكمة الله كلها على هذا المنوال فأنا من  
المؤمنين ! » ، وأخذ كنزه النفيس إلى معبد الشمس . وهبط أدراجا  
صنعت حديثا ، فوجدانفسيهما فى بهو أرضه من الصوان ، وعلى جانبيه  
صفان من الأعمدة ، ولا سقف له ولم يكن به شئ يروع أو يثير العجب ،  
فألقت الفتاة على ما حولها نظرة تنطق بعدم الاكتراث ، ولم يكن  
محبوب أقل خيبة منها ، ولكنه تعمد أن يكبر من شأن رحلته فقال :  
— انظرى إلى هذه الأعمدة وكيف قاومت الدهور !

فابتسمت كالهائثة وقالت :

— وماذا كان عليها لو أنها اندثرت ؟

فأشار إلى النقوش على الأعمدة وقال :

— لو كنا نقرأ الهيروغليفية لعرفنا أمورا تستثير الإعجاب والدهشة .

— حقا !

— بكل تأكيد ، ألم تلمى بتاريخ الفراعنة ؟

فهزت رأسها نفيا . وبذلك انتهت زيارة الأثر الأول . وفيما هما يدنوان  
من المقبرة وراء المعبد سأله تحية :

— ألا توجد آثار أخرى غير هذه المقبرة ؟

وأحس ما وراء التساؤل من ملل ، فارتبك وقال :

— توجد آثار كثيرة ولكن لم يصرح بزيارتها ..  
وهبطا أدراجا فوجدا نفسيهما فى حجرة صغيرة مستطيلة ، تتحلى  
جدرانها بالنقوش والصور ، ولا يكاد يعلو سقفها كثيرا على طول الهامة ،  
وألقيا على المكان نظرة عامة ، ثم تعلق الشاب بالصور ، فقال بصوت  
خافت :

— فلنشاهد الصور ، انظرى إلى ألوانها الزاهية ..  
وبدءا بالحائط القريب من المدخل ، وقد حلى بصور تمثل صاحب  
المقبرة وعلى يساره زوجه ، بينهما أطفال ، ويحيط بهم جميعا خدم  
وحشم ، وعلى الحائط الذى يليه شاهدا منظر حقل مترامى الأطراف ،  
تحرثه محارث تجرها الثيران . ووقف هنا وهناك فلاحون عرايا . وتحولت  
تحية من المنظر بلا ريث ، وانتقلت إلى الحائط الثالث . وأدرك محجوب  
أنها مرت خجلة من صنور العرايا ، وتفحص الصور بعينه الجاحظتين  
فجرت على شفثيه ابتسامة خبيثة ، واضطرب مجرى دمه ، وقوى شعوره  
بأنهما منفردان . ولم يتحول عن منظر الحقل ، ولا حول عينيه عن صور  
العرايا ، حتى ملأت عليه نفسه تلك الحقيقة الرائعة وهى أنهما منفردان  
أمام العرايا . وخيل إليه من إدمان النظر ، أن الصور تتجسم لعينيه ، وأن  
الحياة تدب فيها ، والدماء تتدفق فى عروقها ، فتكتسى بشرتها بذلك اللون  
الخمري ذى الوهج ، وتلتصق فى محاجرها نظرات خاطفة . ثم تشرئب  
أعناقها نحو .. الفتاة الهاربة ، موردة الخدين من الخجل . وخفق فؤاده  
بعنف والتهبت جوارحه من قوة العاطفة ، وعشا حاول أن يملك زمام نفسه .  
وذكر مجيئها بمفردها ، وحديثهما فى السيارة ، ورقة حاشيتها ،  
وانفرادهما معا ، ثم وجودهما فى هذه المقبرة تغشاهما وحشة الأجيال ،  
فخال الثمرة دانية القطوف ، وعنف هياجه حتى صار وحشا فاقد العقل  
والإرادة . وازدرد ريقه بصوت غريب وعيناه ثابتتان على العرايا وإن باتا

لا يريان شيئا :

— هلا نظرت إلى هذا الحقل الحافل ..

فقلت باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل :

— ليس به ما يستحق الرؤية ..

فعطف رأسه وقال بصوت كالههمس :

— لشد ما أنت ملولة يا آنسة .

ودنا منها خطوة فحاذاها ، وجعل ينظر معها إلى صورة خادم تعجن ،

وانحنى قليلا كأنما ليعاين جزءا من الصورة ، فلامس كتفها ويمناها ، ثم

اعتدل ونظر في عينيها وقال بصوت متهدج :

— ألم يعجبك شيء ؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت بصراحة :

— الحق أننا لم نجد ما يستحق عناء الرحلة ..

فقال محجوب بصوته المتهدج وعيناه تثقبان عينيها :

— ولكن المكان جميل وهادئ ..

وانتهت إلى تهدج صوته ، وشعرت بحدة نظره النارية ، فاختلف

بصرها ، ونظرت إلى الأرض ، ثم قطبت في حيرة وقالت :

— آن لنا أن نذهب ..

فhez رأسه ، وهم أن يقول شيئا ، ولكن أعياء القول ، فأمسك يدها ،

ولكنها سحبت يدها بسرعة ، وألقت عليه نظرة إنكار ، فلم يبالها ، واسترد

يدها بقوة ، وقال وصفحة وجهه تموج بعاصفة : « دعينا نمكث قليلا . »

.. وتملكه شيطان الشهوة ، فجذبها نحوه بعنف ، وأحاطها بذراعيه ،

وأهوى إليها بفم يحترق إلى التهامها . ولكنها صدته ويمناها ، وباعدت

رأسها عنه ، ولاح في وجهها الجميل الغضب ، وصاحت به صوت رن

رينا مزعجا في المقبرة الصامتة :

— أجننت .. دعنى .. اترك يدى ..  
فاستصرخها قائلاً يكاد يجن من العذاب :  
— لا تغضبى ... أرجوك ... تعالى ... تعالى إلى صدرى ..  
وبخنها تخلصت من ذراعيه بقوة جنونية لا تدرى كيف اتتها ،  
وصاحت بعزم وقسوة :

— مكانك .. إياك أن تلمسنى .. إياك أن تعترض سبيلى ..  
واتجهت نحو الباب ، فتنحى لها ، وتبعها مطرقاً ، صامتاً ، مثقلاً  
بشعور الخزى والمخجل . وسارا صامتين يقطعان الطريق الذى جاءا منه  
صديقين سعيدين ، وقد اكتسب وجهها الجميل بلون الغضب القانى ،  
وارتفع رأسها كبرياء وصلفاً ، ولم يدر كيف يصلح من خطئه ، وكلما طال  
الصمت يشس وغلب على أمره ، حتى تساءل نادماً أما كان ينبغى أن يمد  
حبل الصبر ؟ وقال لنفسه متأسفاً : الظاهر أن فتاة مثل تحية لا تؤخذ كما  
تؤخذ جامعة الأعقاب .. لعله لم يوفقها حقها من اللباقة والغزل ، ولو أنه  
اصطنع معها التريث والأناة لربما فاز بها . تبا للشهوة الجامحة . لقد  
ضيعت عليه فرصة سانحة . وبلغا السيارة ، وقالت تحية بلهجة آمرة دون  
أن تنظر إليه :

— مكانك .

وصعدت إلى السيارة ، وأغلقت الباب ، وأمرت السائق بالمسير .  
وتبعها عينيه حتى هبطت تحت مستوى البصر وغابت عن ناظره تاركة إياه  
وحيداً عند سفح الهرم . وليث هنيهة مكانه — كما أمرته — واجماً — ثم  
هز منكبيه ، وأخذت روح الاستهانة تعاوده حتى أوشك أن يضحك من  
نفسه ، ونظر إلى الهرم طويلاً ، ثم غمغم ساخراً : « إن أربعين قرناً تنظر  
إلى مأساتى من فوق هذا الهرم ! » . ثم غلبته موجة غضب مفاجئة —  
فاحمر وجهه الشاحب ، واضطربت أرنبة أنفه ، فود لو يستطيع أن يقذف

القاهرة بأحجار الأهرام الهائلة ، وتحركت قدماء وما يزال يأكله الغضب .  
علام الحزن ؟ .. ما هي إلا أنثى .. ولن تزيد على فتاته — جامعة  
الأعقاب — شيئا .. أجل . بيد أنه أضاع فرصة ، وخسر تحية وأباها إلى  
الأبد ! وتذكر لحظة ، ثم غمغم وهو يهز كتفيه استهانة : طظ .

## — ١٨ —

وجاءت فترة استقرار نسبيا ..  
تناسى محبوب إخفاقه وتوثب للعمل فقابل رئيس تحرير « النجمة »  
وكلفه الرجل بترجمة بعض المختارات نظير خمسين قرشا في الشهر ،  
فصار دخله مائة وخمسين قرشا ، واستطاع أن يتقى به ويلات الموت جوعا  
وأن يجعل الحيا محتملة على أية حال . وانبرى للعمل يواصله ليلا ونهارا ،  
ما بين دراسته الجامعية وعمله الصحفي البسيط . وخلت حياته من الفراغ  
فندر تفكيره في نفسه ، واجتراره الهموم ، ومضت أيام كاملة لا يكور فيها  
قبضته غضبا أو يهتف ساخطا ساخرا قائلا : طظ . أجل كانت توجد  
أوبقات غيظ ما منها بد ، إذا تهيأ لتناول طعامه الحقيق مثلا ، أو رأى على  
طه بجسمه الرياضى وابتسامته السعيدة ، أو ذكر طرقه الأبواب التماسا  
لبضعة قروش ، ولكن فيما عدا ذلك سارت الحياة سيرا هونا محتملا .  
وولى مارس بجوه اللطيف ورياحه الطيبة وسمائه الآخذة في خلع أردية  
الشتاء لاستقبال حرارة الربيع وشذاه ، وتبعه على الأثر إبريل بشمسه  
المزهوة — شأن كل حديث نعمة ، ورياحه المغبرة وجوه الأصفر الكدر .  
وجاءه في أول مايو كتاب والده الشهري المعهود قال له فيه : إنه أرسل إليه  
آخر جنيه يستطيع الاستغناء عنه ، ودعا له بالتوفيق والنجاح ، ثم قال له :  
إنه سينتظر من الآن فصاعدا معونته التي بات في أشد الحاجة إليها ، وبشره

بأنه سيستطيع إن شاء الله أن يتحرك قريبا ، وربما أمكنه المشى متوكئا . لم يكن فى الرسالة شيء لم يسبق الاتفاق عليه ، بيد أنه لم يستطع مدافعة الغيظ الذى هاجمه ، وعاودته ذكريات الليالى السود ، لىالى الجوع والهذيان وعاد يقول عن والديه لو كانا لكنت ، ولو كانا لكنت ..

ثم كان الامتحان فى أول مايو ، وظهرت النتيجة قبل الثلث الأخير منه ، ونجح أصحاب الأربعة الذين تزامنوا أربعة أعوام كاملة . ولم يكن الامتحان — بالنسبة لمحجوب — مجرد امتحان مدرسى . كانت فى الواقع الفرصة الوحيدة والأخيرة كى يجنى ثمار كفاح خمسة عشر عاما ، فسر سرورا مضاعفا ، وتنهى ارتياحا من الأعماق . ولكن سرور الطالب المتخرج بالنجاح سرور قصير المدى ، بل هو سرور لا يجاوز ليلة ظهور النتيجة ، فإذا أدركه الصباح غشيه بهوم من نوع جديد ، هموم شاب يطرح عنه رداء التلمذة ليلقى منفردا — خصوصا إذا كان حاله كحال محجوب — ذلك الجبار المقنع المشتمل على جميع فرص السعادة وجميع عثرات الشقاء الذى يسمونه المستقبل . ومضى أصحاب يجتمعون كل مساء تقريبا بنادى الجامعة ، وكانت تتراعى إليهم أخبار الزملاء ذوى الحسب والنسب ، ممن تفتح لهم أبواب الحكومة بقدرة قادر ، وتناولوا مستقبلهم بالكلام والنقد ، متفائلين أو متشائمين ، واعتاد أحمد بدير أن يقول باطمئنان : « لن يتغير مجرى حياتى ، فلن أبحث عن مهنة جديدة ، بالأمس كنت طالبا وصحافيا ، فالآن أتفرغ لعملى فى الصحافة » . ولم يكن مأمون رضوان يدرى إن كان يبعث إلى فرنسا أم يبقى فى مصر ، ولكن هدفه بقى واحدا فى الحالتين ، وهو الإسلام ، وقد تساءل مرة قائلا : « ألا يمكن أن نبدأ كفاحنا الحقيقى فى جمعية الشبان المسلمين ؟ فتظهر الإسلام من غبار الوثنيات ، ونرد إليه روحه الفتية ، وننشر منها دعوة لا تلبث أن تشمل الشرق العربى جميعا ثم بلاد

المسلمين ! هـ . أما علي طه فلم يكن ذا هدف واضح ، ولكن اختلطت عليه الوسائل . كان مهيا للاشتغال بالسياسة ، ولكن السياسة كما يعرفها هو لا كما يعرفها الناس . ولو وجد حزبا ذا مبادئ اجتماعية لا مشترك فيه بلا تردد ، ولكن أين هذا الحزب ؟ .. فهل ينتظر حتى تنشأ الأحزاب الاجتماعية ثم يشترك فيها ، أم يأخذ هو في الدعوة إليها منذ الآن ؟ لا شك أن الانتظار أسهل ، وأحكم ، إذ ما جدوى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي في بلد لا يشغله شغل عن الدستور والمعاهدة ، ولعله من الخير أن ينتظر قليلا ليستكمل عدته من العلم والمعرفة ، وغير ذلك ، فلم ينطأ أمله في الوظيفة ، ولا كان يرفضها لو أتت له .

محبوب عبد الدائم وحده أدركه الجزع : الإسلام ، السياسة ، الإصلاح الاجتماعي ، كل أولئك مسائل لا يكثر لها ، أما شغله الشاغل فهو اتقاء الموت جوعا ، أو هو وظيفة توفر له الرغيف ! ، وإذا أخفق في الحصول على وظيفة فالجوع لن يتهده وحده هذه المرة ، ولكن يتهدد والديه معه ، وهو لا يشفق عليهما بقدر ما يشفق من مضايقتهما له ، فما العمل ؟ .. كان في الحقيقة بلا معين ، والحكومة لا يدخلها أحد بلا معين . وتفكر طويلا ، ولكنه لم يفعل شيئا إلا أن كتب لوالده كتابا قال فيه : إنه بصدد البحث عن وظيفة ، وإنه يرجو أن يتمكن قريبا من تأدية واجبه نحو أسرته ، وشرح له الصعاب التي تعترضه ، وفي ذلك الوقت رشح أستاذ الفلسفة الفرنسي مأمون رضوان لبعثة السوريين ، ووصى بتعيين علي طه في المكتبة ليتها له جو حسن لتحضير رسالته . سمع محبوب بهذه الأنباء ، وقارن بين حظه وحظ زميله .. غدا ينتقل مأمون ربيب أحقر قرية في الغربية إلى باريس .. وغدا يطمئن علي إلى كرسيه في المكتبة فيحضر الماجستير ويعقد على إحسان ! .. مرحى .. مرحى .. وماذا هو فاعل ؟ .. هل تعود أيام فبراير السود ؟ . وذهب لمقابلة علي طه .

فى المكبة ، وقد مر على تعيينه أسبوع ، وكان يتوقع أن يجده فرحا مسرورا ، وقابله الشاب بابتسامته المعهودة ، فلم يقرأ فى وجهه ذلك السرور الذى توقعه ، بل خال أنه يرى مكانه فتورا لم يتعوده صاحبه ، وعجب لذلك أيما عجب ، وغمضت عليه أسبابه ، حتى حسب أن الشاب يدارى فرحه بهذا المظهر الفاتر . وتجاوزا الحديث طويلا ، وأعرب له عن نيته فى عدم الاستمرار فى الوظيفة ، قال :  
— هذه فترة انتظار وتفكير ريثما أجد سبيلا للاشتغال بالحياة العامة ..  
وربما اخترت الصحافة فى الوقت المناسب ..

وذكر محبوب عمله فى النجمة وما يدر عليه من رزق واسع ! فجرت على شفثيه ابتسامة ساخرة ، وعاد على طه يقول :  
— إننى أنهيا لكتابة موضوع عن توزيع الثروة فى مصر ..

وضاق محبوب صدرا بآمال صاحبه ، وسأله صراحة عما إذا كان فى الإمكان أن يجد وظيفة فى المكبة ؟ ومضى به الشاب إلى موظف المستخدمين يستفتيانه ، وكان الرجل صريحا جدا ، فأمسك بيد محبوب وقال له بحدة :

— اسمع يا بنى : تناس مؤهلاتك ، ولا تضع ثمن طلب الاستخدام ، المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها : هل لديك شفيح ؟ أنت قريب أحد مما يدهم الأمر ؟ أتستطيع أن تطلب يد كريمة أحد من رجال الدولة ؟ . إن أجبت بنعم فمبارك مقدا ، وإن أجبت بكلا فلتول وجهك وجهة أخرى ..

وغادر المكبة مظلم العينين من اليأس ومرارة الإخفاق ولم يكن شيء مما سمع بالجديد عليه ، ولكنه أحنقه كأنما سمعه أول مرة ، ومضى يخطط فى حديقة الأورمان ، واجما مكتبا . آه لو كان أبقى على علاقته الحسنة بآل حمديس ، آه لو لم يقطع تلك العلاقة بوحشية يوم الهرم ؟ . ترى لماذا لا يستقيم له أمر ؟



لماذا لا ينال حظه من السعادة والطمأنينة ؟.. لماذا يرصده الجوع كأنما لا يجد فريسة سواء ؟.. الدنيا جميعا فرحة لا تأبه له . هذا الربيع يجرى فى خضرة الغصون وحمرة الأزهار ، ويطير مع العصافير والأطيّار ، ويرقص على الشفاه الموردة الغارقة فى النجوم عن يمين وشمال . الدنيا كلها فرحة مطمئنة ، والوجوه مشرقة . هذه حديقة الأورمان مجمع أفراح الإنسان والحيوان والنبات ، والأرض نفسها والسماء تشملها غبطة صامته فوق كل كلام . أيموت جوعا فى هذه الدنيا ؟. وبدا له سؤاله غريبا نافرا ، وضحك هزئا وسخرية وتحديا ، وقال متحديا : « أأموت جوعا ؟.. فلا نزل القطر .. فلا نزل القطر . » .. كيف يموت جوعا نائرا على جميع القيود ؟.. كيف يموت جوعا كافرا بالضمير والعفة والدين والوطنية والفضيلة جميعا ؟.. وهل جاع فى هذه الدنيا أحد ممن يتصفون بالرديلة ؟.. بل هل كانت الشكوى إلا من أنهم يستأثرون بكل طيب فى هذه الحياة ؟ ماذا عليه لو نشر فى الإعلانات المبوبة بالأهرام يقول : « شاب فى الرابعة والعشرين ، ليسانسيه ، طوع أمر كل رديلة ، عن طيب خاطر يبذل كرامته وعفته وضميره نظير إشباع طموحه » . ألا يقتل عليه العظماء ؟. ولكن من له بنشر هذا الإعلان ؟.. من عسى أن يأخذ بيده ؟.. لا فائدة من السعى لدى الزملاء ، ولا الأساتذة ، ولا حمديس بك .. إلا واحدا كان يجب أن يفكر فيه دون سواء .. سالم الإنشيدى .. ليس بذى مروءة ولا نجدة ، ولكن هل لديه سواء ؟..

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدى فى بيته ، لأن حجرتة بالوزارة لا  
ينتهيا لها الجو الهادى ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ فى شقة  
بشارع السيد المفضل ، واختار يوم الجمعة صباحا ليضمن وجوده .  
واستقبله الأستاذ فى حجرة استقبال صغيرة أنيقة ، وكان يقيم فى القاهرة  
بمفرده ومعه طاهية .. وأدرك الأستاذ الباعث على الزيارة بداهة ، ولكنه ترك  
القادم يفصح عن رغبته ، دون مبالاة ، وقال محجوب :  
— معذرة عن مجيئى إلى البيت ، فإننى أعلم أن عملك بالوزارة  
لا يسمح لك بسماع الأحاديث الخاصة .  
فقال الإخشيدى ببرود :

— الواقع أننى لا أترك العمل إلا فترة قصيرة يوم الجمعة !  
وفطن محجوب إلى ما فى إجابته من مغزى ، ولكنه تغاضى عنه  
بجسارته المعهودة ، وقال :  
— حصلت على الليسانس .  
فابتسم الإخشيدى ابتسامة تشجيع فاترة ، وتمتم قائلا :  
— مبارك ...

فشكره الشاب بحماس وقال :  
— يا سالم بك ، أنت جار قديم ، وزميل قديم ، وأستاذنا فى العلم  
والوطنية على السواء ، ولن أنسى ما حييت أن توصيتك لدى رئيس تحرير  
النجمة أنقذت حياتى ومستقبلى من الضياع . لهذا أقصد إليك كبير  
الرجاء ، يا سعادة اليك الشهادة بغير شفاعة أرخص من ورق اللحم ، فهل  
أمل أن تلحقنى بوظيفة ما ؟

أصغى الإخشيدى بلا تأثر ، لأنه تعود سماع هذه الخطب الحارة .  
وكان يحقر الشاب ويستهن به لفقره وعوزه ، فلم يتحمس لمساعدته .  
وكان يوجد بالوزارة وظيفتان خاليتان ، ولكنه وعد شخصا إحداهما ، وتقبل  
نظير الأخرى هدية فاخرة ، وقد يصير محبوب ذا فائدة يوما ما ، ولكن  
العاجلة خير من الآجلة . وجعل محبوب يرمقه بعينين تنطقان بالخوف  
والرجاء ، ويشعر أنه بات تحت رحمة إنسان لا يراعى إلا مصلحته  
الذاتية . ولما وجد منه صمتا قال بصوت مؤثر :

— إنى أملكك وكفى

فأشعل الإخشيدى سيجارة ، وهز رأسه كالأسف وإن لم تدل عيناه  
على شيء ، وقال بهلوه :

— لا توجد وظائف خالية عندنا الآن .

فلاخ اليأس فى وجه الشاب وتساءل :

— أما من فائدة ترجى ؟

— لا داعى لليأس المطلق ، ليس عندنا وظائف ، ولكن توجد فى  
الدولة وظائف كثيرة ، ويمكن أن أدلك على سبيل الخير .

ولم يجد فى قوله ما يبعث على الأمل ، ولكنه لم ير بدا من أن يقول :

— شكرا لك يا بك ، شكرا لك .

فنظر إليه الإخشيدى نظرة غامضة قوية وقال :

— أرجو أن تكون رجلا عمليا ، وأن تحسن فهم الدنيا ، وأن تعلم أن  
كل فائدة بثمن .. لست أسألك شيئا لنفسى ، فما أنا إلا دليل .

— عفوا ، عفوا .. أستغفر الله ..

فابتسم الإخشيدى وقال :

— إذا أخذت بقولى فهناك أناس قادرون يستطيعون أن ينفعوا

أمثالك !

وسكت الإخشيدى لحظات ثم استدرك :  
— هناك مثلاً عبد العزيز بك رضوان .. ألم تسمع عنه ١٢  
— بلى .. أظنه من رجال الأعمال المعروفين .  
— هو ذلك .. وله كلمة نافذة في العهد الحاضر .. ودائرة اختصاصه  
وزارة الداخلية .

فسأله الشاب متحيراً :  
— ومن لى بمعونه ؟  
— الطريق ميسور ، ولكن ينبغي أن تعلم أنه يأخذ ممن يعينه نصف  
مرتبه لمدة عامين بضمنان !  
وهال الثمن الشاب المعدم ، ونظر إلى صاحبه بخوف ، ثم سأله بعد  
تردد :

— أليس يوجد من هو أيسر شرطاً ؟  
فقال الإخشيدى فوراً ، كأنه نادل يقرأ ثبناً :  
— المطربة المعروفة الآنسة دولت ..  
فلاحت الدهشة في وجه الشاب الشاحب ، فلم يبالسه الآخر  
واستدرك :  
— منطقة نفوذها السكك الحديدية ووزارة الحربية وبعض الدوائر  
الكبرى ..

وأخذ الإخشيدى نفساً عميقاً من سيجارته ، واستطرد قائلاً :  
— والأسعار كما يأتى : الدرجة الثامنة ثلاثون جنيهاً ، والسابعة  
أربعون ، والسادسة مائة جنيه . والدفع فوراً .  
وتنهذ محجوب يائساً ، ثم تفكر قليلاً وقال :  
— أظن شرط عبد العزيز بك راضى أرفق ، فإنى لا أملك مما تطلبه  
المطربة مليماً ، ولكنى أستطيع أن أتنازل عن نصف مرتبى إذا صار لى  
مرتب ، فكيف أتصل به ؟

— ليس الآن .. ليس قبل شهر ونصف ، بعد عودته من أداء فريضة الحج ..

تبا له ! ولكن الجوع لن يبقى عليه حتى يعود الحاج . وقال بصوت خافت وهو يخشى أن يضيق به صاحبه ذرعا :

— الانتظار معناه الجوع .. فما عسى أن أصنع ؟

فقال الإخشيدى ضاحكا لأول مرة :

— لست بالفتى الأمرد ، ولا أملك بالفاتنة اللعوب ، فما عسى أن أصنع أنا ؟!

وساد الصمت ، وبات فى حكم المقرر أن ينهى الإخشيدى المقابلة ، لولا أن خطر له خاطر . وتفكر سريعا ثم قال لنفسه إن استفادة محجوب محتملة ، أما استفادته هو — إذا حقق هذا المخاطر — فمؤكددة !. ثم قال :

— هنالك السيدة إكرام نيروز .

— منشئة جمعية « الضريرات » ؟

— نعم .

— ولكنها مشربة جدا ، ويضرب بثرائها المثل ..

— نعم .. نعم .. السيدة لا تطلب مالا ، ولكنها مغرمة بالشهرة

والثناء . ويمكن أن أقدمها إليك فى إحدى المناسبات ، وعليك بعد ذلك

بقلمك ومجلة النجمة ، فإذا وفقت إلى رضاها ضمنت مستقبلك ، إنها

صاحبة نفوذ واسع يمتد إلى وزارات كثيرة ، وأحزاب كثيرة .

وكان يرمى إلى استغلال الشاب فى الدعاية لها ، بعد أن يقدمه كأحد

تابعيه الذين يأمرون بأمره ، فقال :

— ستقيم السيدة فيروز حفلة خيرية يوم الأحد القادم بدار

« الضريرات » فاحضر الحفلة وسأقدمك للسيدة ؟ واكتب عن الحفلة

وصاحبتها ، ولنتظر ، ولنتظر .

— أيلغنى هذا ما أريد ؟  
— ربما توقف هذا على قلمك !.. عليك أن تبتاع تذكرة بخمسين قرشا ؛ لأنك لست صحافيا محترفا ، وربما عرفت فيما بعد أن هذا المبلغ الزهيد أجل فائدة من ستين جنيهًا تؤديها للآنسة دولت .. فهل دون تردد .  
وعلى جسارته لم تؤاته شجاعته على أن يستلف منه ثمن التذكرة ،  
فنهض قائما وصافحه شاكرا وغادر الحجرة .

— ٢٠ —

خمسون قرشا . مبلغ زهيد حقا ، ولكن كيف يحصل عليه ؟ حقا إنه بدختر مكتبه وكتبه لينتفع بشمنها في الشهر الذي يسبق صرف أول مرتب إليه — ترى هل ينتظر يوما حقا هذا المرتب ؟ — فمن يعطيه ثمن التذكرة ؟ ..  
مأمون رضوان ارتحل إلى طنطا ليودع أسرته قبل السفر إلى أوروبا ، فلم يبق إلا على طه . ولا بد مما ليس منه بد .

وذهب إلى مكتبة الجامعة صباح السبت ، واستقبله على بالابتسامة المعهودة ، ولكن محجوب أدرك من أول نظرة أن صاحبه حزين . ليس هذا على طه الذي يعرفه ، انطفأ نور عينيه البهيج ، وهمدت روحه المتوثبة الحية ، وكل هذا حقيق بأن يوليه سرورا لو وجدته في ظروف غير هذه . أما اليوم فهو يشفق من أن يلقي هذا الحزن عثرة في سبيل الغرض الذي تجشم من أجله هذه الزيارة ! وتعامى عما قرأه في وجه صاحبه وسأله :

— أين بلغ بك موضوع بحثك ؟

فنفخ على طه ضجرا وقال بيأس ملموس :

— لا أدري ، إنى الآن مهيض الجناح .

فقطب محجوب متظاهرا بالإشفاق ، وقال وهو يلحن في سره نحسه

الملازم :

— كفى الله الشر ، ماذا تقول ؟

وكان على عصبى المزاج ، لا يكاد يطوى سرا فقال :

— كما ترى .. الأمر يتعلق بإحسان !

وكان ماء باردا رش على وجهه ، فثار اهتمامه ، وغمغم متسائلا :

— خطيبتك !

فتنهذ على وقال بانكسار وحسرة :

— خطيبتى !

فازدادت دهشة محجوب وقال بلهجة من يود معرفة كل شيء :

— لا أفهم شيئا..

وتردد على ثانية ، أيوبح بسر ٢.. وكان بطبعه غير كتوم ، وكان محجوب من أصحابه الذين أفضى إليهم بقصة حبه ، وكان إلى هذا وذاك في أشد الحاجة إلى الترويح عن نفسه ، فقال بصوت أبان عن تأثيره العميق ويأسه :

— ولا أنا ، لشد ما أنا ذاهل حائر ، ولشد ما أسائل نفسي ، ما الذى حدث ١٢ ما البواعث الخفية الأسيفة التى تنفث سموها فى الظلام ٢.. كانت الحياة تسير سيرا جميلا . كنا متحابين ونزداد على الأيام حبا . وكنا متفاهمين ونزداد على الأيام تفاهما . عرفنا ماضينا وأحبينا . وخبرنا حاضرا ورضينا به ، وأملنا مستقبلا وانتظرناه ، وتتابع اللقاء ، وتمت الألفة ، ورسخت المودة ..

وسكت على لحظة ، وعينا صاحبه لا تفارقان وجهه المتجهم ، ثم اندفع يقول مسحورا بحرارة الحديث :

— ما الذى بث الفساد فى حياتنا ٢. إنه شيء لا يصدق ، ولكنه الحقيقة دون زيادة ، كيف حدث هذا ١٢. بدأت تتغير ! وكان التغير طفيفا بادىء الأمر ، ولكنه لم يخف عن قلبى اليقظ الساهر . رأيت فى عينيها نظرة قلقة حائرة ، تناوبها الشرود وفترت ابتسامتها ، ومضت تتجافى

عن حديث الحب ، وتتقى ذكر آمالنا وعهودنا . فأخذت نفسى بالصبر  
عهدا عرفت فيه مرارة الحيرة وعذاب الشك ، ولكن دون جدوى فلم يتغير  
الحال ، وكاشفتها بوساوسى ، وقلت لها ما أجدر حبنا بأن يكون هباء إذا  
طوت دونى سرها ! ولكنها اتهمتني بالمبالغة واعتذرت عن تغييرها بتوعك  
مزاجها فتضاعف عذابي وألمى .. كيف أصدق أن حبا كهنا يموت  
فجأة وبغير نذير ؟ وجددت بها ، فصارت اللقيا جحيما ، ثم انقطعت  
عنى ، أتصدق ؟ لقد جننت ، فرصدتها فى كل مكان ، وراسلتها ،  
وثابرت على مطاردتها بعناد ، فجاءت لمقابلتى ، جاءت تتعثر بالحزن  
والخجل ، فصحت بها أن تحولها سيورثنى الجنون .

وأمسك الشاب ، وكان محبوب يتابعه بحواس مرهفة ، ويوليه اهتماما  
كاد ينسيه غرضه من الزيارة ، وتظاهر بالتأثر الشديد ليشجع صاحبه على  
الاسترسال ، فقال على :

— قلت لها إن تحولها سيورثنى الجنون ، فقالت لى إن لقاءنا أورثها  
الجنون بالفعل ؟ وقالت لى إن آمالنا مقضى عليها بالفناء ، فينبغى أن نعالج  
حزننا بالحكمة وأن نرضى بالنهاية المحتومة . هل أرضى بالشقاء دون  
دفاع ؟! أأفرط فى سعادتى دون سؤال ؟! قالت لى إنها رغبة والديها ،  
وإنها يشست من إقناعهما ، وإنها لم تدع وسيلة ، وضرعت إلى فى النهاية  
أن نفترق وألا أضاعف لها العذاب .

ونظر الشاب إلى محبوب طويلا ، حتى أفاق قليلا من سكرة  
الحديث ، فتورد وجهه وقال :

— لماذا أطيل عليك ؟.. لقد انتهى كل شيء : تحطمت آمالى . إن  
دراسة الحكمة لا تغنى عنى شيئا .

وعجب محبوب أيما عجب : لماذا يرفض عم شحاتة تركى بائع  
السجائر الأستاذ على طه ؟ أيراه غير أهل لنسبه !.. أم يطمع الرجل أن تتم



كريمته دراستها لتنفق على أسرته ١٢ ثم خطر له خاطر فسأل صاحبه :  
— ألا يجوز أن مثريا كبيرا طمع في الفتاة فأراد أبوها أن يزوجها له ١٢  
فرفع علي حاجبيه حيرة ولم ينبس بكلمة . وكان محجوب قد ذكر  
غرضه الأول من هذه الزيارة ، فأراد أن يمهد له ، وكان اعتراف علي قد  
أحدث في نفسه لذة كبيرة ، فسالت نفسه نشاطا وحبورا ، ولكنه قال  
لصاحبه بلسان الواعظ :

— لا يجعل بك علي أية حال أن تستسلم للحزن ، والحق أقول إنه  
مهما يكن السبب الحقيقي لهذه القطيعة فلا شك في تبعة فتاتك ، فهبها  
كشيء لم يكن ، وأودع العلة والمعلول سلة المهملات ..  
فقال علي بحزن :

— لم يلتئم الجرح بعد !

— هذا جزاء من يهيم بنظريتك في الحب ، ألا ترى أن الكلاب تعالج  
الحب بطريقة أدعى إلى السعادة والراحة ؟ .. نحن المسئولون عن شقائنا  
دائما ..

فلأزم علي الصمت ، واستطرد الواعظ :

— النسيان .. النسيان .. أترضى أن تكون من المجانين الذين يفسد  
الحب حياتهم ؟

وساد الصمت . وفي تلك اللحظة أمحي سبب قوي مما كان يفيض  
على طه إليه ، فلم يعد يمقته كما كان . خفت وطأة البغضاء ، ومضى  
يقول لنفسه : ما يضره لو فقد إحسان ؟ . فلا يزال ذا وظيفة وشباب  
وجمال ! إحسان التي طالما أصلته نارا ، فمن الراحة ألا يفوز بها منافسه  
وإن فاز بها ثالث غيرهما ! . ثم نهض قائما ، متوثبا للهجوم على غرضه ،  
فمال نحو صاحبه وهو يصفحه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :  
— أستاذ علي .. أخوك في حاجة إلى خمسين قرشا حتى آخر

الشهر ؟

ودس على يده فى جيبه ومدھا إليه بما يريد ، فتناولھا محجوب قائلاً :  
— شكرا لك .. شكرا لك أيھا الصديق الكريم .  
وغادر المكتبة راضيا ، وتساءل وهو ينتفح حاجبه الأيسر : متى يمتلىء  
جيبى بنقود الحكومة ١٢

— ٢١ —

وأخذ أهنته . استنحم ، وكوى البدلة والقميص والطربوش ، ولمع  
العُذاء ، وحلق ذقنه ورجل شعره ، فبدا شخصا جديدا ، وإن لم يزايله  
الهزال ولا الشحوب .  
ذهب إلى دار جمعية الضريرات مبكرا . ووجدھا دارا كبيرة ، أنيقة ،  
تحيط بها حديقة غناء وارقة الظلال ، فسار إلى بهو عظيم مستطيل ،  
يتصدّره مسرج كبير ، وقد تراصت به صفوف المقاعد الخضر ، وعلى  
الجانبين أبواب الشرفات المطلة على الحديقة . ولم يكن سبقه إلى المكان  
إلا نفر قليل فاتخذ مجلسه هادئا ، ومضى يتفحص المكان بعينه  
الساخرتين ، ويتساءل : ترى هل يمكن حقا أن تنتهى به رحلته فى هذه  
الدار إلى الحكومة ١٢ . وكان تيار القادمين لا ينقطع ، وكان فى استقبالهم  
جماعة من الأوانس الحور . وبعد ثلث ساعة من جلوسه تكاثرت عددهم ،  
وتزاحموا نساء ورجالا . فى أبهى الثياب وفاخر الخلل ، فشاع الحسن فى  
كل موضع ، وتطأير فى الجو شذا العطور ، وزاغ بصر محجوب ،  
وترددت عيناه الجاحظتان بين الوجوه الصبيحة ، والنحور المتألقة ،  
والظهور العالية ، والصدور الناهدة . وجرى دمه بحيوية فائضة ، وسرى  
القلق فى أعصابه . وعجب لهذه الدنيا الباهرة ، أين كانت خافية ٢ ..

هذه الثياب الفاخرة ، وتلك الحلى النفيسة . إن واحدة منها تكفى للإنتفاق على طلبة الجامعة جميعا . وهؤلاء النسوة ، ما أكثرهن وما أجملهن ولكن من المؤسف حقا أن كل امرأة يحوم حولها رجل أو أكثر . وأكثرهن يتكلمن الفرنسية بطلاقة ، وهن المسلمات الظوالم !. كأن الفرنسية لغة الدار الرسمية ، ترى كيف يتفاهمن مع الضريرات ؟! واجتاحتته موجة من السخرية مفعمة حقدا ، لا لغيرة على لغة البلاد ، ولكن تلمسا لأسباب الكراهية . وتساءل أين صاحب السعادة ابن الست أم سالم ؟ وأرسل بصره ناحية المدخل فصادف مجيء سيدة باهرة المنظر ، عرفها من النظرة الأولى ، فذكر القناطر لعهد خلى ، وذكر مهندس القناطر الشاب وزوجه الحسنة ، أجل كانت حرم حمديس بك دون غيرها ، وقد جاء وراءها البك نفسه ، وتبعته تحية وفاضل ! وعلق بصره بالأسرة وهى تمضى إلى مقاعدها من الصف الأول ، وتورد وجهه الشاحب ، وعادت إلى ذاكرته رحلة الأهرام ، فخال أنه يسمع صفقة باب السيارة وهو يفلق دونه !.. وقرض أسنانه وشعر برغبة جهنمية إلى البطش بهذه الفتاة الأنيقة المتعجرفة !.. أه لو تأبطت ذراعه حسنة من هؤلاء الحسان فسار بها أمام أسرة « قريه » !. تلك الأسرة الكريمة التى تجشمت المجيء إلى هذا البهو فى سبيل الإحسان والرحمة !. ينبغى أن يسود بلا قيد ولا شرط ، فلا ضمير ولا خلق ، ولكن متى يجلس معهم فى الصفوق الأمامية ! فى لباس السهرة الفاخر فى بدلة الصحافة هذه ؟!! وقبل أن يفيق من أفكاره رأى عن بُعد الأستاذ سالم الإنشيدى يشق طريقه إلى الأمام فى مشيته المتمهلة ، ورزائنه المعهودة ، كأن البهو لا يحوى سواه .. وكان يحيى برأسه كثيرا من الطبقة العالية نساء ورجالا ، فظل يتابعه بناظره حتى جلس ، وقد ملأه إعجابا وحسدا . هذه هى الحياة الحققة ، الحياة الممتعة ، الحياة التى ترضى الغرائز جميعا . الإنشيدى مثله الأعلى

ونعم المثل الأعلى هو . وشعر عند ذاك بيد توضع على كتفه ، قالتفت إلى يمينه فرأى الأستاذ أحمد بدير يجلس فى المقعد الملاصق ، فتصافحا بحرارة ، وسأل محجوب قائلا :

— ما الذى جاء بك يا أستاذ ؟

فنظر إليه الشاب نظرة كأنما يقول له ما الذى جاء بك أنت ؟ .  
وأجابه كالدهش :

— عملى ١.. أأست مندوب الجريدة ؟

فقال محجوب :

— وأنا مندوب مجلة النجمة ١

وضحكا معا . وهم أحمد بدير أن يسأل صاحبه عما إذا كان ينوى الاشتغال بالصحافة ، لولا أن رفعت الستار ، وبدت على المسرح سيدة جليلة ، ذات جبين وضاح ، ووجه مستدير مهيب ، لم يذهب كل جماله على اقترابها من الستين ، وقوبلت بتصفيق حاد متواصل ، فتلقته برزانة من يألّفه ، وحنّت رأسها تحية للمعجبين ، وبسطت بين يديها ورقة . ونظر محجوب إليها طويلا ، ثم سمع أحمد بدير يقول بصوت منخفض :

— السيدة إكرام نيروز منشئة الدار ..

أجل . عرف ذلك بداهة ، ترى أى دور ستلعبه فى حياته ؟ .

واستدرك أحمد بدير قائلا :

— إنها عجوز ولكنها مغرمة بالشباب ١

وأدرك أن أحمد بدير لن يمسك — كعادته — وسر لذلك أيما سرور ، لأنه من المحقق أن يقتحم الإنسان دنيا جديدة بغير دليل . أما السيدة إكرام نيروز فراحت تلقى كلمة الافتتاح بصوت هادىء متزن جميل . رحبت بالحاضرين ، وأثنت على عواطف الخير التى تعمر صدورهم ، ثم تكلمت عن جمعية الضريرات وهدفها السامى . ألفت كلماتها بالعربية ،

فلم تكذ تنجو كلمة من خطأ نحوى و لحن. وتبادل الصاحبان الابتسام ،  
وقال احمد :

— لا تحزن فالدار خالية ممن قد يظن إلى الخطأ ..  
فقال محجوب كالمعتذر :

— مغفور لها الخطأ ، أليست تخطب بلغة أجنبية ؟  
ثم شاهد الحاضرون فصلا من مسرحية لموليير . وغنت مدام تارد أغنية  
فرنسية عالمية ، وتركت فى النفوس أبلغ الأثر ، ثم دعى الجميع إلى بهو  
آخر مستدير ، أعد للرقص ، فتصدّرت فرقة موسيقية إيطالية ، ورصّت إلى  
جوانبه الموائد ، وعزفت الموسيقى ، ورقص الراقصون : ودارت الكؤوس  
مترعات . ووقف الصديقان عند مدخل إحدى الشرفات يشاهدان الرقص  
ويتحدثان . كان محجوب يرى الرقص لأول مرة ، فأثار دهشته وإعجابه ،  
رأى الصدور تكاد تلمس الصدور ، والأذرع تحيط بالخصور ، فعجب  
كيف يتمالك هؤلاء أنفسهم ! وتمنى لو كان من الراقصين . وتفحص  
الوجوه بعينه الجاحظتين القلقتين ، وهمس لنفسه : « المال . المال هو  
السيادة وهو القوة ، هو كل شيء فى الدنيا ! » وعثرت عيناه بشدى ناهد  
تكاد حلمته تثقب الفستان الأبيض الشفاف ، فحمى دمه ، ورفع بصره  
ليرى وجه صاحبتة ، فرأى عجوزا دميعة على فرط تهتكها ، فلكر صاحبه  
ولفته إلى السيدة هانسا :

— كيف يكون هذا الثدى لهذه العجوز ؟  
فألقي أحمد بدير على المرأة نظرة شاملة : وابتسم كالساخر ، ثم  
قال :

— وكيف تكون هذه الحفلة الخيرية فى حانة ؟  
فقطب محجوب غاضبا ، أو متظاهرا بالغضب وقال :  
— لنذهب الضريرات إلى الجحيم .. الحانة خير وأبقى

وجال ببصره مرة أخرى فرأى تحية حمديس ! رآها تراقص شابا جميلا  
مفتول العضلات ، له طول مأمون رضوان ، ومثانة بنيان على طه : فشعر  
أنه — الشاب — يستطيع أن يقبره بضربة واحدة . وتجهم وجهه ، وسأل  
أحمد بدير عنه ، فقال الشاب :

— وكيل نيابة وأحد أبطال التنس المعدودين ..

وتنهذ محجوب . ولو أمكنه — فى تلك اللحظة — أن يصير عظيما ولو  
بجريمة ترمى به إلى حبال المشنقة لما تردد ! . ما الذى منع من أن يكون  
أحد هؤلاء الشبان ؟! الدنيا جميعا ! القوى الكونية التى خلقت التاريخ ،  
وصنعت الطبقات ، وقسمت الحظ ، وجعلت عبد الدائم أفندى أباه ،  
والقناطر مسقط رأسه . وهنا سمع أحمد بدير يهمس إليه متعجلا :  
« انظر إلى الشرفة » وأدار رأسه إلى داخل الشرفة : فرأى سيدة تكاد تخفى  
وجهها بمروحة من ريش النعام ، وعلى يدها ينحنى رجل متقدم فى السن ،  
فلما استوى واقفا ، عرفه من الصورة التى تنشرها له الجرائد من آن لآخر ،  
قال أحمد بدير :

— هذه حرم أنيس بك إبراهيم ، والباشا من المعجبين بها ، ويقال إنها  
تسعى لمنح زوجها الباشوية !

وكفت الموسيقى ، وهرع كثيرون إلى الشرفات والحديقة ، فتحول  
الشبان إلى الشرفة ، دخلا معا ، قال أحمد بدير :

— فى أول عهدي بحياة المجتمعات كان يكلفنى موقفنا هذا عناء ما  
بعده عناء : كنت أخال الناس جميعا وكأن لا عمل لهم إلا تفحصى من  
الرأس إلى القدم . وأنت ؟

فذكر محجوب ملابسه ، ووجهه الذابل الشاحب ، فتصاعد الدم إلى  
خديه ، ولكن سرعان ما استعذى جسارته واستهانته فقال بصوت هادىء :  
— فى موقفنا هذا يداخلنى شعور بأنى رجل يجول بين ماشية ! .

ولم يكذب كلامه حتى وجد نفسه أمام حمديس بك ، وجها لوجه .  
وخفق قلبه بعنف . ونظر إليه نظرة حاول ما استطاع أن ينقيها من آى  
الخوف والاضطراب ، وتساءل ترى كيف يواجهنى ؟ .. ما عسى أن  
يقول ؟ ما عسى أن يفعل ؟ .. أما حمديس بك فقد عرفه ، ولاحت فى  
وجهه ابتسامة ، ومد له يده قائلاً :

— كيف حالك يا محبوب ؟

وتصافحوا ، وافترقا بسلام .. وتولته الدهشة .. إذن أخفت تحية  
الأمر ! .. ولم يدرك له هذا بخلد .. وتنبه إلى أحمد بدير يسأله للمرة الثانية :

— أتعرف حمديس بك ؟

فأجابه بزهو :

— طبعاً .. طبعاً . ابن عم والدتى !

— وكيف لم تحدثنا عن هذه القرابة العظيمة ؟

فأجابه محبوب بنفس اللهجة ، وكان لا يزال متأثراً بسرور النجاة :

— طظ ! ..

وهبطا الأدراج إلى الحديقة ، ومضت عيناه تبحثان عن سالم  
الإخشيدى ، ومتى يقدمه إلى السيدة ؟ .. وهل من فائدة ترجى ؟ .. ومر  
بجماعات النساء والرجال ، وشاهد نخبة من الرجال المعروفين ، منهم  
المتحفظون ، ومنهم من أطلقوا لأنفسهم العنان . ولفت نظره شخص  
غريب المنظر ، ضخيم الجسم فى غير تناسب ، مكرش ، كأنه مادة  
حيوانية لم تسوّ بعد ، يمشى منفرج الساقين كأنه ذو داء . بيد أنه بدا أثيراً  
محبوباً مكرماً ، يحدث العظام بغير كلفة ، ويمازحهم ويعلو صوته بينهم  
بغير مبالاة ، ويقهقه عالياً . وعجب محبوب لشأنه ، وسأل صاحبه  
عنه قائلاً :

— ومن هذا أيها العارف بأمر الناس ؟

فضحك أحمد بدير وقال :

— كيف لا تعرفه ؟ .. عزوز ضارم . كان يوما موظفا محترما ، ثم اضطر إلى الاستقالة لأسباب خلقية ، فاشتغل بالأعمال الحرة ، وعرفه أناس من ذوى النفوذ ، فأعيد إلى الخدمة وسار قدما .. ولكنه لم يهجر أعماله الحرة !

— وكيف يجمع بين الاثنين ؟

— عمله الحر شقته الأنيقة ، فيها مائدة للقمار ، وفيها الحسان الكواعب الحور .. !

وتفكر محجوب مليا ، وانقبض صدره ، وتكدر صفوه ، كيف يتاح له التفوق فى مثل هذا المجتمع ؟ إنهم يعلنون بمبادئه بغير حاجة إلى تفلسف ، ولن يمتاز دونهم باستهتار أو جرأة . فما الفائدة ؟ أليس من الأفضل أن ينقلب مصلحا كأمون رضوان أو كعلى طه ؟ وقطع أفكاره ظهور شاب كالقمر ، ممشوق القوام ، بديع الحسن ، ناعم البشرة ، فاتن العينين ، أخاذ الملامح ، لامع الشعر ، يخطر كالغزال نافثا سحر الأنوثة والذكورة معا . فما تمالك أن تتمم قائلا :

— لله ما أجمله ! .. أتعرفه ؟

فقال أحمد بدير مبتسما :

— أحمد مدحت . أشهر من نار على علم ، يدعونه بحق كوكب الشرق !

— موظف ؟

— بينك مصر . متخرج فى الحقوق منذ عام . مرتب ثلاثون جنيها .

— ثلاثون جنيها ! ومن كان شفيعه ؟

فضحك بدير قائلا :

— هو شفيع نفسه يا أحق !

ورن جرس يدعو المبعثرين فى جوانب الحديقة إلى بهو التمثيل . فعادوا جميعا وأخلوا مجالسهم بهدوء ونظام . ورفعت



الستار بعد قليل عن مجموعة من بنات الطبقة الراقية فى أودية فرعونية رائعة ، ورقصن جميعا رقصة فاتنة التصوير ، دقيقة التعبير ، أخذت بمجامع القلوب ، حتى همس أحمد بدير بأغنية سيد درويش « دا بأف مين اللى يالس على بنت مصر بأنه وش » وصفق الجمهور للمراقصات بحماس وإعجاب .

وأعلن بعد ذلك عن مسابقة الجمال ، فسرت فى الحاضرين هزة شوق واهتمام ، وشملهم سرور عجيب . وظهرت على المسرح هيئة المحكمين . كانت المسابقة أمتع ما فى السهرة ، بل كانت المشهد الوحيد الذى أجمع الحاضرون على الاهتمام به . وقد تفحص أحمد بدير المحكمين بإمعان . ثم جرت على شفثيه ابتسامة خفيفة ساخرة ، وأبرز من جيبه بطاقة كتب عليها كلمة أو كلمتين وطواها حتى صارت كالعويد ، ودسها فى جيب محبوب وهو يقول :

— دع هذه البطاقة حيث هى حتى تعلن النتيجة ، ثم ابسطها تجد اسم ملكة الجمال .

فسأله محبوب بدهشة :

— وكيف عرفته ؟

— صه .. انتباه !

وتركز انتباه الجميع فى مكان واحد ، ودعا الداعى أولى المتسابقات ، فطلعت فى سماء المسرح كالكوكب النير فى بهاء وأناقة . وكانت ترفل فى ثوب من الحرير الأبيض ، وتبسم ابتسامة توحى بالهدوء واللفظ ، بيد أنها أخفقت فى إخفاء ارتباكها ، وقال أحمد بدير بأسف :

— فى أوربا تبدو المتسابقات عرايا ! أما نحن فنقنع بالحكم على الظواهر ..

فتساءل محبوب ساخرا كعادته :

— ولماذا لا يختارون المحكمين من المطلعين ١٩  
وحملت الأعين ، وأمسك كثيرون بالنظارات المكبرة ، وأثبت البعض  
ملاحظاتهم في مذكرات . واستمر العرض والفحص بلا سأم ولا ملال .  
وتتابعت الوجوه كالأقمار . ثم اختفت هيئة المحكمين للمداولة فتصاعد  
اللغط ، وعلا النقاش ، وتراهن كثيرون . وعادت اللجنة بعد قليل وأعلنت  
اسم الفائزة : آنسة هدى حيدر ، فصفق الجميع ، وصفق والدها في  
مقدمة الجميع . وأبرز محجوب البطاقة من جيبه ، وبسطها ، فوجد  
فيها اسم الفائزة « هدى حيدر » بخط واضح ، فلاحته الدهشة في وجهه  
وسأل رفيقه :

— ما معنى هذا ؟  
فابتسم أحمد بدير فخورا بفراسته وحسن اطلاعه على البواطن ، ورغب  
أن يترك صاحبه لحيرته ، ولكن الآخر ألح عليه ، فلم يربدا من إسكاته ،  
فقال بصوت لا أثر للفخر فيه :  
— عرفته بطريق المصادفة ! رأيت الفائزة منذ يومين مع الأعضاء  
الصحافيين من لجنة التحكيم عند سفح الهرم ، أيدهشك هذا ١٩  
وكره محجوب عبد الدائم أن يدهش حقا ، فتمالك نفسه ، وقال  
بضجر :

— كلا لا يدهشني شيء . اختيار الموظفين تزييف ، رسو العطاءات  
تزييف ، الانتخابات نفسها تزييف ، فلماذا لا يكون انتخاب ملكة  
الجمال تزييفا ؟

\* \* \*

وأوشك الجمع أن ينفض ، فذكر محجوب غرضه : ورأى الأستاذ  
سالم الإخشبي يتجه نحو أحد الأبواب ، فودع صاحبه ومضى نحوه . وكان

الأستاذ قد نسيه تماما ، فتصافحا ، وسارا معا إلى الباب المقصود ، ودخلا حجرة كبيرة فاخرة الأثاث جلست السيدة نيروز فى صدارتها مع نفر قليل من أصحابها . وأهاب محجوب بجسارته أن يخونه الارتباك . واقترب مع صاحبه من السيدة الجليلة ، وانحنى الإخشيدى على يدها مسلما ، وقدمه إليها بصوته الرزين الهادىء : « الأستاذ محجوب عبد الدائم ، مندوب النجمة ١ ، من خريجي الجامعة المعجبين بما أحدثت عصمتك من نهضة رائعة » . وانحنى لها محجوب فمدت له يدها قائلة : « - إني فخور بالجيل الجديد .. ( وأتمت بالفرنسية ) فقد طفح الإناء بالماء القنر ، ولا بد من تطهيره وملئه من جديد .. فقال محجوب بالفرنسية :

— هذا حق يا سيدتى ..

وكان الإخشيدى يقوم لها بدعاية فى بعض الصحف إما بنفسه أو بواسطة بعض أصدقائه : فرجا أن تضيف ما عسى أن يؤديه محجوب إلى أفضاله السابقة . وألقت السيدة على الشاب أسئلة تتعلق بثقافته وتخصصه وآماله ، فأجاب محجوب بلباقة ، وجرى الحديث مجرى حديثا ، فاستأذن الإخشيدى وصاحبه ، وغادر المكان وهو يقول له مودعا : — الشئ الكثير يتوقف على قلمك ..

حقا ؟ .. أتتحقيق أمله رهن بمقاله عن حفلة اليوم ؟ .. وعاد إلى الجيزة متفكرا تستأثر به الأحلام . وأرق تلك الليلة كما كان يؤرقه الجوع فى ليالى فبراير ، تاه فى وادى الأحلام والآمال ، ثم ذكر طويلا السهرة التى عاش فيها نصف الليل كله : جمال الرفاهية ، ومشاهد النعيم ، ومجالى الحسن ، وروعة العشق ، وجنون الإباحية ، تلك الحياة الباهرة التى تلذّب روحه شوقا إليها ..

وعند ضحى اليوم الثانى كان يقطع حجرتة الصغيرة ذهابا وجيئة مفكرا فى المقال الخطير . ماذا يقول ؟ كيف يبدأ ؟ وبم يختم ؟ ثم ركز ذهنه فى حصر النقط الهامة : ثم هداه منطقته إلى طريقة لبقة فى كشف النقط الخطيرة ، فبسط صفحة ، وشطرها نصفين بخط رأسى ، وجعل لكل شطر عنوانا :

| الحقيقة                                       | ما ينبغي أن يكتب                              |
|---|---|
| ١ — إكرام نيروز كريمة رجل من صنائع الاحتلال . | ١ — أسرة إكرام نيروز وعراقتها فى الوطنية .    |
| ٢ — غرامها بالشبان .                          | ٢ — زوج وفيه وأم بارة .                       |
| ٣ — تفوقها فى الفرنسية وعجزها فى العربية .    | ٣ — اغترافها من الثقافتين العربية والفرنسية . |
| ٤ — دار الضريرات حانة .                       | ٤ — مشروعاتها الخيرية .                       |
| ٥ — مدعوها على مثالها .                       | ٥ — مدعوها على مثالها .                       |
| ٦ — المدعوون يهتمون بكل شيء إلا الضريرات .    | ٦ — عاطفة الخير .                             |

هكذا استخرج نقط الموضوع الخطير ، ثم جلس إلى مكتبه يتهيا للكتابة ، ولكنه لم يكده يمسك بالقلم حتى سمع طرقا على باب حجرتة — لأول مرة منذ انتقاله من دار الطلبة — فنهض منزعا ساخطا وفتح الباب . رأى جسما ضخما يمسأ عليه الفراغ ، فتذكره وخفق قلبه خفقة مروعة ، كان ساعى السالم

الإخشيدى دون غيره . ورفع عينيه إلى الرجل فى تساؤل ولهفة ، فقال  
الرجل مبتسما ولكن بصوت غليظ :

— سعادة البك يريدك على أن تقابله الآن

— سالم بك ؟

— نعم !

— أين ؟

— فى مكتبه بالوزارة !

ثم قص عليه الرجل كيف قصد إلى دار الطلبة كما أمره سيده ، وكيف  
وصف له البواب مسكنه الجديد . ولكن محجوب لم يسمع شيئا ، كان  
يرتدى ثيابه بسرعة وهو يقول لنفسه : ماذا هنالك ؟ .. يمكن ؟ .. ولكن  
بهذه السرعة .. إنه لسحر مبین ! .. هذه المرأة إمبراطورة .. بل  
شيطانة .. بل إلهة .. آه .. لشد ما أخاف أن تكون الدعوة لسبب آخر  
فيضيع هذا السرور الجنونى سدى ! .. ولكن لأى سبب يدعوه إن لم يكن  
لهذا ؟ ..

وذهبا إلى الوزارة فبلغاها فى منتصف الثانية عشرة ، وقصد إلى حجرة  
الإخشيدى ، فاستقبله هذا بلطف لم يعهد مثله من قبل . وأمر الساعى  
ألا يأذن لأحد حتى يأمره . وجلس محجوب على كسب منه ، فالتفت إليه  
الرجل بوجهه المثلث الهادىء، ولكن كان الهدوء هذه المرة قناعا يخفى  
انفعالات عارمة ، وقال مبتسما :

— دعوتك لأمر خاص بمستقبلك !

هى الكلمة المرجوة .. لن يضيع السرور سدى .. وغلبه الانفعال

فقال بصوت متهدج :

— لم أفرغ من المقال بعد !

— دع المقال الآن ، وانس إكرام نيروز . سنحت فرصة أجل فائدة ،

كالثمرة الدانية تروم من يقطفها ..

فتساءلت عيناه المحملقتان ، وقال وهو يزدرد ريقه :

— بعونك أقطفها !

فتريث الإخشيدى متفرسا فى وجهه بدهاء لم يلاحظ الآخر — لم

يلاحظ شيئا — ثم قال :

— وجدت وظيفة .

وساد صمت وقد تورد الوجه الشاحب ، فاستدرك الإخشيدى :

— درجة سادسة !

— سادسة !!

— سكرتير .

فتساءل لاهثا وهو لا يصدق أذنيه :

— سكرتير من ؟

فاشعل الإخشيدى سيجارة ، غير راحم لهفة صاحبه ، وقال متغافلا

عن سؤاله :

— الفرصة الجميلة كنز لمن يهتبلها ، حسرة للمتردد . أتذكر كيف

كان فيضان المسيسى من سنوات بركة على قطن بلادنا البائر ؟

فاحترق الشاب لهفة وقال بعزم أكيد :

— محال أن أتردد يا سعادة البك .

فسر الإخشيدى لتلهفه ، وأطمأنت نفسه القلقة بعض الشيء ، ثم

قال :

— سبق أن أفهمتك أنك يمكن أن تأخذ إذا رضيت أن تعطى !

أن تعطى ١٢ ماذا يملك لكى يعطى ؟ .. وغص بخيبة لم يتوقعها ،

فانطفأ بريق عينيه ، وقال بصوت كسير متسائلا :

— ولكن .. ولكن كيف أعطى ؟ .

— ليس المال بالعملة الوحيدة المطلوبة في سوق الفرص « وتنهّد  
محجوب بصوت مسموع « ومن سجايا الإنسان ما لا يقوم بمال .  
المسألة لا تعدو هذا : أنت جسر ذكى حقيق بالطيبات ، أم أنت ممن  
تلقى بهم الأوهام على شاطئ الحياة فتطوهم النعال كالتراب ؟ .  
فلاحت الحيرة في العينين الجاحظتين ، حتى خلع الشاب طربوشه  
ومسح على شعره المفلفل ، ثم لبسه بسرعة ، وقال :  
— أرجو أن أكون عند حسن ظنك ..  
— لهذا دعوتك ، وما خابت فراستي قط .  
ونظر إلى محجوب بعينه المستديرين وسأله :  
— أتقبل أن تتزوج ؟  
فتولته الدهشة . لم يخطر له الزواج على بال ، فلم ينبس بكلمة . وكان  
الإعشىدى لا يزال مصوبا إليه عينيه . فقال بلهجة ساخرة :  
— جاء دورى لا ستحاثلك .  
— ألا يمكن أن أعطى مهلة للتفكير ؟  
فهز الإعشىدى منكبيه استهانة وقال :  
— ظننتك أشد رغبة . لماذا أنتظر ؟ يوجد ألف عروس وعروس ولابد  
من اختيار واحد اليوم ..  
— اليوم ؟  
— بل الساعة ..  
فتنهّد محجوب ، وواتته جسارته المعهودة فقال بتسليم :  
— إذا قبلت ..  
فابتسم الإعشىدى ابتسامة مأكرة وقال :  
— بداية حسنة ولكنها ليست كل شيء .  
ماذا يريد الشيطان ؟ .. ليس الأمر كما حسب أول وهلة . ليس الزواج  
كل شيء ، فماذا تحوى « كل شيء » هذه ؟ .. وسمعه يقول بصوته

البغيض :

— ولكنى متفائل بجسارتك وبسرعة بتك فى الأمور ، الوظيفة فى مكتبنا هذا ، وكنت شاغلها لأسابيع خلّيت وظيفة سكرتير قاسم بك فهمى .

يا للعجب . أصدق هذا ؟ . أيمكن حقاً أن يوجد الدهر بكل هذه السعادة ؟ . ولماذا يختاره الإخشيدى وما يعهده ذا مروءة أو أريحية ؟ إنه يطالبه — نظير هذه الوظيفة — بالزواج ، فأى زواج هذا ؟ . أجل أى زواج هذا .. وأخفى حيرته وقال بسرور :

— يا لها من سعادة كالحلم . جزاك الله عنى خيراً .

فابتسم الإخشيدى وقال وقد ازداد اطمئناناً وجساسة :

— دعنى أتكلم عن الزوجة .

فأحدث لفظ « الزوجة » فى نفس الشاب هزة ، وتطلع إلى الإخشيدى بعينين متسائلتين كأنهما تسألانسه : « من هى ؟ .. ما صورتها ؟ ... ما معنى زواجى بها ؟ » فقال الإخشيدى :

— فتاة كريمة من « دائرة » قاسم بك فهمى .

دائرة . وتساءل الشاب بارتياح :

— قريبته ؟

— قاربت الحقيقة ... هى من معارفه !

فتغابى محجوب وتساءل مزدرداً ريقه :

— معرفة جوار ، صداقة والدين .

فقال الإخشيدى ببساطة واستهانة :

— قاربت الحقيقة ، سعادته صديقها هى بالذات !

وبدت الحقيقة سافرة . وأدرك ما يراد به . وعرف ثمن الوظيفة الفاخرة . إن الإخشيدى لا يرسل الساعى فى طلبه حبا فى سواد عينيه ، ولكن ليستغل بؤسه . وإنه ليمقت الإخشيدى ولكن ليس هذا بيت



القصيد . لقد تضرع وجهه بالاحمرار ، وأحس الحرارة تسرى في رأسه ، فجعل يستصرخ ما جبل عليه من جساسة وفجور . أجل ما الذى يخجله ؟ .. ما الذى يؤلمه ؟ .. أيؤمن بالزواج ؟ . أيؤمن بالعفة ؟ . أيشعر بإهانة فى تصريح صاحبه ؟ . إن الحياة تنبرى لامتحان فلسفته ، لتثبت بالتجربة المحسوسة إن كانت سفسطة وجدلا أو عقيدة وعملا ، فيا أيها الاضطراب زل ، ويا أيها الغضب اسكت ، وليتحدث عن الزوجة الساقطة كما لو كان يتحدث عن درجة حرارة الجو فى البرازيل . فدعا استهائته وسخريته ، وسأل صاحبه :

— عذراء ؟

فقال الإخشيدى مبتسما :

— كانت !

ولاذ بالصمت هنيهة ، وكان الوجه الشاحب لا يزال متوردا . واستدرك الإخشيدى :

— لا تحسبن عظماء الرجال بمعصومين ، واليك جاد فى إصلاح خطئه . فإذا شاطرته مقصده النبيل ، ظفرت برضاه ، وهيات لنفسك مستقبلا حسنا . ومثل هذا العمل يتطلب قلبا كبيرا وعقلا واسعا ، وثقافة عميقة ، أما إذا تناولت الأمور بمعيار العوام فهذا فراق بينى وبينك ، ولا تتوهم أنى أجرى ورائك ، فالذين يرضون بما يعرض عليك لا حصر لهم . بيد أنى أؤثر أن تعمل معى أنت فى هذا المكتب لما أعهده فيك من الدكاء والإخلاص . ثم إننا جيرة من قديم ، ودرجة سادسة كنز .. إنه يدرك البواعث الخلفية التى جعلت الإخشيدى يرسل إليه ساعيه . إنه يروم خدمة مولاه واكتساب رضاه . ولعله إن لم يظفر بزوج طيب للفتاة التى اعتدى البك عليها اضطر أن يقدم نفسه كبشا للتضحية . هذا واضح ومفهوم . ولكن هناك حقائق أخرى أولى بها أن تذكر . هنالك وظيفة سكرتير ، وهنالك الدرجة السادسة ، أفيجوز أن يضحى بها ؟ ولماذا ؟ ..

أيشعر بما يدعونه غيرة على العرض ؟ .. حاشاه . أيصدق فيما يسمونه الشرف ؟ .. تبا له . لقد قال كلمته الأخيرة في كل هذه الأشياء ، فينبغي أن يختار دون تردد . التردد معناه أنه لا يزال غير أهل لفلسفته الجسور تبا له . أينسى ليالي الجوع ؟ أينسى القول المدمس ؟ أينسى التخطيط في شوارع القاهرة شحاذاً متسولاً ؟ . على طه في المكتبة ومأمون رضوان في طريق باريس ويتدرد ؟ حمديس بك لا يكلف نفسه مجالسته خمس دقائق ويتدرد ؟ . وتحية — وهنا تميز غيظاً — أغلقت باب السيارة في وجهه ويتدرد ؟ . وننفح حاجبه الأيسر ، ورفع عينيه إلى صاحبه وسأله : — من هي ؟ أريد أن أعرف كل شيء ؟

فقال الإخشيدى :

— ستعرف كل شيء في حينه ، ولن تكون من الآسفين .

فرفع محبوب حاجبيه استهانة وقال :

— ليكن . فمتى يكون التعيين ؟

— ٢٢ —

فتنهذ سالم الإخشيدى بارتياح ، وقال وهو ينهض قائماً :

— تعال أقدمك إلى البك .

وتبعه على الفور باذلاً جهده لضبط عواطفه . ودخلا حجرة فاخرة ، رأى في صدرها مكتبا كبيرا يجلس إليه البك . واقتربا من المكتب في احترام حتى كادا يلمساه . ورأى الإخشيدى يتنازل مرة واحدة عن جلاله ، وينحني على يد البك في خشوع ، ففعل مثله ، ولما اعتدل في وقفته ألقى على الجالس نظرة خاطفة . كان في الأربعين ، معتدل القامة ، جميل المحيا ، أنيق الملبس والهندام ، صغير الشارب جميله ، يدل مظهره على أنه إمام من أئمة مدرسة الغزل . وقد قدمه الإخشيدى إليه ، وأثنى عليه ، فرحب به في تحفظ مقصود ، وسأله :

— هل أنت من متخرجى هذا العام ؟  
فأجاب محبوب بالإيجاب ، فقال له البك :  
— أرجو أن تكون عند حسن ظن الأستاذ الإخشيدى بك .  
ثم مد له يده إيدانا بانتهاء المقابلة ! وقد تعمد أن يجعلها مقابلة رسمية  
حتى لا يلعب الغرور برأس الشاب ، وعاد إلى حجرة الإخشيدى ، وراه  
محبوب مختللاً فخوراً ، فامتلاً حنقاً عليه ، ولكن حنقه لم يدم طويلاً ،  
لأنه — رغم كل شيء — كان راضياً ، وسأل بأدب :  
— متى يتم التعيين ؟  
— هذا على هين . مستكتب اليوم مذكرة تعيينك ، فجهز مسوغات  
التعيين ، ويتم كل شيء إن شاء الله فى بحر أيام . أما الآن فدعنا ننجز الأمر  
الآخر ... ( وسكت لحظات ) تكرم بالحضور إلى بيتى عصر اليوم ...  
فتساءل محبوب بدهشة :  
— لماذا ؟  
فقال الآخر بهدوء :  
— لتعقد زواجك .  
فقال محبوب بانزعاج :  
— أليس من الأفضل أن تؤجل هذا إلى ما بعد إتمام التعيين ؟  
— ولمه ؟  
فقال الشاب مبتسماً :  
— حتى أترش ...  
— أستاذ محبوب خير البر عاجله ، سيدفع لك بمبلغ محترم  
تستعين به على الزواج حتى تقبض أول مرتب ، ولن يكلفك الزواج شيئاً ،  
شقة العروس فى انتظارك ، وما عليك إلا تجديد ملابسك !  
فاستولت الدهشة على الشاب الذى لم يكن يتصور أن كل شيء مهياً

على هذا الوجه . كانت المصيدة مجهزة تنتظر فأرا . ووقع الفأر . ترى  
أبها غسل أم سم ؟

— ألا تعطينى مهلة أسبوعا ؟

— العقد اليوم ليطمئن قلب والدى الغروس ، أما الزفاف فبعد التعيين  
فتنهذ محجوب مستسلما ، وسأله :

— وأين شقة ... العريس ... ؟

— شارع نأجى ، عمارة شليخر شقة رقم ٤  
فقال الشاب بدهشة :

— هذا حى افرنجى ، ايجاره مرتفع بغير شك !

— لا تكثر لهذا ...

فتساءل الآخر بانزعاج :

— كيف يمكن هذا !

— أنت كثير الأسئلة ، قليل الصبر . اعلم يا أستاذ أن البك قد

اكترى هذه الشقة لمدة عام !

فتبيل فكر الشاب ، وسأل بمكر :

— لو ترك لى الخيار لاخترت مسكنا مصرى .

وابتسم الإخشيدى ابتسامة دلت على احتقاره لمكر صاحبه ، وقال

باستهانة :

— المساكن الافرنجية ينعدم فيها التطفل ، فإذا رأى البك أن يزورك ،

زارك فى أمن من المتطفلين :

وصوب بصره نحو المتكلم فوجده يتظاهر بالنظر فى بعض الأوراق وشعر

مرة أخرى بالدم يتصاعد إلى رأسه ، وخفق قلبه بعنف ، وذكر — لا يدري

كيف — زميله أحمد بدير وحفلة السيدة اكرام نيروز ، وتخيل نفسه

جالسا فى الحفلة ، وصاحبه الصحافى يومىء إليه خفية من بعيد

ويحدث !. دائما الناس ، الناس دائما .. أترك الناس يحطمون سعادته ؟

أيهما يفضل ؟ أن يكون من المجدودين وليقل أحمد بدير ما يشاء ،  
أم يكون من البائسين ولا يجد الصحافي ما يقوله عنه ؟ ... وقطب  
غاضبا ، ألا يزال مترددا ؟ .. كيف نسي « طظ » العزيزة ؟ يا له من جبان  
حقير . واشتد غضبه . ثم نظر إلى صاحبه وقال بحدة :

— ليكن ..

فقال الإنخشيدي :

— سأنتظرك عصر اليوم .

وفيما هو يغادر حجرة المدير وقع نظره على حجرة تقابلها كتب على  
لافتتها « السكرتير الخاص » فحقق فؤاده . ومضى إلى الخارج . وجعل  
يحدث نفسه : قرنان في الرأس ، يراهما الجاهل عارا ، وأراهما حلية  
نفيسة . قرنان في الرأس لا يؤذيان . أما الجوع ... سأكون أي شيء ،  
ولكن لن أكون أحمق أبدا . أحمق من يرفض وظيفة غضبا لما يسمونه  
كرامة . أحمق من يقتل نفسه في سبيل ما يسمونه وطن . أحمق من  
يضيع على نفسه لذة لأي وهم من الأوهام التي ابتدعتها الإنسانية . كل  
هذا حق وجميل . بيد أنني منفعلي هائج . لماذا ؟! ذلك أن العقل لا ينفرد  
بتوجيه سلوكنا . وبينما يحدث العقل حكمة ، يخلف الشعور حماقة .  
فعلى الحكمة أن تمحق الحماسة وليكن لي أسوة حسنة في الإنخشيدي ،  
ذلك الأريب . ظفر بوظيفته لأنه اختائن ، ورقى لأنه قواد . فإلى الأمام ..  
إلى الأمام .

وكور قبضة يمينه ولوح بها ، وحث خطاه وقد انبعث من عينيه  
الجاحظتين نور خاطف ..

وغادر حجراته عصرا بعد أن ارتدى بدلاته بعناية وأخذ حظه من التأنق والزينة ! ومضى إلى طريق المنيرة إلى بيت الإخشيدى . ليث طوال يومه متفكرا . وكان يقطع تفكيره بالتعجب . ثم يقول لنفسه وكأنه لا يصدق « سأتزوج اليوم » . وكانت الورقة التى أثبت بها نقط الموضوع الخاص بحفلة جمعية الضريبات لا تزال على مكتبه ! فكيف قطعت الأمور هذا الشوط البعيد ؟ تفتحت أبواب الوظيفة وها هو ذاهب لأداء الثمن ، الزواج !.. لا ينبغي أن يدع اسما يهوله ، فما هو إلا اسم !.. وكثير مما نحسبه حقائق أو قيما ما هى إلا أسماء . هو عادة اجتماعية . وفى بعض البلاد يتعدد الأزواج كما تتعدد الزوجات فى بلاد أخرى ، وقد يباح الزنا فى بلاد ، وكانت الاباحية قانونا فى بعض المجتمعات . فليس هناك قانون مطلق للزواج ، وليتحل بما أثر عنه من شجاعة وجسارة . هكذا مضى يحدث نفسه ثم ذكر فى طريقه والديه !.. وانقبض صدره على رغمه . وفرق . وتفصّد جبينه عرقا . تمثلت له والدته التى تؤمن بأنه لا يخطئ أبدا . وتمثل له والده الريفى ، بطيبته وتقواه وغيّره . إنه يتزوج دون علمهما . ولا يدري متى يعلمان ، ولكن هل يحتمل أن يعلما بالحقيقة ، لا فلسفته ولا أعصابه بمستطاعة أن تجعله يواجه مثل هذا التحدى !.. إن ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده عن مخيلته . ما أحوجه الآن إلى صفاء الذهن وحضور البديهة ورباطة الجأش . أليست عروسه فى انتظاره ؟.. يا لها من حقيقة بالخيال أشبه . ترى من عروسه ؟... ما صورتها ؟ ما أسرتها ؟ ما أخلاقها وأحوالها ؟ قلبه يحدثه بأنها جميلة وإلا ما جذبت شخصا كقاسم بك . ولكن لا شك كذلك فى أنها فقيرة

كما يدل اختياره زوجها لها ، والفتاة الغنية لا يعوقها عن الزواج عائق .  
والشرف قيد لا يغفل إلا أعناق الفقراء . ترى ماذا تخبىء له هذه الحياة  
الزوجية ؟ كيف يكون شعوره نحو زوجته غدا ؟ وكيف يكون شعورها  
نحوه ؟ وما هي حقيقة الرابطة التي ستربطهما معا ؟ وكيف يستقبل البك  
إذا جاء لزيارته ! . يا لها من حياة ، ويا لها من تجربة . غدا تمتحن فلسفته  
وقوته . إنه يسير نحو هدفه لا يلوى على شيء . ولا يستطيع عقله الآن أن  
يجد حلا لجميع المشكلات التي ينطوي عليها الغد . ولكنه إذا واجهها  
فسيعرف كيف يقهرها ، وينتصر عليها كما انتصر على كل عقبة في  
ماضيه . وداخله شعور بالثقة والزهو والخيلاء ، فسار بقدمين ثابتتين  
وانتهى إلى بيت الإخشيدى ، وفتح له الرجل بنفسه ، ثم مضى به إلى  
حجرة نومه وسأله :

— أأنت مستعد ؟

فقال محجوب وهو يتسمم ليستبقى ثقته بنفسه :

— كما ترى يا بك .

ونظر إلى الإخشيدى فلم ير ما اضطره قديما إلى إجلاله ، وشعر في  
أعماقه برغبة في تحديه والاستهانة به . قال الرجل :

— سيأتى المأذون عما قليل ...

فابتسم محجوب وقال بغرابة :

— المأذون !

فقال الإخشيدى مبتسما أيضا :

— ستدخل دنيا يا عم . والآن دعنى أقدمك إلى العروس ووالديها .  
وتبع الإخشيدى خائف الفؤاد ، تلوح فى عينيه نظرة تطلع وما يشبه  
المخجل والتردد ، وكان لا يكف عن دعاء جرائته وقحته ، ويرسل ناظره

لرؤية حياته ومستقبله .. وسبقه الإخشيدى إلى الدخول وهو يقول :  
— هاكم عضوا جديدا فى أسرركم المحترمة ...  
ودخل وراءه ، ف وقعت عيناه على وجه غريب ، رأى إحسان شحاته ،  
إحسان شحاته تركى دون غيرها ، والتفت عيناهما ..

## — ٢٥ —

كانت إحسان شحاته دون غيرها . ولكن غير الفتاة الطاهرة التى أحبها  
على طه فتعاهدا على الحب والزواج . حدث تاريخ جديد ، بدأ بنظرة عين ثم  
أعقبتهما أمور . حدث ذلك وهى عائدة عصرا من المدرسة ، عند رأس  
شارع رشاد باشا فيما يلى شارع الجيزة ، أمام القصر المعروف بالفيلا  
الخضراء . ولكم مرت بهذه الفيلا ذهابا وإيابا منذ أعوام ، ولكن فى ذلك اليوم  
وقعت عليها عينان جميلتان خبيرتان ، مغرمتان بكل حسن صبيح  
وشعرت الفتاة بالنظرة الثاقبة فلم يخل وقعها من أثر . رأت رجلا جليل  
الشأن ، إن لم يكن باشا فهو بك ، أنيق المنظر ، جميل المحيا ، ذا شارب  
صغير فاتن ، يكتنفه جلال وجمال على دقة جسمه وميله إلى القصر نوعا .  
ولعل ذلك وحده ما جعلها تلتفت إلى الورا بعد أن ابتعدت أذرا ، فوجدته  
مصوبا نحوها عينين أحست — فى حياء — نفاذهما وحرارتهما ! . كانت  
الفيلا ملكا لمدير شركة ايطالى ، باعها إلى هذا البك منذ أشهر ، وقيل يومئذ  
إنه موظف خطير ، ونوه البعض باسمه ، ولكنها نسيت ذلك جميعه .  
وما بلغت دارها الباهتة حتى كادت تنسى البك ونظرتة . فى عصر اليوم الثانى  
— وعند عودتها من المدرسة أيضا — رآته بموقف الأمس . التهمتهما العينان  
الجميلتان وهى مقبلة نحوه ، وتبعاهما بعد أن جازتسه . وتساءلت



ترى هل وجد ذلك الوقت — مصادفة كالأمس أم أنه انتظر اليوم على عمد ١٩. وسارت دون أن تلتفت وراءها ، وإن ظل ذهنها متفكرا . وعند منتصف الطريق شعرت بدنو سيارة من الطوار الذى تمشى عليه ، فعطفت رأسها إلى يسارها فرأت سيارة تكاد توازيها ، سيارة رائعة كأنها فيلا متحركة ، ولمحت وراء نافذتها عيني البك ترسلان إليها بنظرة غريبة ، فيها ابتسام مستتر ، وأعجاب ظاهر ، وفجر فاضح . وبطؤت حركة السيارة حتى سارت تسيرها ، فتولاها الحياء والارتباك ، وحشت خطاها ، وابتعدت داخل الطوار . ولما اقتربت من دار الطلبة اندفعت السيارة بسرعة ودارت إلى طريق الجامعة ، واختفت عن الأنظار . قطع الشك ، فهذا غزل . وخالط فؤادها شعور بالسرور والخيلاء ، وغلبتها خفة ودلال ورثتهما عن أمها فترنمت بصوت خفيض بأغنية : « التاكسى على الباب مستينى » ثم قالت لنفسها : « ليس تاكسى ، ولكنها سيارة ولا سيسارات عابدين ! » . بيد أنه كان شعورا بريئا أحدثه زهو الصبا . أما الرجل العظيم الجميل فلم يمسك ، بل تمادى فى غزله يوما بعد يوم . فلم تر بدا من الاستياء والتجهم له وقالت له عيناها : « هذا سلوك لا يليق » . ولكنه لم يأبه لاندازها . ويوما رأت إلى جانبه فى السيارة شخصا جديدا مثلث الوجه مستدير العينين ، ثم استمرت المطاردة وعنفت ، حتى باتت الفتاة فى حيرة . كانت تحب على طه فرأت أن من المنطق أن تنتهى هذه المطاردة الملحة . ومن ناحية أخرى لم يترك البك الجميل فى نفسها أثرا سيئا ، وعلى العكس من ذلك أبهج نفسها ولوعه ونظرة عينيه الجذابتين . وقالت لنفسها متألمة : إنه على كهولته أجمل من على وأروع منظرا ، ولولا أن قلبى قال كلمته لما دريت كيف أصده عن صاحب السيارة العظيم ! . وجعلت تتساءل مغيظة : هل ارعوى ؟ . متى يغيب عن ناظرى ؟ متى يبعد عن سبيلي ١٩. ولكن هل كانت صادقة فى تساؤلها ؟ أو لأى درجة كانت

صادقة ؟ . فلم تجد لذلك جوابا صريحا . باتت فى حيرة من أمر نفسها . وراحت تقول لنفسها كالمعتذرة .. إن كانت تسر لمطاربته .. فما ذلك إلا إرضاء لغرورها الأنثوى وتأثرا بمقامه الكبير . وما تدرى يوما إلا وأبوها يقول لها بلهجة ذات معنى — وكانت راجعة من المدرسة — « ألم تثوبى إلى رشدك بعد ؟ ! » . واضطرب فؤادها ، وتوردت وجنتاها . هل يعلم الرجل بما يحدث فى شارع رشاد باشا ١٩ ، رياه ، أداما هو بالمرصاد لها ١٩ ونظرت إليه نظرة المتسائلة المتجاهلة ، فقال وكانت أمها لحقت به : « رجل لا يقل مقاما عن وزير وأعظم جاها وثروة ، ألا ترين سيارته ؟ ، ألا ترين قصره ؟ . فماذا تريدين ؟ ! » ، فسألته الفتاة بحدة : « ماذا يريد هو ؟ » فقال المعلم شحاته تركى بصوت غليظ أخافها على غير عادته : « يريد بك خيرا ، ويريد بنا خيرا ، يريد الله أن يرفعك إلى طبقة السادة وأن يزقق إخوتك الجبايع .. كلمنى مدير مكتبه الذى أعرفه منذ عهد تلمذته . سيتزوج منك . نعم . لم لا ؟ . أنت جميلة ، وأنا رجل من صلب كريم . لعن الله الزمن . فحتم تلوى بوزك ؟ . افتحى عينيك . أبوك يستغيث بك . وأمك تستغيث بك . وإخوتك يستصرخونك ! » . واستفاض الحديث . واشتركت فيه أمها . فى تلك الليلة لم يغمض لها جفن حتى مطلع الفجر . قضت الليلة تتقلب على جنبها وتفكر . وعند عصر اليوم الثانى — فى الموعد المعهود ، اقتربت السيارة منها وفتح الباب . وترددت قليلا ثم صعدت إليها ..

كيف وقع هذا ١٩ . ألم تكن تحب على طه ؟ بلى كانت . ولكنه ليس الحب الذى يعنى ويصم . ليس الحب الذى يصمد للتجارب الشديدة والمغريات العنيفة . كانت تحب الجاه كذلك وتكره الفقر . كانت تمن تحت حمل أسرتها الثقيل . كانت الفيلا منظرا بديعا ، والسيارة كنزا نفيسا ، والبلد إلها من آلهة الذهب والسلطان . لقد قاومت أول مرة

الشباب الحقوقي لأنها كانت أول مرة . ثم راح والداها لا يسكتان عن  
الالاحاح ، وقد جعلاهما منذ التجربة الأولى فى حل من كل استهتار ، بل  
جعلاهما عصمتها بيدها ، ولولا على لهوت وانتهت من زمن بعيد . بيد أنها لم  
ترد فيما بينها وبين نفسها — أن تعترف بضعفها . تجاذبتها فى ليلتها  
المسهدة عهود كثيرة وعواطف متباينة . ترددت بين البك وعلى طه . بين  
زوج اليوم وزوج الغد البعيد ، بين الراحة والتعب ، بين حياة الدعة  
والاطمئنان وحياة الكد والكفاح ، بين عيش رغيد لها ولأسرتها وحياة جلها  
مغالية لفقر لا يغلب وضنك لا يزول . ثم اختارت دامة العينين ، خافقة  
الفؤاد . وأوهمت نفسها أنها تضحى بسعادتها فى سبيل الآخرين ، وأن  
الليل استقبلها فتاة معذبة ، وطلع عليها شهيدة من الشهداء . قالت  
لنفسها : « إني أحب على ، ولكنى أحب إخوتى كذلك . ولا يجوز أن  
يذهب إخوتى ضحية لأنانيتى . لذلك — لا لشيء آخر — ينبغى أن  
أذعن لأبى . أنا لا أحب البك ، ولا أحب الجاه ، والله يعلم بذلك ! » .  
وهكذا صعدت إلى السيارة التى ظلت تطاردها بعناد واصرار . كانت  
السيارة سحرا ، وكان صاحبها ساحرا كذلك . كان على طه عاشقا وناقدا  
فى آن واحد ، يحب ولكنه ينقد ويعلم ويرشد أيضا ، أما البك فرجل  
فاتن ، منظره جميل ، وكلامه لذيذ ، ودعاباته جنون وفتون ، كانت عيناه  
بأعين المنومين أشبه ، وكان إذا نظر فى عينيها العجولتين وعاطاها  
الحديث شعرت بتخدير عام واستسلام حالم . وجزى الله صبر المعلم  
شحاته تركى خيرا ، فجاءته يوما سيارة شيكورييل وأفرغت حمولتها من  
التياب الفاخرة ! . وحركت أم إحسان رأسها على طريقة العوالم وغنت :  
« حود من هنا وتعال عندنا » ، ولاح السرور فى عيني إحسان وهى تقلبهما  
فى ألوان الحرير لتختار ما يروقها ، وهكذا بدأ تاريخ جديد . ثم كانت  
نزهة الهرم بعد ذلك بأسابيع . انطلقت السيارة بالبك الجليل ، إلى يمينه

فلقة قمر تبعث الجنون ، والحق أن إحسان بعد أن تريشت وأخذت زيتتها  
وصار شيكوريل ومدام جريكور الخياطة في خدمتها أصبحت . على حد  
قول البك ، جنونا رسميا . في ذلك اليوم بيت أمر . تعطلت السيارة في  
الطريق فتركها الركبان . وقال البك إن له فيلا على مقربة من المكان واقترح  
أن يستريحا فيها حتى يتم اصلاح السيارة . ومضيا إلى فيلا جميلة تحيط  
بها حديقة غناء . ثم قال البك إنها وقد شرفت بيته الخلوى فينبغى أن  
يحتفل بزيارتها الميمونة . وأمر خادما فهيئت لها مائدة من التفاح  
والشمبانيا . وقشر لها تفاحة وقدم لها كأسا من الشمبانيا وهويقول لها إنها  
شراب غير مسكر ولذيذ . كان الوقت أصيلا والحياة في أطيب أحوالها .  
كانت النافذة تشرف على خضرة يانعة يتيه فيها البصر ، والسمااء موردة  
الوجنات بحمرة الشفق ، والحدأة تولى مودعة ضارية بجناحيها ، ووسائل  
الكرسى الكبير تتلقاها وكأنها تضمها بحنو ، وقدماهها منغرسيتين في  
سجادة وثيرة . وبعثت الشمبانيا الدفء في العقل ، والعقل إذا أحس دفئا  
تهيات له قوة سحرية يحول بها عالم المحسوس إلى عالم أطياف روحية ،  
خال من الخوف والهم والأحزان . وتضاعد همس محبوب أشهى من  
نفثات الأماني ونقرت على معصمها أصابع مسبحورة ، تدغدغ حواسها  
وتحمل دمها رسائل الاستفزاز ، ونفذت أنفاس حارة مترددة كشككات  
الابر من جيب فستانها إلى ثغرة صدرها وما بين ثدييها . وجعلت تدافع  
بساعدين مخنولتين ، حتى يثست ، فضمت بهما .

\*\*\*

ونطقت عيناها بالفرع والارتباك والحياء ، فقال لها البك بلهجة  
مطمئنة :

— لا تحسبى أنى غدرت بك ، إن مستقبلك أمانة بين يدي والله على  
ما أقول شهيد ...

التقت عيناها — محجوب وإحسان — فى صمت وذهول . وذكر كلاهما صاحبه فتولته الدهشة ولانزعاج واضطراب أيما اضطراب ، ذكرها محجوب فكاد يفقد رشاده . وذكرته إحسان فتولاها الدهول ، وذكرت على طه ، ودار الطلبة ، والماضى الذى تود أن تفر منه فرارا . ونظر محجوب فيما حوله فرأى عم شحاته تركى فى معطف جديد ، وسيدة بدينة أدرك أنها زوجه . وفطن الإخشيدى إلى ارتباك الجدة ، فقال مبتسما :

— لعلكم لا تحتاجون إلى تعارف ..

فقال عم شحاته :

— محجوب افندى جارنا منذ أربع سنوات ..

ولم يكن الإخشيدى يجهل هذا — وهو ما جعله يحرص على ألا يعرف أحد الطرفين بالآخر قبل مفاجأة اللقاء — قال :

— مصادفة جميلة ، والناس تقول : « اللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش » سلم واجلس يا أستاذ محجوب .

وأفاق الشاب من ذهوله ، فاقترب من آله الجدد وسلم عليهم واحدا واحدا ، ومدت له إحسان يدها ، خافضة العينين ، بوجه كالجمان . كانت تريد أن تسدل على الماضى ستارا كثيفا ، وأن تفر منه إلى الأبد ، فرمى بها الحظ بين يدي واحد من صميم ذاك الماضى ، وكأنه — الحظ — لم يشبع بها تنكيلا ! وأراد الإخشيدى أن يعالج توتر الجو بالحديث ، ولكن محجوب لم يلق إليه بالا . وكيف له بأن يغفل ثانية عن العجيبة الماثلة أمامه ١٩ . هذه إحسان شحاته بلحمها ودمها ! . أهذا

سر. مأساة على طه ١٩. يا عجبا ، كيف غوت ١٩ كيف استولى البك عليها ١٩ كانت ثقة على بها عمياء ا.. أهكذا تقع إحسان ١٩.. أما هو فلا يعرف الثقة العمياء أبدا ، ومع ذلك فلم يذهب به سوء الظن يوما إلى التنبؤ بما وقع ا.. انتهت إحسان التي أحبها على طه ، وانتهى ذاك الحب القديم ، وها هي إحسان أخرى جديدة تمتد إليه يدا ليرتبطا بميثاق الزواج ... إحسان التي طالما تمنّاها معذبا محسورا ا. أفليست الحقيقة أغرب من الخيال ؟ وتنبه إلى صوت الإخشيدى يقول له معاتبا :

— أما تستفيق ؟

فنظر إليه بعينين ذاهلتين وتمتم قائلا :

— إننى أعجب لهذه المصادفة .

فسأله الإخشيدى مبتسما :

— كيف ترى هذه المصادفة ؟

فقال محجوب بلا تردد :

— مصادفة سعيدة بلا جدال ا

وجعل الإخشيدى يتكلم عن المصادفة متفلسفا ، وقالت أم إحسان كلمة أو كلمتين ، وظن عم شحاته أنه أحاط بالموضوع حين قال : إن المصادفة من صنع الله وبأمره سبحانه . ولكن بالرغم من هذا كله ظل العروسان غارقين فى أفكارهما ، وغلب الوجوم والارتباك على جو الجلسة . ثم رن الجرس ، فنهض الإخشيدى ظافرا بالخلاص من التوتر الشائع حوله ، ومضى إلى الخارج وهو يقول :

— لعله المأذون يا سادة ..

وخفقت القلوب جميعا ، ثم دخل الحجرة شيخ يتبعه الإخشيدى ، وسلم على الحاضرين ، ثم دعا الله أن يجعل محضرو مباركا . وجلس الشيخ إلى نضد ، شعر عن ساعديه ، وأخذ فى عمله البسيط الخطير .

وجرت يده المغطاة بالشعر الغزير على القرطاس ، وتابعه عم شحاته والإخشيدي ، أما محجوب فقطب قليلا وأحد بصره ليركز انتباهه ويطرده أفكاره ، وخفضت إحسان عينيها الساجيتين وقد امتقع لونها . وجاءت الدقيقة الفاصلة ، فالتفت المأذون إلى محجوب عبد الدائم وقال له : « كرر ما أقوله : الآن قبلت زواج الست إحسان كريمة السيد شحاته تركي ، البكر البالغ الرشيد الخ .. » وكرر محجوب قوله بنبرات هادئة ، وصوت واضح ، لم يعتوره اضطراب حتى نطقه كلمة « البكر » بيد أنها وقعت من مسمعه موقعا غريبا أثار سخريته الكامنة ، وحققه الراسخ . وذكر إجابة الإخشيدي حين سأله عن العروس : عذراء ١٩ فأجاب الفاجر باستهانة : كانت ١٩.. أجل كانت ، فلماذا لا يكتب المأذون : التي كانت البكر ١٩. تزوير في أوراق رسمية .. زواجه تزوير ، حياته تزوير ، الدنيا كلها تزوير ..

ومضى المأذون يلقي الخطبة : الحمد لله الذي أحل النكاح وحرم السفاح . واستمر في محفوظاته واستمر محجوب في تأملاته . وقال لنفسه : ولكن البك حرم النكاح وأحل السفاح ، وجاراه هو على اعتقاده فوقع علي عقد نكاح في الواقع هو عقد سفاح ! وصارا زوجين أمام الله والناس ! .. واسترق الشاب إلى عروسه نظرة فرأى عينيها محمرتين تنذران بالدموع ، فقال لنفسه ساخرا : أول الغيث قطر . وتبدلت التهاني ، ودارت أكواب الشربات . كان زواجا غريبا ، شعر كل من شارك فيه بأنه يؤدي واجبا ثقيلا يود الفراغ منه في أقصر وقت : ارتاح الوالدان دون أن يستخفهما فرح أو سرور ، وغرق العروسان في وجوم وتفكير ، وغلبهما شعور بالقلق والخجل . قد عجبت إحسان في أول الأمر ، حين علمت أنه يراد تزويجها ، وتساءلت حيرى : أين الذي يرضى بعروس مثلها ؟ ثم ذكرت والدها المحترم فلم تستبعد شيئا ؟ والدها الذي تعامى عن

سقوطها ، والذي وصاها بعشيقها ولم يوصها بزوجها : فلماذا لا يوجد أناس على شاكلته ؟ وقد وجد بالفعل واحد ، وها هو يجلس إلى جانبها كزوجها ، وإنها لتذكره ، وتذكر كيف صدت هواه حين كانت تملك الصد عن هواه . وخالطها شعور نحوه بالاحتقار ، ولكنها لم تنماد فيه ، وقالت لنفسها متمعضة : ألسنت مثله أو أضل سيلا ؟! كلانا باع نفسه للجاه والمال .  
أجل ، صارا زوجين ..

## — ٢٧ —

وقعت التجربة إذا وتلقته فلسفته بساعدين شديدين ، إلا أن نفسه لم تخل من قلق . بيد أن هذا القلق لم يقعه عن العمل بل على العكس جعله أشد رغبة فيه ، فلم ينس غرضه لحظة واحدة ، ولم يضع ثانية بلا نشاط ، وكأنما وجد في العمل ملهارة عن وساوسه . راح يعد مسوغات تعيينه ، وكانت أعجبها شأنا شهادة بأنه « حسن السير والسلوك » ، ووقع عليها الإخشيدى وزميل له مما جعل محجوب يقول ساخرا : « من يشهد للعروس ؟ » .

وتسلم عشرين جنيها ليستعين بها على اصلاح شأنه فأخذ الأوراق ذاهلا لأنه لم يكن رأى شيئا كهذا من قبل . وجعل يعث بها باهتمام ، ويتفرس فيها بغرابة وانكار . هذا ثمن القرنين اللذين يحلّى بهما رأسه ، كل قرن بعشرة جنيهاات ! ورأى على إحدى الورقات صورة الفلاح ، فجرت على فمه ابتسامة خفيفة ، وذكر أباه طريح الفراش ، المهتدد بالجوع ، وتساءل لماذا لم يصوروا أحد الباشوات ؟ .. أو العلم التركي ؟! . وقال لنفسه ساخرا : إن هذه الصورة شبيهة بامضائه على عقد الزواج .



ومضى بجيبه المنتفخ إلى الخياط وابتاع قماشا لبديلتين ، فأدرك الرجل أن الطالب صار موظفا ، ولم يكن فصل له سوى بدلة واحدة في مدى أربع سنوات الدراسة . ثم ذهب إلى الموسكى ، واشترى بيجامتين ، وقمصانا ، وفانلات وجوارب . وحذاء وطربوشا ، كما ينبغي لعروس ! وحزم ثيابه الجديدة في حقيبة كبيرة وقد تورد وجهه سرورا وحياة . وألقى على حجرته الصغيرة نظرة شامتة ، وذكر ليالى فبراير البشعة ، ودكان الفول بميدان الجيزة ، تبا لهاتيك الأيام السود ٩. لن تعود أبدا مهما كان الثمن ... ينبغي أن يتورد هذا الالهاب الشاحب ، وأن يمتلىء ما بين هذا الجلد وهذا العظم ، وأن يصفو هذا الذكاء الجبار ، وأن يهلك شبح الجوع المقيت . إن النعمة لكى تعيش جعلت رقبتها كالثعبان طولا ، والأسد لكى يعيش جعل قبضته كالقنبلة فتكا ، والمحرب لكى تعيش اصطنعت كل لون . وهذا ما فعله هو على اختلاف الوسائل ! أجل ، وليكن طموحه لانهايا ، وطموحه لا حد له ، فقد غرم ثمنا باهظا ويجب أن يكون الجزاء كالعمل . وتفكر مليا ، ثم وصى نفسه قائلا : المحذر ؟ ليفعل ما يشاء ، ولكن لا يجوز أن يقول إلا ما يشاء الناس . وقد فطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء ، فإذا امتدح الفضيلة بكلمة أو كلمتين لم يعدم من يسبغ عليه لقب الفاضل ، أما إذا صارحها العداء فسينقلب عليه الناس جميعا وعلى رأسهم الملوثون . وليكن له أسوة فى الإخشيدي الذى يرى فى كل حفلة خيرية ... بل لماذا لا يفكر جديا فى الاشتراك فى بعض الجمعيات الخيرية ١٢. ثم ذكر زواجه ! وعاد يتساءل كيف هان على طه على إحسان ؟ كيف زلت قدمها ١٣ وما عسى أن يفعل على إذا علم غدا أن إحسان صارت زوجته ؟ سيسقط فى يده ، ويتشتت ذهنه حيرة ، ولا يصدق أنه — محجوب — كان سبب شقائه ، فإذا لم يجد بدا من التسليم بهذه الحقيقة الغريبة أنهم حاقدا نائرا بكل خسة ودناءة وغدر ذميم .

ليكن . فليتهمه كيف شاء ، وليحقد عليه ما وسعه الحقد . بيد أنه ذكر دينه الذي لم يقضه ، الخمسين قرشا ، فصدق عزمه على ردها إليه في يومه ، وكره أن يواجهه بنفسه لشعوره بذنبه ، فأرسلها بالبريد . وارتاح لذلك أيما ارتياح ، وشعر بأنه قطع آخر خيط يربطه بعلى طه ، وأنه لا يجوز له بعد الآن أن يعبا بما يتوهمه الآخر أو بما يحسه أو بما قد يفعله . ودعا البواب وكلفه ببيع أثاث حجرتة ، ووعدته بالتنازل عن ثلث ثمنه نظير أن يحتفظ له بما قد يصله من خطابات باسمه ، وكان يفكر وقت ذاك في والديه . ولعلها كانت أول مرة يذكرهما بلا سخط أو تدمر أو غضب ، وقد بات في نيته أن يرسل لوالده جنيهين كل شهر ، بل يزيدهما إلى ثلاثة إن أمكن .

أما غدا ، فصباحا يذهب إلى الوزارة ، ومساء يأخذ عروسه إلى عشاها الجديد .

## — ٢٨ —

واستيقظ مبكرا ، ومضى إلى الوزارة ، وانتظر الإخشيدى في حجرتة ، وجاء المدير عند تمام التاسعة ، فتصافحا بمودة ظاهرة ، وشربا القهوة معا ، وقال له الإخشيدى وهو يهيء مكتبه :

— لا شيء يصدق ! أتعلم أن أكثرية طلبات الإعفاء من المصروفات مقدمة من ذوى اليسار ؟

ولم يكن محجوب — في ذلك الوقت على الأقل — ليهتم بأمثال هذه الأمور ، ولكنه لم ير بدا من التظاهر بالدهشة ، وقال :

— شيء لا يصدق حقا .. وكيف يسوغون التماساتهم ؟

وقال الإخشيدى :

— لا حاجة ماسة إلى التسوية ، حسب أحدهم أن يقهقه ضاحكا ،  
وأن يقول لقاسم بك : « ألا يكفيننا هبوط أسعار القطن ؟ » ثم مزاح  
فمداعبة فموافقة !

ثم جعل كعادته يتهمكم من أحوال البلد وتصرفات كبار الموظفين  
وصغارهم ، فلم يسلم من لسانه سوى قاسم بك ، ولعل ذلك إلى حين ..  
والتفت إلى محبوب قائلا :

— لا تنس أن عملك يحتاج إلى لباقة وحسن تصرف للأمر . ( ثم  
غليه طبعه في التهوين من شأن الغير وأعمالهم فقال ) .. هو سهل في  
ذاته ، بل هو لعب . لا يحتاج بطبيعة الحال إلى فلسفة أو علم . ولكن  
إلى لباقة ..

فقال محبوب باهتمام :

— أرجو أن أنتفع بارشادك ..

— يسرني أن أجد مساعدا مخلصا لي ، ولذلك احتفظت لك بهذه  
الوظيفة على كثرة المتقاتلين عليها ، ولذلك أيضا ينبغي أن نكون يدا  
واحدة لأن أعداءنا كثيرون . لا يغرنك ما تلقى من بشاشة . فالعادة أن  
الموظفين يقبلون على صاحب السلطان ما أقبلت الدنيا عليه ، فإذا أقل  
نجمه فأكرمهم من يدبر عنه دون أن ينشب فيه أظفاره : فلنكن يدا  
واحدة .

وتحدث الإخشيدى طويلا على غير عادته . وفكر محبوب طويلا فيما  
يدعو إليه الآخر من أن يكونا يدا واحدة ، فقال مخاطبا صاحبه في سره :  
وقعت في شر منك ، وسأقلك الحظ إلى مساعد من طينتلك ، يفهم  
الانحلاص كما تفهمه ، ولكل شيء آفة من جنسه ، وليست منزلتي عند  
البك دون منزلتك ، فإذا كنت مهرجه أو قواده فأنا زوج عشيقته .  
وجاء الساعي الضخم وأعلن حضور قاسم بك ، فنهض الإخشيدى

واصطحب محبوب إلى حجرته ، وصافحهما البك بسرور ، وهنا الشاب على تسلمه العمل ، وقال له برقة :  
— أرجو لك التوفيق ، والمستقبل الباهر ..

ومضى الإخشيدى يعرض عليه بعض الأوراق ، أما محبوب فوقف انتباهه عند « المستقبل الباهر » . يقولون : « يا بخت من كان النقيب خاله » والنقيب أقرب إليه من خاله ! واختلس من البك نظرات ، ليملأ عينيه من الرجل الذى صاد إحسان ، وأفقدتها رشدها . نظر إليه بغرابة كأنما ينقب عن سره السحري ، أ يوجد فى محاسنه ؟ أم جاهه ؟ أم فى مكان اكتشفته إحسان لحسن حظها أم لسوء حظها ! أعجب بهؤلاء الرجال ذوى السلطان إنهم يأتون الكبائر باستهانة ، ويتجاهلون ما يسميه السذج ورطة أو مشكلة ، ويخلقون الحل اليسير للأمر فى غمضة عين ، وكان هو الحل اليسير !.. كيف غوت إحسان ؟ سيظل متحيرا حتى يعرف الحقيقة . ليس على طه دون البك جمالا ، وهو يفوقه بشبابه . فكيف غوت ؟.. ولو كانت تزوجته لقال آثرته لماله ، ولكنها .. رباه .. تبا لهؤلاء الرجال الأقوياء ، إنهم لا يعرفون المستحيل . أم تكون إحسان خدعة كبرى جازت على المصلح الاجتماعى الأحمق ، وما هى إلا .. لابد أن يعرف الحقيقة .

وغادرا حجرة البك ، وسار به الإخشيدى إلى حجرة « السكرتير الخاص » وقد قام ببابها ساع طاعن فى السن ، وكانت حجرة مستطيلة اصطفت على جانبيها المقاعد الجلدية وتصدرها مكتب كبير . قال الإخشيدى :

— أستودعك الله ، سأبلغ المستخدمى أنك تسلمت عملك اليوم . وكان الإخشيدى يقول لنفسه : أما كان الأحكم أن يلحق الشاب بوظيفة بعيدة عن المكتب ؟ فليس مما يرتاح إليه أن يوجد فى نفس

المكتب شخص له هذه العلاقة الوثيقة بالبك ! ولكن ماذا كان بيده أن يفعل ؟ كانت الحالة حرجة ، والبك مضطربا خائفا ، والوظيفة خالية ، ولو لم يعثر على محبوب لربما كان هو الزوج ! ولعل الأيام تثبت أن الشاب أهل لصنيعه !

وترك محبوب وحده فى الحجرة ، استمخفه سرور عجيب كاد يرقص له . وجلس على الكرسي المتحرك ضاحك الثغر ، ووضع يده على سماعة التليفون ، ولم يكن يستعمل التليفون قط ! وجعل يحرك الكرسي ذات اليمين وذات الشمال . موظف خطير بغير شك . وغدا يمتلىء بطنه باللحوم والفواكه . تبا للفلاسفة الذين يقولون : إن السعادة فى البساطة ، أليست أمراض البطنة بخير من عذاب الجوع ؟  
واليوم والغد ، أما الماضى فسحقا له ..

\*\*\*

ولبث ساعة وحيدا حتى ضاق بوحده ، ورغب أن يفعل شيئا أيا كان . فضغط على زر الجرس ، وفتح الباب وجاء الساعى العجوز وقال بأدب : « أفندم يا سعادة البك » . وتورد وجهه ! ووقعت الرتبة الجديدة من أذنيه موقعا موسيقيا مطربا ، وإن تظاهر بعدم المبالاة ، ثم قال باقتضاب : « قهوة » وما كاد الباب يغلّق مرة أخرى حتى رن جرس التليفون ، فرنت أوتار قلبه ، ورفع السماعة بقلق ووضعها على أذنه ، ثم قال بصوت هباب :

— أفندم .

— سكرتير قاسم بك فهمى ؟

— نعم يا فندم .

— البك موجود ؟

— نعم يا فندم .

— دعنى أكلمه ... قل له محمد رشاد .  
وظن أنه ينبغي أن يذهب إلى حجرة البك ليخبره ، فأعاد السماعه إلى  
موضعها الأول — فأقفل السكه وهو لا يدري — ومضى إلى حجرة البك  
وقال باحترام :

— محمد رشاد .. بك ، يريد أن يكلم سعادتك .

— نخله يدخل ..

— إنه يتكلم فى التليفون .

فسأله البك بدهشة :

— ولماذا لم تحول السكه إلى .. ؟

فلم يحر جوابا ولاح فى وجهه الارتباك على غير عادته ، فضحك البك  
وقال :

— حول السكه على ، استعمل الموصل فى مثل هذه الأحوال .  
وغادر الحجرة مرتبكا ، وقد أدرك أنه أخطأ . كيف تحول السكه ؟  
وأى شئ هذا الموصل ؟ وعاد إلى مكتبه ورفع السماعه إلى أذنه فسمع  
نقيقا متصلا فقال :

— يا سعادة البك ...

فلم يجبه أحد مع معاودة الدعاء ، ولم يسمع إلا النقيق المستمر ،  
فاشتد ارتبائه ، وخاف أن يكون قد ارتكب خطأ جديدا ، ولبث  
ممتعضا . ما كان يعلم أن للتليفون ثقافة خاصة ينبغي أن يعلمها ، ودعا  
الساعى على مضض ليلقنه سر التليفون . ودون بعض الملاحظات على  
ورقة كى لا ينسى ما يجب ذكره فى المستقبل . ثم دبت الحياة فى  
الحجرة فتوارد عليها أناس مختلفون من طبقات متباينة يستأذنون فى مقابلة  
قاسم بك فهمى ، فاستقبلهم دون ارتباك ، وعاونته جسارته الطبيعية على  
تمالك أعصابه ، والظهور بمظهر الرزاة والثبات . واستقبل أحد الياشوات  
المعروفين ، الذين لم يكن يراهم إلا من بعيد ، فسلم عليه ، واستأذن له ،  
ودعاه إلى مقابلة البك . وعلى رغم تظاهره بالهدوء كان يكتم بعنف انفعال

السرور والفرح . ومضى نهار العمل فى حركة دائبة ونشاط متصل وسرور لا مزيد عليه . وبهذا النشاط غير المنقطع نسي أفكاره ووساوسه ، فارتاح باطنه وهو لا يدري ، وغادر الوزارة معافى كأنما ينهض من نوم عميق . وكان غير الفتى الذى جاء الصبح ساعيا ، فقد عرف بكسوات وباشوات ، وثقف فن التليفون . ودعى « محجوب بك » عشرات المرات ، فكان أعظم ثقة وخيلاء ، بل أوشكت أن تتغير مشيته ونظرة عينيه . وذكر — فى نشوة المجد المبالغت — قريبه أحمد بك حمديس ، فود لو يأتى يوما لمقابلة قاسم بك ليحيى حجرته مستأذنا ، فأى دهشة تتولاه ! وكيف يتصافحان تصافح الأنداد ثم يقص ما رأى على أسرته فتسمع تحية ، وتعلم أنها أغلقت باب سيارتها دون فتى ذى نباهة ومجد ! .. ولكم يود أن تراه تحية مع زوجه الحسنة ! فزوجه تفوقها حسنا وفتنة ، وإنه ليود أن يتفرس فى وجهها وهى تنظر شزرا إلى زوجته وقد أدركت مدى حسنها الفتان !

صبرا صبرا ، إن الحياة بدأت تبتسم ...

— ٢٩ —

وفى ذلك اليوم نفسه ذهب محجوب عبد الدائم إلى الإخشيدى — كوعد سابق — ومضى به الرجل إلى الشقة ليسلمها له ، وحمل محجوب معه حقيبة ثيابه وكتبه القلائل وأعطاه الإخشيدى مفتاح الشقة وهو يقول :

— الشقة وما تحتوى — لكما — إلا صوانا صغيرا فى حجرة النوم . أدرك محجوب أن الصوان خاص بقاسم بك فهمى ، وتورد وجهه ، وشعر محجوب برغبة قوية فى أن يركله بما أوتى من قوة ! . وقال الإخشيدى :

— يحسن أن يجدد العقد باسمك .

— أهو الآن باسم قاسم بك ؟

فقال الإخشيدى بيروء :

— باسمى أنا ...  
فأحس محجوب ارتياحا وسأله :  
— وكم إيجار الشقة ؟  
— عشرة جنيهات !  
فابتسم محجوب قائلا :  
— ما يعادل ماهيتى تقريبا ...  
— سيؤديها البك ، كما سيؤدى عنك أجر الطاهية ... وغير ذلك ...

ودارا معا فى الشقة دورة استكشافية ، وكانت على صفرها آية فى جمال البناء ونفاسة الأثاث . فتولته الدهشة ، وأدرك أنه يرى كثيرا من قطع الأثاث لأول مرة ، ولم يدرك لها أسماء . كانت الشقة مكونة من ثلاث حجرات وصالة ، فعلى يمين الداخل تقع حجرة الاستقبال ، وهى تفتح على دهليز يؤدى إلى صالة معدة للجلوس وبها جهاز الراديو ، وعلى جانبها الأيمن بابان ، أحدهما لحجرة النوم ، والآخر لحجرة السفارة ، ولحجرتى النوم والسفرة شرفة طويلة واحدة تطل على شارع ناجى . وذكر فى موقفه بسرعة بيت الناطر ، ودار الطلبة ، وحجرة السطح بعمارة شارع جركس . أدرك فى موقفه ذاك أن الحقائق قد تفوق الأحلام سحرا وجمالا . والواقع أن مادة الأحلام مستمدة فى العادة من محسوسات الحالم ومدركاته ، وما هو ذا يرى أدوات ترف لأول مرة فى حياته ، لم تكن من محسوساته ولا من مدركاته ! الفرق بين هذا البيت وبيت القناطر هو الفرق بين إحسان وجامعة الأعقاب ، كلتاهما امرأة ، أجل ، ولكن شتان بين هذه وتلك . ونسسى فى تلك اللحظة ما كان يقوله لنفسه دائما من أنه لا يوجد ثمة فرق بين امرأة وامرأة ، وأن إحسان وتحية وجامعة الأعقاب كلهن سواء ! ..

وقال له الإخشيدى وهو يودعه :  
— غدا مساء تجد عروسك فى انتظارك !



وذهب الرجل والشاب يرمقه شزرا .

وعند أصيل اليوم الثانى انطلق إلى الجيزة ، وذكر فى الحال على طه ترى فى أى موقع يقيم ؟ كان يعلم أنه فى الجيزة ولكنه جهل عنوانه . فهل ما يزال الشاب مقيما على عهده واهتماماته بالفتاة ؟ أيدعوه هواه إلى ربوعها وهل نما إليه خبر زواجها ؟ أيمكن أن يلتقى به وهى متأبطة ذراعه ؟ ساوره قلق ، وإن كان لا يبالى شيئا ، بل ود فى تلك اللحظة لو يلقاه على ويعلم كل شيء . ومضى إلى بيت عم شحاته تركى ، فوجد الأسرة فى انتظاره — ما عدا إحسان — فأيقن أن تعليمات الإخشيدى سبقته إلى آله الكرام . وكان الجميع — عم شحاته وزوجه والأبناء الستة الصغار — يرفلون فى الثياب الجديدة الناطقة بكرم قاسم بك وحده . وسلم وسلموا بحرارة ، فقبله عم شحاته فى جبينه ، وقبل يد حماته ، وداعب الصغار وقبل أصغرهم فى خديه . وفى جلسته أنعم نظره فى الوجوه تتطلع إليه ، فأقر لتوه بأن بيت عروسه حافل بالحسن . أبوها حسن القسمات ، وأمها حسناء ، وإخوتها لآلىء منثورة . وقال لنفسه إن الجمال سلاح نافع حقا فى يد الفقير . واستفاض الحديث ، وساهم فيه الشاب كما ينبغى وإن ود لو يغادر البيت فى أقرب وقت ، وتكلم عم شحاته عن دار الطلبة ، وعن الطالب محبوب عبد الدايم المهدب المجتهد ، وكيف أنه لم يكن من عملائه لأنه لا يدخن ، وكيف أنه — عم شحاته — يحترم الطلبة الذين لا يدخنون وإن ( وقد ضحك عند ذاك ) لم ينتفع باستقامتهم ، وقال إنه لم يحيى حفلا لعرس ابنته لأن الزوج الطيب هو النرح الحقيقى ، وأنه لم يدع أحدا من أقربائه وآله — وهم ريفيون — حتى لا يجشمهم مشقة السفر . وغلب على ظن محبوب أن الرجل يكذب كما يكذب المولعون بالفخر الزائف ، ولكنه ذكر والديه بامتناع ، وقال إنه طير نبا زواجه إلى والديه ، ولولا أن أباه — وهو مزارع

ذو شأن بالقناطر وهو مريض لشهد يومه وباركه بنفسه . وتحدثت أم  
إحسان عن أبنائها ، وعن إحسان خاصة ، وأدرك محجوب من حديث  
حماته ، من لهجتها ، وحركات رقبتها وحاجبيها وعينيها أنها امرأة ذات  
دلال وأنوثة ودعابة ومكر — وكان يجهل تاريخها بشارع محمد  
على — وقد سأله عن وظيفته ، واقترحت عليه أن تقرأ كفه ، وتبأت له  
بنذرية صالحة ومركز حكومي ممتاز ، وكان محجوب يتكلم ويستمع ،  
ويسترق النظر إلى باب الحجرة الموارب ، وعيناه تتساءلان « حتمام  
الانتظار ؟ » . وأخيرا جاءت إحسان . جاءت في ثوب العرس الأبيض  
الشفاف ، وقد عقصت شعرها وجعلته على هيئة عمامة ، فتجلى سواده  
اللامع وأكسب بشرتها صفاء ، وجاء في صحبتها نسوة أربع ، — قيل  
إنهن قريبات أمها — ولكنه لم يلق بالا إلى أحد ، جذب حسن عينيها  
فأطاح باستهتاره المعهود ، حتى تمشت شرارة الكهرباء في صدره ، وقرض  
على أسنانه ، والتقت عيناها وهما يسلمان ، فامتلا بالسحر الجارى في  
لحظيهما ، وشعر بأنه ثمل يترنح ، وعاودته ذكريات عذابه القديم ،  
ومآسى شهوته المضطربة ، فلم يصدق — على استهانتها  
وجسارته — أنها صارت ملكا له ، أو حتى ملكا له على المشاع كما  
يقولون وذكر للشريك ، وكيف سبقه ، فتألم ، وعاود النظر إلى الجسد  
البض الذى يشف عنه فستان العرس الأبيض وما يزداد إلا تألما . وكان عم  
شحاته قد ميا للحاضرين عشاء فاخرا كلفه ثمنا غاليا ، فدعاهم إلى  
المائدة ، ونهضوا تسبقهم ضجة الصبيان . وكانت أم إحسان على مرحها  
مستاءة فى أعماقها ، وكانت تود من كل قلبها أن تحتفل بيوم إحسان  
السعيد ، وأن تجعل منه يوم سرور للحي جميعا ، ولكن الإخشيدى  
صارحها بأن محجوب أعجز من أن يحقق لها رغبتها ، وكانت تعلم أن  
زوجها أعجز من زوج كريمتها ، فطورت نفسها على رغبتها الحانقة : وقد

أكلوا مريثا وعادوا إلى جلستهم هاتئين ، ولم يكن يوجد ثمة داع إلى بقاء العروسين ، فنهضا يودعان الحاضرين . وجيء بتاكسي حملت إليه ثياب العروس في حقيبة كبيرة ، وأخذ محجوب إحسان من يدها وسار بها وسط نصف دائرة من المودعين ، وهبط السلم على مهل ، وكأن أم إحسان قد نفذ صبرها فأطلقت زغرودة رنت بين الحيطان رنيناً نفاذاً ، خفق له قواد الفتى ، وارتج جفناه . وتلقت النسوة تلك الزغرودة كما يتلقى الجنود علامة الهجوم ، فأطلقن الزغاريد ، تتجاوب أصداؤها ، ويشتد صفيها المتقطع يهتز له صدور الحسان . واحتوى التاكسي العروسين ، وقد نسيا في شدو الزغاريد نفسيهما فابتسما في بشاشة وحياء ، وظلا ينظران إلى الواقفات بالباب حتى جاوزت السيارة دار الطلبة إلى شارع رشاد باشا .

— ٣٠ —

وأراد أن يتكلم ، ولكنه لم يدر ماذا يقول ، وكان كلما طال صمته طال حصره ، فعدل عن رغبته وهو كظيم . وتفحصها بعناية . رآها تنظر إلى الطريق من النافذة ، مولية إياه مؤخر رأسها . ولم يشك في أن أعينا كثيرة في الطريق ستتنفس عليه هذا الحسن البديع الذي يستأثر به . وسر لذلك أيما سرور . ليت آل حمديس يرونه في جلسته هذه ، وخصوصا تحية حمديس !.. وخطر له في تلك اللحظة — وقد اطمأن إلى أن تحية تكتمت فضيحتة — أن يمضي يوما إلى زيارة قريبه العظيم ليقدم له عروسه كما جرت العادة . وداعب هذا الخاطر قواده حتى أسكره . وكانت لا تزال عاطفة رأسها إلى الخارج ، فألقى بنظره الجائع إلى جسمها اللدن ، فجرى على الجيد فالمنكب فالثدي الناهد ثم الخاصة الخميصة وأخيرا الفخذ اللفاء . وتنهد من أعماق صدره ، وقال لنفسه : ما أشد

جوعه ، واضطرام دمه . ووقف التاكسى أمام عمارة شليخر ، ونزل ونزلت  
مستندة إلى يده ، وسارا إلى المصعد ، ودخلا الشقة يتبعهما البواب  
بالحقيبة . ودلها على حجرة النوم فتقدمت إليها وردت الباب ! ووقف  
مترددا : ثم تراجع إلى مقعد فى الصالة وارتمى عليه . لم يرتح أول وهلة  
لاغلاق الباب ، وذكر باب السيارة فى الهرم ! ولكنه سرعان ما أقام العذر  
بالارتباك الذى يحدثه الموقف بيد أنه لم ينج من مرارة طبعه الساخر فقال  
لنفسه : يا له من حياء هو بالأبكار الساذجات أولى ! ثم قطب وتساءل :  
ترى ماذا تخبىء له حياته الجديدة ؟ أسعادة أم شقاء ؟ إنه لا يطمح أن  
تنظر إليه كزوج بالمعنى المفهوم لأنه هو نفسه لا يستطيع أن ينظر إليها  
هذه النظرة وحتم أن تراه — فى قرارة نفسها — قوادا ، كما يراها فى قرارة  
نفسه — عاهرة . فهل يمكن أن يسعد قواد وعاهرة معا ؟؟ هذه هى  
مسأله دون زيادة ولا نقصان . إنه لا يروم من حياته الزوجية معنى  
اجتماعيا ، ولا ذرية صالحة ، ولا احتراماً متبادلا ، كل ما يريد رغبة  
متبادلة ، ميل يعادل ميله ، شهوة بشهوة ، وحسبه هذا من زواج هو وسيلة  
لا غاية ، إنه يروم حبا بلا غير ، يرد ماءها الحين بعد الحين . دون قلق أو  
فكر أو هم ، وتوكله أولا وأخيرا على نفسه الجسور التى حطمت القيود  
ومزقت الأغلال . كان يفكر ونظره عالق بالباب المغلق . أينتظر حتى  
يفتح ؟ وإذا ظل مغلقا ، فهل يلبث مكانه حتى الصباح ؟ ونهض قائما ،  
ودنا من الباب ونقره بخفة ، فلم يجبه صوت ولا حركة ، فأدار الأكرة  
ودفعه . وجد الظلام يوشك أن يبتلع الحجرة إلا نورا خافتا آتيا من ناحية  
الشرفة ، فأدرك أنها فى الشرفة ، تستجم ، فمضى إليها فى خطى رقيقة ،  
ورآها جالسة فى ناحية مسندة ذراعها إلى حافتها ملقبة بنظرها إلى  
الطريق . ولم تبد حركة لدخوله ، فوقف ينعم فيها النظر على ضوء مصباح  
الشرفة ، ثم قال :

— فعلت خيرا بدخولك الشرفة ، فهذه الليلة من ليالى يولية الحارة ؟

فحولت رأسها إليه ، وقالت بعد تردد :

— أجل هذه ليلة حارة ..

سر لمبادلتها إياه الحديث ، فأثنى بمقعد ، وجلس عليه على كعب منها ، وألقى عليها نظرة ، فراعته صورتها ، وحرقة تكوين جسمها البديع المشتهي ، وذكر أنه سيتمتع بهذا الجسد الفاتن هذه الليلة ، بل هذه الساعة ، فجئن جنونه ، وأسكرته هذه الحقيقة الماثلة بين يديه ، كأنه يكتشفها لأول مرة . ولم تعد تحتمل عرامة نظره فأطرقت ، فمد يده إلى ذقنها ، ورفع رأسها إليه ، وهو يقول بصوت متهدج :

— دعيني أطلع وجهك الجميل ...

والتقت عيناها لحظة ، فامتلاً حماسا وقال بحرارة :

— تألفت حياتنا بمعجزة . وما كنت أحسب قبل اليوم أن المصادفة تلعب هذا الدور الخطير في حياة الانسان ، فما أحقها أن تسخر من منطقنا ومن سنن الوجود جميعا ، ولعلك تجددين وحشة ، ولكنك ستغلبين بدكائك وثقاقتك . وكما أن الحب يكون مقدمة للزواج ، فالزواج يكون مقدمة للحب ، والمعاشرة كفيلة بمزج النفوس وتوحيد الآمال ... أليس كذلك ؟؟

فتحركات شفتاها كأنما لتتكلم ، ثم جمدتا ارتباكا ، وارتسمت عليهما شبه ابتسامة . وازداد حماسا فقال :

— ستدركين معنى قولى هذا ، وستعملين على تحقيقه ، لنعملن معا على تحقيقه ، وسنرى ..

وقال لنفسه : إن النساء لا يعشن بلا حب — حقيقة تعلمها من القراءة — فهي لا شك تحب ، ولكن من المحبوب المجدود ١٩ ..

حسبه يوما على طه ، ثم ظنه قاسم بك فهمى ، وقد يكون المال دون غيره ، فعلى هذه الحقيقة تتوقف سعادته . وقد يكون صادقا فى قوله لها « ولعلك تجدين وحشة ؟ » فالحقيقة أنها كانت تجد هذه الوحشة ، وقد أدرك ذلك من أول نظرة ، بل أدرك أنه لو أعتقها هذه الليلة لكان ذلك أدنى إلى التهذيب والرقّة ، ولكنه نبذ هذا الخاطر ، موقنا أن الحيوان الهائج فى باطنه لا يعرف التسوية ولا التأجيل . ولا يقدر على انتظار مهما كان الثمن . ثم كف عن التفكير وقد عاودته جسارته الطبيعية :

... هلمى ندخل ...

وأمسك بمعصمها برفق ونهض ، فنهضت طائعة ، ثم أحاط خصرها بذراعه ، ودخلا معا ..

— ٣١ —

وفتح عينيه فى الصباح الباكر فوقعتا على مرآة الصوان الفاخر ، فرأى صورته وإلى جانبه يرقد الكنز النفيس . وارتفق ساعديه ، ثم ثبت عينيه وقد غمرته ذكريات الليل التى لم تمح آثارها من نفسه وجسده وكانت لا تزال مستغرقة فى النوم مبعثرة الخصلات على الوسادة الحريرية ، ما أجمل صفاء هذه البشرة ، ما أعمق سواد هذا الشعر ، واهتز صدره طربا فهوى بشفتيه الممتلئتين على خدها الأسيل ..

ومضى الأسبوع الأول من هذه الحياة الجديدة ، وقد أقبل ينهل من الشراب العذب المبذول بشراهة جنونية ، وسرعان ما أدرك منذ اللحظة الأولى أن لذته ... لذتهما — لن تتم إلا بشيء جديد ضرورى جدا كى ينسى هو ما ينبغى أن ينساه ، وكى تنسى هى ما يحسن أن تنساه ، فيصفو الجو ، ويستمتعا بحياتهما أجمل استمتاع . وجرب بالفعل ذلك الشيء

الضرورى الذى سمع عنه كثيرا : الشراب ١. وقليل منه كفاهما ، ولكنه نفعهما نفعاً سحرى ، بفضلله وجدها تذيب رقة ، وتنفض سحرا ، وسكن بين ذراعيها يرشف من طيبات رزقه . كانت الحياة فى ظاهرها ثملة باللذة مخمورة بالشهوة أما فى الأعماق فاضطربت تيارات خفية . فلم يفتأ محجوب يتساءل عن على طه وقاسم فهمى وقلب إحسان . وربما ثار شكه ، وراح يؤنب نفسه ويعنفها ، ويقول إنه الحق ولا شىء غيره ، الذى يوسوس له فيوقفه من لذته ليصلى نار الفكر . وحاول مرات أن يعود بسخريته ، وجعل يوصى نفسه قائلا : « اقتل الشك ، امح الكرامة من قاموسك ، احذر الغيرة ، أفرغ شهوتك ، توثب للطموح ، واذكر أن ما أنت فيه هو الامتحان الأول والأخير لفلسفتك ، فقل الآن طظ ، قلها بلسانك وبقلبك وبارادتك .. » .

ولم تخل إحسان كذلك من خواطر تضطرب فى أعماقها . عرفت أخيرا المصير واستقر بها المستقر . أسدل الستار على أحلام الحياة الأولى ، وخاب الرجاء فيما طمعت فيه من أن تصير زوجا للبك العظيم . ووجدت نفسها ربة هذا البيت العجيب الذى يتنازعه صاحبان . لم تعد تقول لا . فما خوف الغريق من البلبل ؟؟ ورأت من الحكمة أن تنظر فيما بين يديها . إن القلب الذى أيقظه على طه اندثر وذهب . والأمن الذى لوح لها به قاسم فهمى خاب وانطفأ . فلم يبق لها إلا تلك الغريزة الحيوانية التى أطلقها والدها من عقالها منذ البدء . ربما حنت إلى على طه أو حقدت على قاسم بك أو عافت نفسها محجوب عبد الدائم ، ولكنها لم تسمح لاحدى هذه المشاعر بالتمادى والتضخم ، ومالت بمزاجها وبالدوافع التى تحيط بها إلى الاستسلام التام . ما من فائدة ترجى من التحسر على ماضى لن يعود ، وأولى بها أن تولى الحاضر والمستقبل عنايتها ، فلتستمتع باللذة ، ولتستأثر بالقوة ، ولتنفق عن سعة ، ولتغمر

أسرتها بكل خير عميم ، وبذلك وحده لا تذهب التضحية عبثا ، وزوجها أولى الجميع بتفكيرها ، لقد همت بأن تحتقره أكثر من مرة ، ولكن لماذا؟؟ لأنه؟؟.. ولكنها هي أيضا؟؟.. فلا تعبها ولا يعيرها؟؟. بل هنالك وجه آخر يقرب بينهما ، فهو فيما يبدو ضحية مثلها للعوز والطمع . وكلاهما ضحية لشر واحد فما أجدرهما بالتصافى والتعاون . كان كلاهما يعالج همومه بالحكمة ، ويحاول ما استطاع أن ينقى عن نفسه نوازع الشقاء . واطردت الحياة في لذة يهيئها الشراب والرغبة في السعادة . وكان محبوب أقدر منها على التغلب على أمثال هذه الهموم لاستهانتها المعروفة ، أما هي فكانت حديثة عهد بالشذوذ ، فربما تولتها الكتابة إذا خلعت إلى نفسها ، وربما وجدت حينا إلى الآمال المشرقة الأولى في الحب والحياة الشريفة ، مثلها مثل النازح إلى بلد غريب إذا احتواه بيته الجديد في أول لياليه ، ولكنها كانت تتغلب على مرضها — والحنين مرض — بتلك الواقعية التي اشتهرت بها النساء ، وتلك الرغبة الصادقة في طيب الحياة . ولهذا السبب سألتها محبوب يوما — من أيام الأسبوع الأول — وهو يقرصها في خدها :

— أنت سعيدة ؟

أجابته من فورها :

— نعم ، والحمد لله ..

فقال لها الشاب بسرور :

— الحياة أمامنا منبسطة ، والفرص دائية ، فلنشب بين الأزهار ، ولنجن

الثمار ..

فقالت مبتسمة عن درها النضيد :

— نشب .. ونجنى .

— لا تصدقني المحكم الجامدة التي يعرفون بها السعادة . السعادة



ليست فى الحياة ، وجميع ظروف الحياة لديها سواء ، هى حقا فى الإرادة  
فمن يردّها إرادة تأتّه طوعا أو كرها ..  
فحدّجته بنظرة متفكرة بعينها السوداوين البديعتين ، فقال بحذر  
وتواضع :

— إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ١٠٠

فقال بهدوء :

— لا داعى لهذا.. ( وهنا ذكرت شطربيت للمنتبى فقالت ) .. كل  
مكان ينبت العز طيب ..  
فأخذ يدها فى يده كأنه يعاهاها ، تريث قليلا ، ثم قال وقد غير  
لهجته :

— وثمة شىء آخر ، لا ينبغي أن نعيش فى عزلة . لنقتحم الحياة  
العريضة ولنأخذ من مظاهرها بأوفى نصيب .  
كان يريد أن يتمتع بحياته الاجتماعية على أكمل وجه ، وأن يقدس  
مظاهرها الكاذبة التى يكبرها الناس جميعا ، واشتدت إليها حاجته ليخفى  
بها ما فى حياته من شذوذ . ولذلك فكر جديا أن يذهب وعروسه إلى آل  
حمديس ، ليرىء جرحا قديما ، وليشبع شهوته إلى الظهور ، ولكن  
ألا توجد ثمة عقبة حقيقية ؟؟

— ٣٢ —

ولم ينش عن رغبته الجريئة ، وأراد أن يجعل منها أولى خطاه فى غزو  
المجتمع الراقى . ورأى عن حكمة أن يمهد للزيارة بمحادثة حمديس بك  
بالتليفون ، وسيعلم من إجابته إن كانت حكاية الهرم قد بلغت أم أن الفتاة  
الأريية أخفتها عنهم . وحادثه ، ووجد منه خطابا رقيقا ، فأخبره بزواجه ،

وكاشفه برغبته فى تقديم زوجه إليه فرحب بها البك أيما ترحيب . وهرع  
محجوب إلى زوجه وقال لها بسرور وخيلاء :  
— دعينى أقدمك إلى أقربائى العظام ..

وعند عصر اليوم العاشر من حياته فى البيت الجديد أخذاهما للزيارة الخطيرة . فارتدت إحسان ثوبا جميلا من ثيابها الجديدة ، وتجلت صورتها الفاتنة ، وتهيا سحرها باجتماع الشعر الأسود الفاحم والبشرة العاجية الصافية والشففتين الورديتين وبدا الشاب فى منظر حسن قد أخذ يستعيد عافيته ورونقه . واستقلا تاكسى إلى الزمالك . لم تكن إحسان تخلو من قلق ووحشة ، أما محجوب فكان يتسم ابتسامة هادئة مطمئنة كأنه ذاهب إلى بيته الذى شب وترعرع فيه . وقد عبرا الحديقة إلى سلامك الاستقبال وهما على تلك الحال ، فما راعهما إلا منظر الأسرة الكريمة فى انتظارهما عند مدخل السلامك . وقفوا الأربعة صفا : أحمد بك حمديس ، حرمه ، تحية ، فاضل . وسر محجوب لنجاح الاستقبال ، وقد اطمأن إلى نجاحه من قبل لما هو معهود فى النساء كافة من الميل إلى تفحص بنات جنسهن ونقدهن ، وتبادلوا التحية والسلام ، ولم يخف عن عينيه الجاحظتين الأثر الذى أحدثته زوجه فى المستقبلين ، فأحس ارتياحا وغبطة . وجلسوا ، وما زالوا يتبادلون ألفاظ الترحيب والمجاملة ، وجعلت عيناه القلقتان تدوران فى جميع الأنحاء وتتفرس فى الوجوه . ووجد نفسه وهو لا يدري يقارن بين زوجه الحسناء وتحية حمديس . إن لتحية جمالها ، ولها إلى جمالها سمت أنيقة ورفعة ، ولكن هيهات أن تبلغ مدى هذا الحسن الرائع . إن زوجه أجمل من تحية ، بل أجمل من أم تحية فى صباها ، وأعينهم لا تنكر هذا ولا تمارى فيه . وطرب لذلك أيما طرب وقال لنفسه بشماعة : « لقد هزمت فى المقبرة يوم الرحلة وتم لى الانتقام اليوم » . وأراد أن يعرفهم بزوجه كما ينبغي ، فقال

بجسارته المعهودة وهو يشير إلى فئاته :  
— إحسان كريمة شحاته بك تركى من كبار تجار الدخان . ألا تعرفه  
يا سعادة البك ؟

وتورد وجه إحسان ، وأطرقت لتخفى ارتباكها . أما أحمد بك حمديس  
فزوى ما بين حاجبيه باحثا فى ذاكرته ، ثم قال بلهجة الاعتذار :  
— لا أذكر للأسف ( والتفت إلى إحسان ) . لنا عظيم الشرف !  
فقال الشاب ضاحكا وهو يشير إلى زوجه مرة أخرى :  
— زميلة قديمة ، عرفتھا فى الجامعة ..

فابتسم البك وابتسمت زوجه ، وابتسمت إحسان أيضا وقد هالها  
اندفاع محبوب ، ولم تدر أين يقف . وكان فاضل ينظر إلى العروس  
بفتور ، أما تحية فلم تخول عنها عينين ثاقبتين ، وقد فطنت ببدايتها إلى  
البواعث الحقيقية التى أغرت الشاب بهذه الزيارة ، فازدادت له احتقارا  
وتجلى فى نظراتها إلى العروس الاستهانة والسخرية . وراحت جرم  
حمديس بك تتحدث عن فتيات الجامعة ، فقالت :

— إن الجامعة : تمهيد للوظيفة ، وإنها لذلك اختارت لتحية سبيلا  
آخر ، ( وسألت العروس ) :

— ألم تخامرك فكرة التوظيف وأنت تلتحقين بالجامعة ؟  
وكانت إحسان برمة بالحديث ، مشفقة من مغبة الكذب ، ولكنها لم  
تر بدا من الإجابة فقالت :

— بلى يا هانم ، ولكن كل شىء قسمة ونصيب كما يقولون .  
فسألتها تحية بمكر :

— ألم تأسفى لتغير مجرى حياتك ؟  
وابتسموا جميعا ، وضحك محبوب كأنما راقته دعابتها وقال :  
— سامحنى الله . كانت إحسان طالبة بارعة ، وطالما أثارت إعجاب

المسيو ليشو أستاذ الفلسفة بذكائها ، وقد اعترض طويلا على انقطاعها عن المدرسة ..

ونظر إلى تحية ليرى ما ترك من أثر في عينيها ، فوجدها تنظر إليه باحتقار وسخرية ، فلم يغضب ، بل سر سرورا خفيا . ودخل عند ذاك خادما نوبى بالمرطبات . فشربوا هنيئا وسادت فترة سكون كالاستراحة . وطرقت حرم حمديس بك الحديث مرة أخرى ، فنادت الذكريات البعيدة ، وذكرت الغلام الصغير الذى يطالعها الآن زوجها رشيدا ورب أسرة ناشئة ، وتكلمت عن الزمن وسرعته العجيبة ، ثم سألت الشاب قائلة :  
— كيف حال والديك ؟

— الحمد لله .

أجاب محجوب بسرعة ، وسرعان ما انقبض صدره ، فسأته السيدة مرة أخرى :

— ألم يحضرا زفافك ؟

— لم يمكنهما ذلك لمرض والدى ..

فدعت السيدة للرجل بالشفاء واستدركت سائلة أيضا :

— وكيف القناطر ؟

— جميلة كمهدك بها ..

— يا عجباً ، لم نعاودها منذ فارقتها ..

وسأله أحمد بك مبتسما :

— هل تقضيان شهر العسل فى القاهرة ؟

فسر محجوب بالسؤال لأنه فتح له أبوابا للحديث ، فقال :

— عملى كسكرتير لقاسم بك فهمى لا يدع لى فراغا فى الوقت

الحاضر !...

وهنا قالت تحية لتشرح للشباب أسباب وجودهم فى القاهرة فى يولية إذا كانت غابت عنه :

— والذى يقوم عادة بأجازته فى أغسطس فمسافر جميعا إلى أوروبا ..  
ثم غيرت لهجتها وسألته باهتمام :

— ألم تأخذ إحسان هانم إلى حفريات الجامعة ؟  
واضطرب فؤاده ، وجرى بصره بحذر على وجوه الجالسين ، فوجدهم مبتسمين لا تدل وجوههم على شيء مما أثاره الخوف فى نفسه من سوء الظن فتتهاد ارتياحا وقال وقد تمالك نفسه :  
... كلا ...

ثم قال بخبث :  
— منذهب بلا شك عندما نبتاع سيارة قريبا ..  
فقالت بخبث أيضا :

— المشى فى الرحلات ألد ..  
وسأله حمديس بك عن قاسم بك فهمى ، وقال له إنه كان زميله فى البعثة ، ووعده أن يوصيه به خيرا . وضايقته هذه الصلة التى لم يتوقعها ، ماذا يحدث لو وقف حمديس بك على سر زواجه ؟؟ وشعر بيد ثلجية تقبض على قلبه . ولما كانت الزيارة للتعارف فأحب ألا تطول أكثر مما طالت ، ونهض مستأذنا فى الانصراف ..

\* \* \*

وفى طريق العودة قالت له إحسان وهى تنفخ :  
— أعوذ بالله منك ..  
فقهقه ضاحكا ، وقال بسخرية :  
— كونى جسورة . الكذب كلام كالصدق سواء بسواء إلا أنه ذو فوائد .

— وإذا انكشفنا ؟؟

فقال بضجر :

— وإذا .. وإذا .. دائما وإذا .. إذا هذه حرف خيبة إذا دخل على جملة ذهب بفائدتها وثبط همة الفاعل ، لا تقولى وإذا .. فضحكت إحسان وقالت :

— حرم البك قريبك سيدة لطيفة !

فاختلس إليها نظرة مأكرة وقال بخبث وشيطنة :

— وتحية ؟ .. يا لها من فتاة كاملة !

فصمتت لا تدري ما تقول . ثم غمغمت :

— أجل ..

وكان يلحظها بخبث . وسر سرورا كبيرا . وعاد إلى الشقة يخامره شعور الظافر المنتصر . وظل ذاك المساء مغتبطا حتى ناداه جرس التليفون ، وما وضع السماعة على أذنه حتى توجهم وجهه . وفتر حماسه ، كأنما ألقى على لهيب قلبه الفرح الراقص ماء بارد . كان المتكلم سالم الإخشيدى ، وقد أخبره أن البك سيزور الشقة مساء الغد ..

— ٣٣ —

ما لجرح بميت إيلام .

جعل يردد هذا الشعر قبيل مساء اليوم الثانى وهو يتأهب لمغادرة البيت ثم تساءل متى يموت جرحه إذا ؟ كان عظيم الثقة بنفسه وبفلسفته ، ولكنه شعر فى اضطرابه وألمه بأن الفلسفة إذا خرجت من الدماغ إلى دنيا الحقائق قد يحدث لها ما يحدث للقذيفة إذا انطلقت من المدفع : تتفجر وتتناثر . حاول أن يستعيد رباطة جأشه وبروده . حاول أن يقول

« طظ » ولكنه ، أخفق ، أو أخفق مؤقتاً على حد تعبيره . وجعل يتساءل ترى هل علمت ؟ . ثم نظر إلى التليفون فرجح أن يكون طير إليها النبا السعيد ! فالتليفون هو القواد الثاني في هذه الشقة ؟ ترى ما حقيقة شعورها ١٤ أمسرورة هي بذاك اللقاء لمرتقب ؟؟ .. أنتظر على لهفة أم بغير مبالاة ؟؟ .. أيحطم هذا الرأس الجميل كما تحطم جوزة الهند ليرى ما فيه ؟؟ وتلوث حية الغيرة في قلبه نافثة سمها القتال ، وغادر البيت وسار في شارع ناجى على غير هدى ، وقصارى ما يطمح إليه أن يمسك زمام عقله ، أو أن يثوب إلى رشده . ووجد نفسه أمام حانة « لاروز » فمال إليها بلا تردد ، كأنها هي هدفه المطلوب ، وكان طلاب الجعة يتقاطرون عليها فرارا من جو يوليو القائظ ، متهافتين على الجزء التابع لها من الطوار . ولكنه كره الازدحام ، وانتبذ مكانا داخلها ، فلم يلق حوله إلا شابا يجلس إلى مائدة غير بعيدة منفردا بكأسه ، وقبل فوات خمس دقائق على جلوسه كان يرفع الكأس إلى شفتيه الممتلئتين ، ويفرغها حتى الثمالة ، ثم صفق يطلب أخرى . شرب بشراهة لا عهد له بها ، وإن كان يوجد في حانة لأول مرة في حياته . وما انفك عقله متفكرا مشغولا لا يغيب به عما حوله . ولم يكن غضبه لاضطرابه بأقل من اضطرابه نفسه ، كبر عليه أن يأسى على معنى تافه من المعانى التي ثار عليها وكفر بها . أغضبه حقا ل عرضه ؟ .. وما عرضه ؟؟ . ألم يتحرر من هاتيك الأغلال جميعا ؟؟ كلا إنه لا يغضب ل عرضه . ولا عرضه بالشئ الذى يستحق الغضب ، ولكنه يعانى الغيرة . وتفكر مليا ، ثم عاد يحدث نفسه : هل الغيرة طبيعية أو تقليد اجتماعي كالعرض ؟؟ . بل صفة طبيعية بلا مرأ . إن الحيوان يعانى لأواءها كالإنسان سواء بسواء ، فنحن نغار ما دمنا نحب ، وما دمنا نرى أنفسنا جديرين بأن نحب كذلك . هكذا حدث نفسه ولكنه لم يقتنع كل الاقتناع ، ولا ارتاح الارتياح كله ، بقي في النفس شئ . ألا ترى أن هذه الغيرة توشك أن تفسد عليه جميع ما أفاد من فلسفته وتحرره ؟؟ . إنه ينتقد ويحلل ويحطم ، ولكن وراء ذلك تخايل لعينيه أشباح مخيفة : سيارة تقف

أمام عمارة شليختر ، ينزل منها البك الأنيق ، المصعد ، الجرس ، باب الشقة يفتح ، مساء الخير أيها العروس .. جاء زوجك الطبيعي ، ثم .. كيف تلقاه ؟. في نفس الحجرة وعلى نفس الفراش ... وصفق بشدة يطلب كأسا جديدة ولاحت منه عند ذاك التفاته إلى الشاب المنفرد بكأسه — بكثوسه — فوجده يحدق فيه بدهشة وسرور ، فقد راقبه الشاب منذ حضوره ، وراح ينظر إلى اضطرابه وحركاته غير الإرادية ، ويتساءل عما يقلقه ، ولكن في سرور ولذة شأن المنتشى الشم . ولما التقت عيناهما ابتسم فابتسم له محجوب والسكرارى سريعو التعارف ، إلى بعض وإن كانت مودتهم سطحية ، فتبدلت التحية ، وبدا الشاب الغريب وكأنه يلوذ بصاحبه من وحدته التي جعلها السكر أفضح من أن تحتمل ، وعاذ به محجوب من أفكاره وآلامه فدعاه إلى مائدته ، وسرعان ما جلسا وجها لوجه ، شابين ثملين لا يقيمان لشيء وزنا . وتعارفا . ثم قال الشاب الغريب :

— رأيتك آخذا في حديث عنيف مع نفسك ، فوددت لو حملت عنك بعض هذا العناء ..

فضحك محجوب ضحكة عالية جدا دلت على انفلات الزمام من يده ، وسأله :

— أحقا كنت أحادث نفسي ؟

— أجل . وكنت محتدا .. بل حائقا ..

وكان لابد أن يتكلم ، لأنه دعا بمتكلم : ولأنه أراد أن يروح عن نفسه ، ولم يجد في ذلك من بأس ، فحالته وحالة صاحبه آذنتا بهديث أهوج ماجن لا يعرف الحدود . سأله :

— ومتى يحادث الإنسان نفسه ؟

— في أحوال نادرة ..

— اضرب مثلا .



- فى السرور الفائض والحزن البالغ أو فى حالات لا هى إلى السرور  
الفائض ولا الحزن البالغ ١
- وماذا يبقى من الحالات غير ما ذكرت ؟؟
- الحالات التى يحدث الإنسان فيها غيره ..
- فقال محبوب متحيرا وهو يقبض على كأسه :
- لا أكاد أفهم شيئا ...
- ولا أنا ! فى مجلس الأنس ، كما فى مجلس التواب ، ليس  
بالمهم أن تفهم ما يقال ، ولكن المهم أن تتكلم .
- كيفما اتفق ؟؟
- وكيفما أحببت ... !
- ولذه الاقتراح . فطرح التفكير ظهريا ، وراح يقول وقد احمرت  
عيناه الجاحظتان من الشراب :
- أنا فى الحجرة والكبش فى الحقل ..
- كتب محمد الدرس ..
- اعمل لدنياك كأنك تموت غدا ، واعمل لآخرتك كأنك تعيش  
أبدا .
- ولكنك لن تعيش أبدا ، وربما لم تعيش حتى مطلع الصباح ، لأنك  
تفرط فى الشراب ..
- إذا نطلب كأسا أخرى ..
- علام يدل امتلاء الحانات بالواردين ؟
- يدل على أن دستور ١٩٢٣ أفضل من دستور ١٩٣٠
- أتحسب أن دستور ١٩٢٣ يعود ؟
- أين هو الآن ؟
- فى ضريح سعد مع جثث الفراعنة .
- فليحفظوه هنالك حتى نستحقه .

- هل أنت وفدى ؟
- كلا ... أنا حنبلى !
- وأى فرق بين الاثنين ؟
- الحنبلى ينقض وضوءه خيال الكلب .
- والوفدى ؟
- ينقض وضوءه خيال الظل .
- إذا أنت حر دستورى !
- أنا ؟ .. أنا فى الحقل .. !
- أنت كبش إذا ذو قرنين !
- واضطرب محجوب ، وبهت ، وكأنه يستيقظ من هذيانه على مطرقة ،  
وحدج صاحبه بنظرة ملتفة ، لكن وجهه يتسم منشرح الصدر ، متأهبا  
لتلقى كل ما يقذفه به ، فحمل نفسه على السرور حملا ، وسأل الشاب  
الغريب :
- خبرنى . أحق أن القواد فى نعيم ؟
- وتضحك الشاب ، ورأى محجوب يرمى فى الموقد حطبا ، فرغب أن  
يعاونه وقال :
- حالك خير دليل !
- فضحك محجوب ضحكة عالية ارتج لها المكان وقال :
- حدثنى بما لك من خبرة عن أنواع القيادة .
- قيادة عمياء لا يدري بها ضحيتها من النوع الذى ابتلى به زوج  
عشيقتى ...
- واحد .
- وقيادة يعلم بها الزوج ويتجاهلها إيثارا للسلامة ، وهى موضوعة منتشرة  
فى بعض الأوساط .
- اثنان .

— وقيادة يختارها الزوج للذة أو لفائدة . هل أنت متزوج ؟  
فعاوده الضحك ، وأغرق فيه ليخفى توتر أعصابه ، ثم قال بحقد  
خفى :

— يوجد نوع رابع يجمع ميزات الثلاثة معا وهو وقف عليك : كنت  
أول الأمر تجهل ما أنت مبتلى به ، ثم تكشف لك فتجاهلته إشارا  
للسلامة ، ثم تعودته فاستلذذته .  
وأغرقا فى الضحك معا . ثم قال الشاب الغريب بلهجة ظاهرها الجد  
وباطنها المزاح :

— الواقع أن القيادة من أعقد مشكلات الزواج فى العصر الحديث .  
— الحقيقة أن الزواج من أعقد مشكلات القيادة ..  
— صدقت ، ألا ترى كيف يضرب الشبان عن الزواج ؟؟ ولكنهم  
يشتركون فى الأسر من منازلهم ..  
— الانتساب ألد بلا تكاليف ..  
وهذا طويلا ، بلا ملل ولا تعب حتى أوشك الليل أن ينتصف ...

\* \* \*

وطاب له أن يخط فى الشوارع على غير هدى قبل أن يعود إلى البيت .  
وغمغم كالمتروم : « أنا فى الحجرة والكبش فى الحقل » ثم راح يقول :  
« أنا فى الحانة والبلد فى الحجرة » ولكنه كان فى منتهى النشوة  
والسرور ، فارتفعت حرارة غبطته لدرجة تذوب فيها جميع الأحزان . وبدأ له  
وكأن شيئا فى الدنيا لا يساوى مثقال ذرة من الكآبة ، وأتته قدرة يمكنه أن  
يحقق بها فلسفته إذا شاء بلا تردد ولا تفكير ولا انفعال . وقد أدرك فى تلك  
اللحظة أن فلسفته والخمر كليهما من جوهر واحد .! وعاد إلى البيت ،  
ودخل الحجرة ، كان كل شيء هادئا ساكنا ، وهى مستغرقة فى نوم  
عميق . ووقف فى وسط الحجرة يحدق فى وجهها بعينين محمرتين

ذابلتين ولبث واقفا حتى خال الأرض تدور به . وخطر له خاطر فسر به دون  
أن يتدبره ، ونفذه بأسرع مما خطر له . دنا من الفراش ، ثم ارتعى عليها  
بجسمه كله كأنه يلعب حركة سويدية : واستيقظت إحسان فزعة ، وفرت  
من فيها صرخة ، وحملت في وجهه بعينين مرتعبتين ، ثم دفعته بعيدا عنها  
وقد أخذت تدرك حقيقة الحال . دفعته بغيظ وحنق ، وصاحت به :  
— أنت سكران .. كدت تقتلني .. ابعد ..

فجعل ينظر إليها بذهول ماثا عينيه من وجهها الساخط الغاضب ، ثم  
ابتسم ، ابتسم ابتسامة لا معنى لها ، أو ابتسم سرورا بما أحدث فيها من  
ألم وغيظ . وزاد حنقا وتضاعف ، وقالت بخدة :  
— كسرت أضلعي بجنونك ، فابعد عني .. أنت سكران ، لا تنم في  
هذه الحجرة ..

وظل الابتسام مرتسما على شفتيه ، ثم فرت من فيه ضحكة خفيفة ،  
ولما تضاعف غضبها أغرق في الضحك حتى زلزل كيانه ..

#### — ٣٤ —

في صباح اليوم الثاني استيقظ في ساعة متأخرة ، ونهض متعبا مصدع  
الرأس ، وكان نام ليلته على الشيزلنج ، فنظر في الفراش بعينين خائفتين ،  
ولكنه وجده خاليا ، وتذكر ليلة أمس ، فهااته الذكرى : ثم هز منكبيه  
استهانة ومضى خارجا ، والتقى بها في الصالة فطالعه بوجه مقطب فارتبك  
حيناً ، وابتسم غاضبا من بصره ، وسألها بلهجة لطيفة :  
— لا زلت غاضبة ؟

فقالت بخدة :

— السكر يجعل منك وحشا مجنونا ، لا تسكر أبدا ، شرب كأس ..  
كأسين كما تفعل شيء محتمل ، أما أن تعود بعد انتصاف الليل ثملا

تترنح وتسلك مثل ذاك السلوك الشائن فشىء لا يحتمل ..  
وانتقلا إلى حجرة السفارة ، وتناولوا فطورهما ، فى سكون بادية الأمر ،  
ثم تبادلوا بعض الكلمات ، وغادرا الحجرة فى حالة طيبة . وذهب إلى  
الوزارة قبيل الظهر ، وكان البك قد سافر إلى الإسكندرية ذلك اليوم يمضى  
بضعة أيام فى بولكللى . فجلس فى حجرتة يطالع الجرائد ، وبعد مضى  
برهة وجيزة استقبل زائرا لم يتوقع حضوره ، فتح الباب ، ورفع رأسه عن  
الجريدة ، فرأى مأمون رضوان قادما نحوه ، ولاحت الدهشة فى وجهه ،  
ثم نهض هاشا باشا ، وتصافح الصاحبان بحرارة ، وجلس مأمون وهو  
يقول :

— مبارك .. مبارك ...

فأدرك محجوب أنه يهنئه على الوظيفة ، وسر لذلك أيما سرور ،  
وقال :

— الله يبارك فيك ، حسبتك فى طنطا ..

— عدت من يومين لشئون خاصة ، وقابلت ليلة عودتى الأستاذ أحمد  
بدير فى نادى الجامعة فأنبأتني بتعيينك ، وسررت لذلك سرورا عظيما ..  
أحمد بدير .. انقبض صدره للذكر هذا الاسم الخطير ، وتساءل فى  
نفسه : ترى ماذا يعلم هذا الصحافى المحيط بفضائح المجتمع ؟ .. ماذا  
قال لمأمون رضوان ؟ . وحدهج صاحبه بنظرة عميقة ، ولكنه وجده هادئا  
صافى النظرة كالعهد به ، يشف منظره عن باطن نقى طاهر لا تقر به أخبار  
السوء . واصطنع ابتسامة وقال متسائلا :

— وكيف حال الأستاذ ؟ .. لم أقابله منذ عهد ليس بالقصير ، ولم  
يأت لتهنئتي .

فابتسم مأمون وقال :

— غابت عنك أشياء ، لقد نشر خبر تعيينك — كما قال لى — فى  
جريدته ، وهو يعتبرك مدينا له بالشكر .

وتحدثنا عن البعثة ، والوظائف الإدارية والفنية ، ومهنة التدريس فى الجامعة والمدارس الثانوية ، وانتقد مأمون النظام الجائر الذى يحرم المتخصصين الاشتغال بفنهم الذى تخصصوا فيه ، ولم يرتح محجوب إلى التهوين من شأن الوظائف الإدارية ، وقال لصاحبه : إنها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب . وكان مأمون يفهم المجد على نحو آخر ، ولكنهما أدليا بآرائهما فى يسر وتسامح وجرّ الحديث بعض الشئون الخاصة فاعترف مأمون أنه جاء إلى القاهرة لأسباب تتعلق بزواجه . وعندئذ أخبره محجوب بأنه تزوج ا. وهنأه الشاب مرة أخرى ، ودعا له بالتوفيق ، ثم قال :

— قابلت صديقنا على طه أمس ومكثت معه مدة طويلة ...

وخفق قلب محجوب لهذا الانتقال المفاجئ ، وساوره القلق ، ترى هل أدى الحديث إلى على طه كيفما اتفق ؟ أم علم على بزواجه وحدث به مأمون ؟ لم يكن من الممكن أن يظل زواجه سرا ، وكان حتما أن يعلم به على طه يوما ما ، ولكن كيف انتهى إليه ؟ وكيف فسّره ؟ ونظر إلى مأمون ، فالتقت عيناهما ، وقرأ فى العينين السوداوين الصافيتين الارتباك والريب ، فلم يعد يخالجه الشك ، أن عيني مأمون مرآة صافية لا تعرف المكر ولا الخداع ، وهما تسألانه بلسان فصيح : « أحقا ما يقال ؟ هل خنت صديقك حقا ؟ » . ولم يجد فائدة من حمل صديقه على البدء بالسؤال ، فقال متسائلا :

— وكيف حاله ؟

فقال مأمون برزانة :

— على ما يرام ..

وساد الصمت برهة ، وأطرق محجوب . لقد صدق جدسه ما فى ذلك شك . ولكن لأى مدى عرفت الحقيقة ؟. إن الذين يعرفون الحقيقة — آل إحسان والبلك والإحشيدى — لا يمكن أن ييؤحوا بها لمخلوق ،

لأن البوح بها ضار بهم . ولو عرف مأمون الحقيقة لأبى أن يزوره ، فليس من طبعه أن يتظاهر باحترام شخص يراه أهلاً لاحتقاره ، وهو ما جاءه إلا لسمع دفاعه عن تهمة صديقه — تهمة الخيانة فقط لا تهمة الزواج من فتاة صفاتها كيت وكيت طمعا في وظيفة — هذا هو الحق المبين . وقد ارتاح لمنطقه فلم يكن يعباً بحزن على ، ولا هو يعباً برأى مأمون فيه . ونظر إلى زائره بجسارته المعهودة وسأله :

— ماذا يسوؤه ؟

ولم يدر مأمون ماذا يقول ، فعرض على شفته مرتبكا ولاذ بالصمت . فضحك محبوب ضحكة فاترة كأنه يجيب نفسه :

— زواجي .

فتسائل مأمون بلهفة :

— هل حقا ... ؟

فقال محبوب باقتضاب :

— تزوجت حقا من جارتنا القديمة إحسان شحاتة تركي ..

فلاحت في وجه الآخر دهشة ممزوجة بانزعاج ، فابتسم محبوب وقال :

— ولكني لم آت نكرا ...

وقص عليه كيف فترت العلاقة بين على وإحسان حتى انقطعت ، وأكد له أنه لم يتقدم لطلب يدها إلا بعد ذلك .

وسأله مأمون بصراحته المعروفة :

— لست مسئولا عن فتور العلاقة وانقطاعها ؟

فقال له محبوب بلهجة التأكيد :

— مطلقا .

وانتهت الزيارة عقب ذلك . وشعر محبوب وهو يصافح مأمون أن الشاب يودعه الوداع الأخير ، وما أن سمع صفقة الباب وهو يغلق حتى بصق باحتقار وغضب ، وغمغم بحقد شديد « طظ » .

واستلقى بعد الغداء فى فراشه دون أن يغمض له جفن . ونامت هى كالعادة إلى جانبه فجعل يستمع إلى تنفسها المنتظم الذى ألفه . ثم استسلم لتيار أفكاره العارم الذى حرمه لذة النوم . اليوم هجره مأمون ، وبالأمس هجر هو على طه ، فانقطعت صلته بأقرب الناس إليه . ولم تكن الصداقة يوما بالشئ الذى يحرص عليه ، ولكنه يشعر بالغبرة والوحدة ، وبأنه فى واد والدنيا كلها فى واد . أجل لم يرع صداقة إنسان ، ولكن أكثر من إنسان رعى صداقته فهياً له شعور الأُنس بالناس . أما الآن فالخيوط الواهية التى تصله بالناس تنقصف واحدا إثر واحد ، ويهوى هو إلى وحدة عميقة . ومن قبل كانت غرابة آرائه سببا فيما يعتريه الحين بعد الحين من شعور الوحشة ، فلما جازف بتحقيق بعض آرائه تضاعف شعور الوحشة ، وأحس أنه فى واد والدنيا كلها فى واد ، وتساءل فى جزع : كيف يطرد سحائب الوحشة عن صدره ؟ .. ليس فى عالمه فرد واحد يوده . هؤلاء الموظفون الذين يتصل بهم لا يقرون إلا نوعا من الزمالة الإجبارية . وسالم الإخشيدى لا يبالى شيئا غير منفعتة . فأين يجد الدواء ؟ . وألقى ببصره إلى جانبه فرأى الوجه النائم ، وسمع التنفس المنتظم . أجل ، هى العزاء . وهى السلوى ، خلاصة ما بقى له من دنياه ، ولو ظفر بها ما اشتكى شيئا . وحقيقة قلقه اليوم ليست ناجمة عن قطيعة مأمون له ، بقدر ما هى ناجمة عن تذكر على طه وهواه . غدا قلبه فريسة للغيرة ، ولم يعد يؤمن بأن الأمر مجرد رفع الصمام عن خزانة البخار كما كان يحلو له أن يقول كلما سئل عن الحب أو المرأة . كان شعوره بالحاجة إلى زوجة عنيفا قويا ، فلعله كان نتيجة للشعور بالوحشة ،



أو لعله كان سببا فيه . ولم يكن — حتى فى حالته تلك — يؤمن بالحب كما عرفه على طه . ولم يعرج ببصره إلى السماء قط ، ولا حلم بالمشال والأوهام . بيد أنه شعر بحاجته إلى الفتاة كقوة مستبدة غشوم . لا تقع بمجرد بلوغ الجسد ، ولكنها تطمع فى أن تستبد كذلك برغبته وميوله وهواه ، فتكون رغبة متبادلة ، وحنينا متبادلا ، وبغير ذلك لا يمكن أن يشعر بأنه بدد الوحشة وفاز بالعزاء . هذه القوة المستبدة الغشوم تهزأ بالعقول الراجحة والنفوس المتعجرفة والفلسفات الساخرة . وابتسم ابتسامة المتهاكم وجعل يقول تبا لهذه الغيرة الحقيمة .. ما جدوى غرور هذه الحياة إذا كانت الدنيا تفقد طعمها لمجرد إغضائة من هذا الحيوان اللطيف .. ولم تخف عنه حقيقة مشاعره الجديدة . لقد قبل الزواج بادية الأمر على أنه مساومة نفعية ، وأراد أن يتغلب على وضعه الشاذ بحريته المطلقة وطموحه اللانهائى ، ولكنه يطمع الآن فى أكثر من جسد زوجه ، يطمع فى عواطفها ولو أن حظه كان جمعه بغير إحسان — الفتاة التى أحبها قديما — لربما كان الحال غير الحال .. أما إحسان فلا يملك إلا أن يحبها ؛ وقد تكدر صفوه بهذه الأفكار . رأى فيها نذيرا يهدد كيانه وحياته ، وقال لنفسه محزونا : عسى أن تكون آثار مرض وقتى أحدثته الوحشة المخيفة .

\* \* \*

وحين العصر جلسا معا فى الشرفة يشربان القهوة . ولم يكن انقطع عن أفكاره لحظة واحدة حتى بدا تعباً قلقلها . وجعل يتفرس فى وجهها بعينيه الجاحظتين حتى لاحظت ذلك ، كما لاحظت تعبها وقلقله وحدهمت أسباب ذلك ، وظنت أنها ترجع جميعا لليلة أمس . فلم تنبس بكلمة ، ولكنها ألقت عليه نظرة متسائلة . وأراد هو أن يشرح لها حالته فقال : — لم أنم ظهرا ..

فسأله وهي تتظاهر بعدم المبالاة :

— ولمه ؟ ..

ولكنه لم يجب سؤالها ، وشعر بقوة تدفعه إلى اقتحام الغموض الذي يغشاه ويحيره ، فثبت عليها عينيه وقال :

— أنت سر يجب أن أعرفه ..

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل الذي لم يكن أفاق تماما من أثر النعاس . وتمتمت :

— سر ! .

— أجل . يجدر بنا أن نتكاشف .

— نتكاشف ! ..

فلم يعباً بدهشتها وحسبها تظاهرا ، ثم قال :

— حياتك تثير في النفس أسئلة محيرة ..

فأغضت دون أن تتكلم وبدا على وجهها الوجوم ، ولكن قوة مهما بلغت من الشدة لم تكن لثنيه عما اعتزم ، فقال :

— التكاشف في حالتنا لا يقدر بشئ . ينبغي أن يفهم كلا منا صاحبه

لنستطيع أن نتعاون على ما فيه سعادة حياتنا المشتركة ، اذكرى دائما أننا شريكان ، وأن كل شيء ما خلا هذه الشركة زائل ..

فأخذت آخر رشقة من فتجان القهوة وأعادته إلى نضد بينهما دون أن تنبس بكلمة أو تبدى رغبة في الكلام . فاستطرد متسائلا بجرأته :

— لماذا فعلت ما فعلت ؟ ..

فاحمر وجهها وقالت بحدة :

— ولماذا قبلت ؟ ..

فقال بسرعة وبلهجة لينة توحى بالاعتذار :

— أنا لا أحاسبك ، ولكنى أريد أن أفهم .. لماذا ؟ .. ألم ؟ ..  
وأغلق فمه مرغما وقد تورّد وجهه ، ثم استدرك قائلا :  
— على طه ؟ ..  
وطبعته وبسرعة اللهجة الحادة الغاضبة :  
— لا محل للذكره ..  
فسألها بصوت خافت :  
— وقاسم بك ؟ ..  
وقطبت ، وجعلت تقرض ظفرها بانفعال ، ثم قالت بحدة :  
— حملنى على معرفته ما حملك على قبول هذا الزواج ..  
وأحس ارتياحا لهذا الجواب ، وقال بلين :  
— لا تغضبى . أنا لا أحاسبك كما قلت لك ، بيد أنى أريد أن  
أعرف ، ألا .. أعنى هل .. ، أعنى قلبك : أجل قلبك ! ..  
— قلبى ! .. إن هذا التكاشف لن ينتهى بشيء ، أو هو لن ينتهى  
بخير . قلبى ! .. عم تتساءل ؟ .. ألسنا ... سعداء !  
— بلى .. بلى ..  
قال ذلك بسرعة ، وتفكر مليا . ثم سألها بجرأة عجيبة :  
— وإذا منعك عن البك ؟ ..  
فنفخت باستياء ، وقالت :  
— أطيع زوجى ..  
وشعر بما فى إجابتها من تهكم فأدماه جرح عميق ، وتساءل عما  
جنّاه من تحقيقه الجرىء . فوجد نفسه حيث بدأ فى حيرة وقلق ، وأدرك أن  
على طه لا يزال مبعث غضبه وحنقه .. « لا محل للذكره » ما معنى هذا ،  
وقد قالتها بغضب !  
غضب لحالة التدهور العامة التى انتابته ، لماذا لا يقاتل هذه العواطف

الخبیثة حتى یقتلها ؟ أیستسلم لما یستسلم له الحمقى من بنى آدم ١٩ ..  
فلتحب على طه أو فلتحب قاسم بك . ولیأت البك كل ليلة إذا أراد ،  
ولیلقین كل ذلك بما هو فوق طاقة البشر من الاستهانة والعبث . هذه هى  
مسألته بلا زیادة ولا نقصان . یبد أن طموحه لا یجوز أن یقف عند حد :  
لكل داء دواء ، ودواء العزلة التى یعانيها المجد والخمر ! یسطى علیه  
فینبغى أن یسطو على الناس ! . وغداً یلتمس بیوت الفجور وبعشق النساء  
ألوانا ! . فإذا انكشف سر زوجه یوما طمع أن یقال : إن زوجها أفسدها  
باستهتاره ، وإنه شاب فاجر لا شیء آخر ! . وتنهى فى شبه ارتیاح لما انتهى  
إلیه تفكيره ، غیر أنه لم یطمئن إلى الارتیاح طویلاً . ذكر — متجهما — أنه  
یخاف الناس دائماً ، وأنه یخافهم أكثر مما ینبغى ، وأنه یخافهم على  
الخصوص خلاف ما تقضى به فلسفته ، فقیم التخیط والحیرة ١٩ ومتى  
یلغ بحیاته أقصى الكمال الذى ینشد ٢ ..

### — ٣٦ —

ولم یعد لمثل ذلك الحدیث مرة أخرى ، وبذل قصاراه فى تجنب  
ما یعكر الضفر ویلبلل المخاطر . وكان إذا قاتل عن سعاده قاتل بعنف  
ویأس غیر مبق على شیء . وإذا كانت الحیاة الزوجیة لم تنح له ، فقد قام  
بلوره خیر قیام ، كما یقوم الممثل بلوره خیر قیام حتى لینسى نفسه  
فیضحك حقاً ویبکی حقاً . ظهراً أمام الناس كزوجین سعیدين ، فلم تعوز  
أحدهما الرغبة فى التوفیق والتلهف على السعادة ، أما حین یشران جفوة  
أو برودة فكأس أو كأسان یصلحان ما یوشك أن یفسد . وقد صدق عزمه  
على أن یشغل وقته كله بحیاته الجدیة حتى لا تجد الوسوس فرجة إلى  
قلبه . وكات وظیفته تستغرق جل نهاره ، ففكر أن یقتحم الحیاة

الاجتماعية التي بدأها بزيارة آل حمديس — ليشغل ما يبقى من وقته ، .  
وليحبنى من متع مظاهرها ما تجود به على مثله . وحادث في ذلك  
إحسان ، وانتهاز فرصة سانحة يوما فقال لها :  
— عرفت جماعة من صفوة الموظفين الشباب وبعض الأعيان وقد  
دعاني أحدهم — دعانا معا — إلى حفل سيقيمه لعيد ميلاد ابنه ، فقبلت  
الدعوة بسرور .. !

فرفعت عينيهما الدعجاوين ولم تدر ماذا تقول ، فعاد يقول بحماس :  
— لا ينبغي أن نقبع في دارنا ، انظري إلى الإخشيدى كيف يعرف  
وجوه المجتمع العالى جميعا ، وكيف تدعم هاتيك الصلات بنيان حياته  
وأسس مستقبله ؟

وكانت في أعماقها تنوق إلى التسلية والعزاء والسرور ، وترغب في أن  
ترى وأن تعرف وأن تتناسى ، فرحبت بالاقترح ، وقالت وقد سبقتها  
ابتسامتها إلى الموافقة :  
— لنذهب ..

فسر الشاب ، كان يهوى دائما أن تشاركه اهتمامه وآماله . وكان يشعر  
دائما بغريزته بأنه إن نجح في جذبها إلى محيط أطماعه فقد ضمن فوزا  
عظيما . لذلك سر ، وقال :

— إن مقتحم هذه الحياة البديعة كالرحالة الجسور لا يمكن أن يعود  
خالى اليدين .. وإن لى من وظيفتى لمركزا ممتازا ، وإن لك من جمالك  
لمكانة سامية ..

وذهبا معا إلى حفل الميلاد . وأحدثت إحسان بجمالها الفاتن أثرا بالغا  
واستعان محجوب بجسارته على تمثيل دوره ، ولم يعجز عن خلق الفرصة  
المناسبة لإعلان قرابته بأحمد بك حمديس . وعاد وقد ظفرت إحسان  
بإيجاب شاب وجيه يدعى على عفت ، وقد دعاهما الشاب بعد يومين إلى  
بنوار بمسرح الفانتزيو ..

وتقضت الأيام الباقية من بولية في حياة مرحلة حارة ، فارتادا السينما  
والصالات الصيفية . ودعى هو إلى البوديجا وجروبي وصولت . وأفضى  
بسروره يوما إلى الإخشيدى ، فقال وهو يمط بوزه استهانة :  
— الطبقة العالية الآن خارج القطر . وستعود الحياة الحقيقية إلى  
القاهرة في أواسط أكتوبر ..

وقد هاله الأمر ، ولكنه قنع بمعارفه الجدد ، ولعلمهم أن يكونوا أدنى  
إليه — أو لعله أن يكون أدنى إليهم — من أولئك السائحين في بطون  
القارات الحية . بيد أن أمرا واحدا أزعجه ، هو تكاليف هذه الحياة المرحلة  
الممتعة . هذه الحياة تفرض عليه العناية بلباسه كالنساء سواء بسواء ، وأن  
يقتنى الأنواع النفيسة ، ويختار الألوان الجميلة : مع ملاحظة الوفرة حتى  
لا تقع العين الناقدة على شيء واحد مرتين . ولم يلق بين أولئك الشبان من  
يتحدث عن العروبة ، ولا من يناقش الاشتراكية أو أجست كونت . ومن  
بينهم جامعيون كثيرون ولكنهم متأقلمون ، فلا كلمة واحدة تذكر بحدائق  
الأورمان أو دار الطلبة . ووجد نفسه يهوى إلى التدخين ومشاهدة ألعاب  
القمار .

ولكن كيف يواجه هذه الحياة بمرتب الصغير ١٢٠٠ . أجل إن قاسم بك  
يقوم بنفقات البيت والزوجة ١ ولكن تبقى وجوه إنفاقه هو ، وهي تتسع يوما  
بعد يوم وتتنوع ساعة بعد ساعة ١ . وقد تفكر في ذلك طويلا ثم قال  
لنفسه : « أمثالي يرتقون سريعا في الحكومة ، فلا يجوز أن أتخلف  
عنهم ! » .

\* \* \*

وطابت حياة المجتمع لإحسان . استهوتها بما فيها من تسلية ومرح  
وفرص للظهور والمباهاة واستثمارات للإعجاب . وجذبت اهتمامها نحو  
أمور جديدة فبشت في حياتها روح العناية والحماس ، وأنقذتها من تأما  
حياتها — ماضيها وحاضرها ومستقبلها — والاستسلام للفكر .

سرورها ما صادفها من نجاح ووداد . وكان قاسم بك فهمى مغرما بها غراما جنونيا ملك عليه نفسه ، فجرى وراء هواها غير عابىء بمركزه أو أسرته أو أبنائه . وأنفق عليها عن سعة حتى صارت زينة كل مجلس بفضل جمالها ولباسها . تلك حياة ، أما القبوع فى البيت تنتظر أحد رجليها فهو فوق ما تحتمل . بيد أنها رغم كل ذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل شأن فتاة خلا من الحب قلبها . لم تكن تحب البك ، ولم يعد لسحره العجيب من سلطان عليها ، والأرجح أن سحره زال منذ آنست غدره . ولعلها انطوت له عن موجدة وحقد ، إلا أنها حرصت عليه حتى لا تذهب « تضحيتها » هباء . وكانت فتاة ذات طبيعة عملية فأودعت الماضى مدارج النسيان ، وولته ظهرها ، غير عابئة بغمزه على قلبها الحين بعد الحين ! فالماضى المولى ورمزه الجميل — على طه — شيان لا يعودان . وركزت اهتمامها فى زوجها ، فهو شريك حياتها ، وهو قرين حاضرها ومستقبلها ، وقد استأدته الحياة — مثلها — تضحية فظيعة ! وإنه ليهدف — مثلها — أيضا — إلى غاية واحدة ، ثم إنه بعد هذا وذاك شاب يمكن أن يحب ، وأن يهب الحياة الزوجية السعيدة ، فكانت تشجع محاولاته فى سبيل سعادتهما المشتركة ، تشاربه وتبادل القبلات وترجو أن ينتهى التمثيل بحياة حقيقية ، ولو كان مزاج إحسان حيوانيا بحثا لبلغت ما تحب من سعادة ، ولكن ما زال قلبها منشوقا إلى حنان ومودة لا يجدهما فيما يتيح لها حياتها من لذة وترف . لذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل ، وكلما ألح عليها هذا الشعور تمادت فى التهالك على حياة المرح والترف حتى فاقت زوجها فى طموحه .

وكانت تغادر بيتها عادة كل صباح عقب خروج زوجها إلى عمله ، إذ كانت تضرر للبيت نفورا جعلها أعجز من أن تستطيع البقاء فيه بمفردها . وكانت المحال التجارية الكبرى هدفها المختار ، تنتقل بين معارضها ، وتضرب فى طرقاتها المزدحمة ، وربما ابتاعت حاجة مما يلزمها ، غير

ملقبة بالا إلى الشبان الذين قد يتعرضون لمغازلتها . وما حاجتها إلى رجل جديد وفي بيتها رجلان ؟ .. فضلا عن ذلك فقلبها كان يحدثها دائما بأنها ستألف زوجها يوما ما وتحبه وتخلص من حيرتها جميعا . أما إذا تمكن منها الملل وأدركتها السآمة فربما خرجت عن حكمتها ، وذكرت مثالب حياتها — والديها وزلتها وحياتها الراهنة — فاجتاحتها موجة تمرد ثائرة وحديثها نفسها بالجري وراء اللذة . حتى قرارة بؤرتها ، ولكنها لم تفعل . كما أنها لم تتخذ قرارا نهائيا كما فعل محبوب في مثل ظروفها تلك : كانت تتسكع كل صباح كالمتعطلين وربما استقلت الترام أو الأوتوبس إلى بعض النواحي النائية ذهابا وإيابا . وعلمت يوما أن إحدى صديقاتها ستنتقل يوما مع زوجها إلى مفوضية روما . فأثر فيها الخبر تأثيرا عجبيا ، وتمنت لو تستطيع أن تجوب بلدان الأرض جميعا . فما أجدر مثل هذه الحياة النشيطة أن تنسى كل ذي هم همه ، وأن تسدل على تفاهة الحياة ستارا كثيفا . وقالت لمحبوب وكان قد علم الخبر :

— ما أمتع أن يسافر الإنسان إلى روما !..

فسألها بدهشة :

— هل ترغيبين في السفر حقا ؟

— أجل .. لم لا ؟

فقال وقد ابتسمت شفتاه :

— والبلد ؟

— عسى أن يكرمنى بهذه الخدمة فيما بعد ..

وأدرك ما تعنيه بقولها « فيما بعد » ، فهز كتفيه وقال :

— إذا . فتر هواه يوما فلن يفعل شيئا مطلقا ..

والتقت عيناهما في نظرة ذات معنى ، وأراد أن يستغل الفرصة السانحة أبعد استغلال فقال :

— إنه الآن يذعن لرغباتك فلا تفلتن من بين يديك هذه الفرصة



الجميلة . الفرصة السعيدة لا تسنح فى عمر مرتين : تناسى هذه الرغبة الفجائية فى السفر فهي رغبة خيالية ، واعلمى أنك إذا فقدت حبه يوما فستلقى الحياة عابسة متجهمة . إذا لم نحسن الاستفادة من ظروفنا فسنضطر غداً إلى مغادرة حينا هذا إلى حى فقير . وليغلقن المجتمع الراقى أبوابه فى وجوهنا ، ولنكونن أضحوكة المتندرين ، فينبغى أن نحتسب للمستقبل البعيد ..

وتفكر فى كلامه قليلا فوجد أنه يتكلم كما يتكلم القوادون يسر وبسر مبالاة . وسر لمقدرته ، وعجدها فوزا مينا لفلسفته وإرادته . وتفكرت إحسان فى كلامه طويلا ، فلم تلبث أن اقتنعت بما فيه من حكمة وبعد نظر ..

### — ٣٧ —

وجاء أول أغسطس ، وقبض أول مرتب له من الحكومة ، وهو مرتب لم يكن ليحلم به أيام الجوع ، فمن عجب حقا أنه لم يسر به ! . توزعته المطاعم وتعددت رغائبه فباتت حياته كالنار لا تشبع ولا تقنع . وذكره المرتب بوالديه اللذين ينتظران على لهفة نصيبهما من مرتبه ، لا شك أن مكافأة والده نفذت ، ولعله يبيع الآن أثاث البيت كما فعل هو فى فبراير الماضى ، وسيعجز حتما عن أداء إيجارة المسكن ، وربما وجد والده نفسيهما بلا ماوى وبلا طعام . ما عسى أن يفعل ؟

كان حكيما بلا ريب حين قرر أن يخفى عن والده تعيينه ، وقد احتاط للأمر فرجا الإخشيدى ألا يذيع الخبر فى القناطر حتى لا يعلم به أحد قبل الوقت المناسب ، ولكن متى يجيء الوقت المناسب ؟ . إن مرتبه لا يفى بتكاليف هذه الحياة الراقية ، فهو يدرك قصوره عن الظهور كما ينبغى ، فإذا تنازل لوالديه عن جنيهين أو ثلاثة اختل ميزانه وافتضح أمره وانهارت

آماله ! فكيف يواجه هذه الصعاب ؟ وتولاه الغضب كان دأبه الغضب إذا تحير أو ارتبك ، كأنما يعتقد في قرارة نفسه أن لا شيء يستحق الحيرة أو الارتباك ، ولكنه ذكر على رغمه والديه ، وتمائلت له صورتها ، أبوه على فراش المرض — ولم تحرك هذه الصورة نفسه إلا بقدر يسير — وصورة أمه بعينيها الضعيفتين وصمتها الرهيب وإيمانها العميق به وبمستقبله ، وقد حاول أن يهرب منها أو يطردها عن مخيلته فلم يفلح ، فأجمع على أن يقهر ما توقظه في نفسه من عاطفة بقوة وصرامة . لم يكن حبه والديه دافعه الأول إلى التفكير فيهما ، ولكن شعوره بالتبعية نحوهما كان الدافع ، وفطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء ، فكانت من أسباب مضاعفة غضبه . ألا يزال يعلق بنفسه شيء من الأوهام ؟ ما البتة ؟ أليست عادة سخيفة لاحقة بظاهرة الأسرة ؟ بلى ، وسيكفر بها كما كفر بأخوات لها من قبل ، ولن يراعى إلا ذاته ومجده ولذته .. وتساءل لماذا يعيشان ؟ وما فائدتهما في هذه الحياة ؟ وما معنى الحياة لهما ؟ لماذا لا يموتان فيستريحان ويريحان ؟ البر بالوالدين شر إذا عاق سعادة الابن ، بل كل ما يعود سعادة الفرد شر . هذا واضح بين ، وهو يؤمن به إيمانا عميقا ، ولكن ماذا هو فاعل ؟ أيقطع كل صلة له بالقناطر ويترك والديه يلاقيان مصيرهما وحدهما ؟ وكيف يدبر لهما النقود التي يحتاجان إليها ؟ الواقع أنه لا يستطيع الإنفاق عليهما . والظاهر أنه لا يستطيع كذلك أن ينساهما !

\* \* \*

وظل مغتما متفكرا حتى غادر الوزارة ، ولم يكن بث في الأمر برأى وإن كان شعوره بأنانيته لا يغلب . وعند شارع قصر العيني التقى بالأستاذ أحمد بدير خارجا من إدارة الجريدة ، وتصافحا بحرارة ، وما لبث أن عاوده شعور الخوف الذي ينتابه كلما ذكر هذا الصديق المخيف . ومشيا جنبا

إلى جنب يتحادثان كعادتهما القديمة فى طريق الجامعة وحديقة الأورمان . وسأله الشاب الصحافى عن حاله وعن عمله وعن قاسم بك ، وحدثه عن مشاق حياته الصحافية . وكأنما أراد محجوب أن يجمله فقال :

— الصحافة فن خطير ، والوظيفة الحكومية بالنسبة إليها لهو ولعب .. فقال أحمد بدير بسرور :

— صدقت أيها الصديق العزيز ، ولذلك فإنه يدهشنى أن يزهد شاب مثلنا فى العمل الحكومى ويهجر وظيفة محترمة ليجاهد فى ميدان الصحافة ..

فلاح التساؤل فى وجه محجوب وتمتم :

— حقا ١٢

— أجل . هو صديقنا الأستاذ على طه ..

وقلقت عيناه الجاحظتان ، ولاحت فيهما نظرة متجهمة ، ثم داراها بالدهشة وقال متعجبا :

— على طه 1

فقال أحمد بدير :

— إنه شاب جسور مثالى ، فسرعان ما ضاق ذرعا بمكتبة الجامعة ، واتفق مع بعض زملائنا على إصدار مجلة أسبوعية للدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى ..

— والماجستير ؟

فقال أحمد بدير :

— قال لى : لنضع البحث للباحثين ، ولنركز همنا فيما هو أجل ، وليكن جهادنا كله لمصر وكيف تحول من أمة عبيد إلى أمة من الأحرار .. فتفكر محجوب عبد الدائم مليا دون أن يبدو على وجهه شيء ، ثم

قال :

— الواقع أن الأستاذ على طه ذو طبيعة عملية ، فهو لا يصلح للتفكير العلمى النظرى ..

فلحظه الصحافى بنظرة حادة ، وقال :

— هذا لا يعيبه . الطبيعتان على اختلافهما جليلتان . والحق أن صديقنا شاب مخلص متحمس ، ولقد ركل الحياة المظلمة ليدعو إلى مثله العليا على ما فى ذلك من مشقة وخطورة ، فليست مبادئنا بالمدادى التى يأمن معها الصحافى على نفسه ، وربما تعرض لسفاهة السفهاء ، وتهجم الجهلاء المتعصبين ، وربما سيق إلى ما هو أخطر من ذلك جميعا ، ما عسى أن ينتظر من يدعو إلى الإيمان بالعلم والمجتمع والاشتراكية ؟

ولم يجب محجوب ، ولكنه تساءل :

— وهل صدرت المجلة ؟

— تصدر فى أوائل هذا الشهر .

فقال محجوب بعد تردد :

— وكيف جاء بالمال اللازم لمثل هذا المشروع ؟

— أعطاه والده مائة جنيه ..

فتساءل محجوب كالساخر :

— وهل يؤمن ذلك الوالد الموسر بالاشتراكية ؟

فضحك بدير وقال :

— لعل الرجل يعد مشروع المجلة عملا تجاريا ، فأعانه بما فى وسعه وهو وشأنه بعد ذلك ..

فهز محجوب رأسه وقال بلهجة لا تخلو من الاحتقار :

— طالما حدثنا على طه فى دار الطلبة عن مبادئه ، والحديث لون من ألوان السمر الجميل . أما أن يهجر الإنسان عمله ، ويتخذ من الحديث

عن مبادئه عملا قد يؤدي به إلى غيابات السجون فسلوك أقل ما يقال فيه إنه جنون ، وما صاحبنا بمجنون ، فكيف فعل هذا ؟ .. انظر إلى صاحبنا مأمون رضوان ! . وكيف حدثنا طويلا عن الإسلام ؟ .. ثم انظر إليه وقد جمع لمسفر إلى باريس ليتأهل لوظيفة الأستاذية العظيمة .. هذا شاب حكيم ..

فقال بدير بسرعة وبلهجة نمت عن الدهشة :  
— مأمون رضوان شاب مخلص أيضا . وأؤكد لك أنه سيتم تعلمه بتفوق كالعهد به ، وأنه سيكون إماما من أئمة المسلمين هذا أمر لا شك فيه ..

— أو فيه شك كبير ..  
فhez بدير منكبيه ، ولكنه لم يجادل صاحبه لأنهما كانا اقتريا من ميدان الإسماعيلية حيث ينبغي أن يفارقه ، واكتفى بأن قال :  
— لقد عقد الأستاذ مأمون بالأمس زواجه ، وسيسافر الزوجان إلى الخارج في نهاية هذا الشهر ..

ها هي ذى المخطوط الأولى لهذه الحيات المتناثرة ترسم في صحيفة الدنيا الواسعة ، ولا يدري أحد كيف تصير في الغد القريب أو البعيد ، ولا ماذا ينتظر أصحابها من حظوظ ومقادير ، وكل ما يدريه أن حياة أي منهم يمكن أن يذيعها راوية كأحمد بدير إلا حياته ، فإنها إذا ذاعت على حقيقتها اعتبرت فضيحة ! . وما يعنيه ذلك في كثير أو قليل ، ولكن ينبغي أن يخاف سوء العاقبة ، كما ينبغي لعامل يعيش بين حمقى ومجانين ! ولم يستطع أن يستشعر الطمأنينة ، ولا أن يستهين بالكآبة التي تولته . ومن عجب أنه وعلى طه تقيضان ، ومع ذلك فلا يبعد أن يقذف بهما المجتمع إلى أعماق السجون غير مفرق بين عابده والكافر به ! .. وبلغا الميدان . وسمعا باعة الجرائد ينادون عليها منوهين باجتماع حزب الحكومة . وتذكر الأستاذ بدير أمرا فقال وهو يصافح صاحبه مودعا :

— على فكرة . لقد فقد رئيس الحكومة عطف السراى ا  
فاضطرب محجوب ، وذكر أن قاسم بك فهمى من رجال العهد  
الحاضر المعروفين وتساءل :  
— والإنجليز ؟

فمط الشاب بوزه وقال :  
— قلب المندوب السامى قُلب ..  
وافترق الشابان : واتجه محجوب إلى شارع سليمان باشا متجهما  
مكتعبا . ولكن أنقذه هذا الاضطراب الجديد من الحيرة التى لازمته منذ  
قبض مرتبه ، ولم يعد إزاء الخطر المائل يتردد فى الحكم على والديه ،  
فكانا أولى ضحايا الأزمة السياسية ..

#### — ٣٨ —

ونقل الخبر إلى زوجه ، فكان حديثهما على المائدة ، وفى الشرفة ،  
وتساءلا معا : هل يبقى قاسم فهمى أو يذهب بذهاب الحكم ؟ . وكان  
البك من رجال العهد القائم المعروفين بعداوتهم الحزبية ، فلم يكن ثمة أمل  
فى بقائه إذا استقالت الوزارة ، وقال محجوب :  
— إذا أحيل البك إلى المعاش نقلت حتما إلى وظيفة مغمورة — إن لم  
يقذف بى إلى أقاصى الريف — وفقدت آمالى البعيدة إن لم أفقد وظيفتى  
نفسها ..

أكان كافح ما كافح ليجنى هذه النهاية المحزنة ؟ أهذه خاتمة  
الجسنة والمغامرة والاستهانة بكل شىء ؟ .. لقد امتلأ غما وكمدا ، وجعل  
ينظر إلى زوجه بعينين مظلمتين لا تريان شيئا . ولم تكن إحسان دونه غما  
أو كمدا . فكُرت مثله فيما يمكن أن يتكشف عنه الغد ، وتباخيل لعينيها  
المصير المنتظر . لم يعنها كثيرا فقدان الآمال البعيدة ، ولكن كربها  
تزعزع الطمأنينة الحاضرة . هل تحرم هذه الحياة الناعمة الراغبة ؟ .. هل

ينضب النبع الذى يروى أسرتها العطشى ؟ لتجد نفسها يوما فى إحدى مدن الريف ربة لبيت باهت تقف حياتها على خدمته ورعاية صاحبه ؟ . هذه الخواطر بالأحلام المزعجة أشبه . ولم تدر كيف تواجهها غدا إذا صارت حقائق واقعة ١ . ولكن الظاهر أن المخبر كان سابقا لأوانه ، ولم يجدا صدى فى الجرائد التي عكفا على قراءتها بعناية . وأكد لهما كثيرون من الأصدقاء أنه لم يثن الأوان بعد . وتتابع أيام أغسطس فى هدوء حتى ألفا الطمأنينة مرة أخرى ، بل عاد محبوب يذكر والديه ويتساءل عما ينبغى أن يصنع بهما . وكان هذه المرة ذا عزيمة صادقة فكتب خطابا لأبيه يعرب له عن أسفه لعجزه عن معاونته ، وذكر له أنه لا ينى عن البحث عن عمل ، ووعده بفرج قريب ، وقال لنفسه ، يسكن خاطرها : إن الرجل يستطيع أن يصبر شهرا آخر أو شهرين حتى يدركه بالمعونة فى ظروف أنسب ؟ .. ولكن الطمأنينة لم تدم . وبعث المخبر الذى أعلنه أحمد بدير أول الشهر من جديد . وتطايرت الإشاعات حتى ملأت الجو . وبات الأفق ينذر بشر مستطير . وعاد الزوجان إلى أفكارهما ، وساورتهم المخاوف . وقد قابل محبوب مديره سالم الإخشيدى فى مكتبه يوما ليسأله عما هنالك ؟ ووجده كما عهدته دائما هادئا رزينا . ولكنه لم يتأثر بهدوئه ولا برزاقته لأنه يعلم حق العلم أنه لا يخرج عنهما حتى فى أخرج الأوقات . ورفع إليه الرجل عينيه المستديرتين متسائلا ، فسأله الشاب وقد ظل واقفا :

— ما حقيقة هذه الإشاعات التى تتناقلها الألسن ؟

فسأله الإخشيدى بصوت لم يفقد أية رنة من رنات الرئاسة :

— أية إشاعات ؟

— سقوط الوزارة . ماذا وراء الأكمة ؟ .

فابتسم الإخشيدى وقال :

— وراء الأكمة ما وراءها ١ .

بـ هل حقا يمكن أن يزول هذا العهد ؟

فقال الإخشيدى وقد تملكته رغبة عابثة فى تعذيبه :

— كل شىء زائل ..

فملأه بروده حنقا وغيظا حتى اضطر إلى مداراتهما بالابتسام وقال :

— سعادتك تعلم أشياء وأشياء بلا ريب ..

وأبت عليه نفسه أن يقول إنه لا يعلم شيئا ، فابتسم ابتسامة غامضة

وقال بثقة :

— انتظر . إن غداً لناظره قريب ..

— أما من كلمة مطمئنة ؟

وعاودته الرغبة فى تعذيبه فسأله متجاهلا :

— ماذا يخيفك ؟

فاتسعت عينا الشاب الجاحظتان دهشة ورفع حاجبيه ، ثم قال :

— ما أجمل أسوان فى أغسطس !

فhez الإخشيدى كتفيه استهانة وقال :

— كل مكان ينبت العز طيب .

— الإشاعات صادقة إذن ...

فصمت الإخشيدى لحظة متقيا عن إجابة لا تكشف جهله غدا أو

بعد غد ، ثم قال :

— لا يعلم أحد حتى هذه اللحظة ، أما بعد ذلك فالسياسة مجنونة ..

وعاد إلى حجرته مغيظا محنقا يقول لنفسه : « ابن الست أم سالم يريد

أن يوهمنى بأنه سياسى داهية ، تبا له ! » .

وعند الظهر ملأت الوزارة إشاعة بأن الوزارة قدمت استقالتها بالفعل ،

وقال قائل : إنه اتصل ببولكلى بالتليفون فأكد له الخبر . وعمت الموظفين

حركة عنيفة لا تظهر إلا إبان الاستقالات ، فانطلقوا فى الردهات يتحدثون

بأصوات مرتفعة عن الوزراء الجدد . واضطرب الشباب أيما اضطراب ولاح



فى عينية الوجوم . وجاءه الساعى وأخبره بأن قاسم بك غادر الوزارة ، فاتصل بالإخشيدي بالتليفون وسأله عن الجهة التى ذهب إليها البك ، فأجابه بأنه لا يدرى . ونحاطب — بالتليفون — جمهرة من صحبه فى الوزارات المختلفة وتلقى الإجابات : ماذا عندك من الأخبار يا فلان ؟ — الحالة حرجة ، ما آخر الأخبار يا أستاذ ؟ قطران ، هل من جديد يا فلان ؟ — ضربوا الأعور على عينه ، أسمعت الإشاعات الغربية يا عزيزى ؟ — عن الوزارة ؟ إلى الجحيم يا سيدى ! وهكذا حتى أيقن أن الوزارة فى النزاع الأخير . ورن جرس تليفونه ، وإذا بالمتكلم إحسان زوجه فأوجس خيفة :

— هل جاءك النبأ ؟

— الوزارة ؟

— نعم . استقالت ..

— كيف علمت هذا ؟ ..

— ملحق الجرائد ..

— إذا ..

— إننى أكلمك لأطمئنك .

— كيف ؟ .. هذا كلام غير معقول ..

— بل معقول جدا . سأحدثك بالتفصيل عند عودتك ، اعلم الآن أن

البك قال لى إن الوزارة ستغير ، أما العهد فباق كما كان ..

— أمتأكدة أنت ؟

— ولدى أخبار تسرك غير هذه ستعلمها حين عودتك ..

وأغلقت التليفون فنهض الشاب من فوره وغادر الحجرة . وفى الطريق سمع باعة الصحف ينادون بأعلى أصواتهم على استقالة الوزارة ، وانس الاهتمام والسرور بجريان مع الهواء فى كل مكان . ذهب الطاغية ، غار

سفاك الدماء . وانفك حبل الاستبداد عن أعناق المصريين أو كاد . لم يشاركه أحد سروره ، ولولا ما بشرته به زوجته لانتحب باكيا . ووجد إحسان في انتظاره ، فاستقبلته بابتسامة عذبة ، وأقبلت عليه تحدّثه بما عندها من أخبار ، وأعادت على مسمعيه ما قالته في التليفون ، ثم سأله :

— أتدرى من وزيرك الجديد ؟

فسألها متعجبا :

— من ؟

— قاسم بك فهمي ..

رمقها بنظرة ذاهلة وقد تورد وجهه ، وسألها :

— أقال لك هذا ؟

— أجل ..

غمره شعور ارتياح وسرور ، ولكنه لم يطمئن به طويلا ، وما لبث أن نتف حاجبه الأيسر وهو يقول :

— وزيرا ... ليت ظل كما كان .. الوزارة تقليد لا تخليد ، فمن لنا غدا ؟ ..

ولكن ربه لم يؤثر فيها ، فقد خالت إن الوزارة آلت إليها هي ، وقالت بإنكار :

— إنه الوزير ، ألا تفهم ؟ ..

— بلى يا عزيزتى ، هي فرصة سعيدة ، بيد أن الوزارة قصيرة الأجل كالأحلام السعيدة ، وسيستقيل غدا أو بعد غد ، ونجد أنفسنا بلا نصير ، أو تحت رحمة أعداء لا يرحمون ... !

فلم تحر جوابا ، ومضت تنتقل إليها عدوى القلق حتى لعنته في سرها وجعل الشاب يزن الأمور واحتمالاتها بفكر سريع نافذ . ثم قال :

— هذه هي فرصتنا الأخيرة ، فإما نحسن انتهازها فنحن في عيشة راضية ، وإما ندعها تفلت من أيدينا فالعاقبة الهوان .

والتقت عيناها ، وأدركت ما يرمى إليه ، ولكنها انتظرت حتى يفصح عن رأيه . واستدرك محبوب قائلاً :

— إذا استقال ونحن في مركز « معقول » فلن نأسف على ذهابه ... !

واستأنف الكلام بعد صمت قليل :

— ينبغي أن ألحق بمكتبه ..

... سكرتيراً له ؟

فهز رأسه كأنه يقول : « هذا لا طائل تحته » واستدرك :

— سكرتيه درجة سادسة فلا فائدة فيها ، أما مدير مكتبه فدرجة

رابعة !

— أيمكن القفز من السادسة إلى الرابعة ؟

— يمكن ترقيتي إلى الخامسة خصماً على الرابعة ، وفي الكادر

تأويلات تتسع لكل شيء ، فما رأيك ؟

وعضت على شفتيها لتخفي ابتسامة خيلاء ، وكانت تدرك أن أية درجة

يرقى إليها فكأنما ترقى إليها هي ، ولم يداخلها شك في أن الدرجة الرابعة

المرجوة تستطيع أن تحتفظ لها بمستوى الحياة الذي تتمتع به الآن ،

فبادلته شعوره بإخلاص ، وتمتمت قائلة بصوت خفيض :

— لا أظنه يرفض لي رجاء ...

فقال بحماس وإيمان :

— همتك ، همتك يا بطلة ! فعلى نتيجة سعيك يتوقف مصيرنا .

وفي صباح اليوم الثاني تناول الأهرام باهتمام ، ونظر في الصفحة

الأولى ، فجرى بصره على عمود من الصور ، صور الوزراء الجدد . ووجد

في وسطه مبتغاه ، صورة قاسم بك فهمي ، فاستقرت عليها عيناه ، وتنهد

من الأعماق . ترى هل يتحقق هذا الأمل ... ! هل تستطيع قبله أو رنوة أو

تنهدة أن تنقله من حال إلى حال ، وأن تدفعه من طبقة إلى طبقة ؟

ومضت أيام قلائل وجعل الوزير الجديد إقامته فى القاهرة — لا فى بولكى — لجمالة ريو يعانيتها منذ سنوات . وفى اليوم الرابع لتوليه الوزارة علم محجوب أنه قد استقر رأى على اختياره لوظيفة مدير المكتب . استقبلته إحسان بابتسامة وقالت بخيلاء « مبارك .. » فاهتز فؤاده سرورا ، واضطرب اضطراب المفاجأة كأنه لم يركز كل اهتمامه فى هذا الأمل طوال الأيام الأربعة الماضية . صار الأمل حقيقة رائعة . وسيصبح من كبار الموظفين . ليست الدرجة الخامسة بالحظ الذى يستهان به ، فما بالك إذا كانت خطوة قصيرة إلى الرابعة ١٩ وتخايلت الرابعة لعينيه مرسومة بالفاظ واضحة ، ثم تحولت إلى صور ذهنية على هيئة كرسى كبير ، وأسطح بالكرسى سعاة ، ومثل أمامه خلق كثيرون من جميع الطبقات . ولم ير نفسه وهو يتخيل هذا المجد وإلا لسخر منه كعادته ، فقد قطب متكبيرا وألقى على ما أمامه نظرة مرتفعة من رأس شامخ . ولذ له فى تلك الساعة أن يفر صفحات الماضى القريب : لياالى فبراير ، دكان الفول بميدان الجيزة ، رحلة الأهرام ، تردده بين الجيزة وشارع الفسسطاط والإخشيدى مادا يده بالسؤال ، زواجه ، ثم هذه النهاية !... ولاح له رأسه المفعم جسارة وفلسفة كمصباح يهذى سواء السبيل ، قطاب نفسا ، وفرك يديه حبورا .

وذهب إلى الوزارة مبكرا فى اليوم الثانى . وجلس إلى مكتبه الذى يوشك أن يهجره ، وقد بدا لعينيه حقيرا ، ولكنه لم يكن أول المبكرين . فتح الباب وبدا عند عتبه الأستاذ سالم الإخشيدى !... وانقبض صدره انقباضا لم يبد على وجهه بطبيعة الحال ، ووقف مبتسما يستقبل القادم

وهو يتساءل في نفسه ما الذى دعاه إلى التنازل عن كبريائه والقدوم إلى مكتبه ؟ ١. ومد له يده بسرور وهو يقول :

— أهلا بسعادة البك . تفضل بالجلوس ١.

وجلسا معا . وجاد الإخشيدى بابتسامة من ابتساماته النادرة ، وتكلم كلاما عاما عن الوزارة الجديدة ، والبك الذى ينتظر أن يخلف قاسم بك ثم قال بهدوئه المعهود :

— لدى ما أحب أن أكاشفك به ، وقد أمرت ساعيك بأن لا يأذن لأحد بالدخول ..

وحدث الشاب ما يريد قوله ، وأحس استياء وحنقا ، ولكنه قال بلهجته الدالة على الترحيب والسرور :

— حسنا فعلت ، وهأنذا رهن أمرك ..

فصوب الإخشيدى نحوه عينيه المستديرتين وقال :

— الأمر جد خطير ما دام يتعلق بمستقبلنا ، وسنجنى من ورائه نفعا مؤكدا متبادلا . ولكنى أحب أن أسألك سوألا قبل كل شيء : ألم تجدنى صديقا مخلصا ؟

— بل خير الأصدقاء جميعا ..

قال محبوب ذلك وهو يعجب لهذه اللهجة اللينة اللطيفة التى لم يتعود الإخشيدى الكلام بمثلها من قبل . أين الأمر والنهى والزجر ؟ أين البرود والتعالى ؟ وقد شعر فى أعماقه بدبيب الحنق والسخرية ، ثم استمع إليه وهو يقول :

— شكرا لك . صداقتنا هذه كنز نفيس . ويفضلها تستطيع أن نقتحم الصعاب يدا واحدة ...

— نطقك بالحكمة كعادتك يا بك ...

وجعل يقول فى سره : تكلم عن الصداقة كيف شاء لك الخداع . فأنا

أعرفك كما تعرف نفسك أيها الشيطان الماكر . وحسبى أن أعرف نفسى  
كى أعرفك حق المعرفة ، ولكل شيء آفة من جنسه ! .  
وحدجه الإخشيدى بنظرة ثاقبة وقال :

— علمت أن مذكرة تكتب لندبك مديرا لمكتب الوزير ...؟  
هذه هي النقطة الجوهرية . أريد أن يتنازل له عن الوظيفة !!... يا له من  
أحمق . كيف غاب عنه أنه تلميذه ! . إن الدين والأخلاق والتقاليد لم  
تستطع أن تحول بينه وبين هذه الوظيفة ، فهل يظن أن « صداقته » تنجح  
فيما أخفقت فيه جميع القوى ! . قال يهدوء :  
— أجل . علمت ذلك بالأمس فقط ...

فقال الإخشيدى :

— إن ذلك يسرنى بقدر ما يسرك ، بيد أنى أحب أن ألفت نظرك إلى  
أن درجة مدير مكتب رابعة وأنت فى السادسة ، فإذا وجدت درجة خامسة  
خالية فقد بلغت مرادك . خذ وظيفتى ودع لى وظيفتك الجديدة يتحقق  
أملنا جميعا .

وتساءل محجوب فى سره أغيبى هو أم يتغايى ؟ فلم يدرك أنه يطمع فى  
الرابعة نفسها ؟ وهب القفز إلى الرابعة تعذر عليه فهل من شك فى أنه  
يفضل أن يكونا فى الخامسة معا عن أن يمهد له سبل التفوق عليه ؟ . ونظر  
إليه متظاهرا بالاهتمام وتساءل :

— وماذا تريدنى على أن أفعل ؟

فقال الإخشيدى :

— صارح الوزير بأنك قانع بوظيفتى ..

وجاءت الدقيقة الفاصلة ! . وكان يدرك بلا ريب أن أسطورة الصداقة  
التي تغنيا بها معا رهينة بكلمة واحدة ، فتردد قائلا ، وذكر أن عداوة  
الإخشيدى شيء لا يستهان به فليس الرجل بعلى طه أو مأمون رضوان

اللذين لهما من شرفهما وازع . هذا رجل — مثله — بلا خلق ولا مبدأ ، وهو يعرف كل شيء ، فماذا يصنع ١٩... وتفكر مليا . قال إن سره سيعرف يوما بلا ريب ، إن لم يكن عرفه بالفعل أمثال أحمد بدير ، وماذا نال تهكم بدير من أبطال حفلة جمعية الضريرات ١٩... طظ ١٩. كلا ثم لا ينبغي أن يتردد ، وليذهب الإخشيدى وصادقته إلى الجحيم ١. واجتاحته عاصفة استهانة ، فقال :

— ألا ترى يا سالم بك أن هذا معناه رفض شرف آثرني به الوزير ١٩ فرمقه الإخشيدى بنظرة غريبة كأنها تقول له . « يا بن اللثيمة ١ » . ولكنه حافظ على هدوئه بقدرة عجيبة ، وصمت برهة ، وقد هم بمراجعته ، وأوشك أن يرسم ابتسامة من ابتساماته ، وانتظمت على لسانه عبارات لطيفة ، وكاد يذكر كلاما عن الصداقة والتعاون ، ولكن إرادته منعت ذلك كله ، فظل صامتا جامدا الوجه والنظرة ، واكتفى بأن تساءل بلهجة لا تدل على شيء :

— أهذا رأيك ١٩

فقال محبوب بغير مبالاة وقد تلبسه شيطانه :

— أجل . ألا تشاركني رأيي ١٩

فتمتم الإخشيدى وهو يحول عنه عينيه .

— معقول . لك حق . أشكرك . مبارك !

وغادر الحجرة بخطاه الوثيدة وقد عاوده كبرياؤه . وارتفق محبوب مكتبه متفكرا ١. سبق أن خسر على طه ومأمون رضوان وكان ينسى سريعا . أما هذه المرة فقد ساوره الخوف ، وقد ثار بخوفه ، وكور قبضته غاضبا ، وكأنما أراد أن يتناسى همه فنهض قائما ، وغادر الحجرة إلى إدارة المستخدمين ليطلع بنفسه على مذاكرة ندمه ...

واحتل الأستاذ محبوب عبد الدائم — أو محبوب بك عبد الدائم من الآن فصاعداً — حجرة مدير مكتب الوزير . ووفد عليه كبار موظفى الوزارة مهتئين . فكان يوماً عظيماً ومجسداً مشهوداً . وهنأه البعض بالدرجة الرابعة « مقدماً » كأنها باتت أمراً مفروغاً منه . أما سالم الإخشيدى فلم يهتئ . وأعلن بذلك عداوته صراحة . وقد ذاع خبر فى الوزارة بأن الإخشيدى سينقل إلى الخارجية وبأنه سيرقى هناك إلى الرابعة . فلم يغيب عنه المصدر الذى خرج منه الخبر ، ولكنه لم يستبعد صحته ، لأنه كان يعلم بصلات الرجل بكبار رجال الدولة ، وقد قال لنفسه : « الإخشيدى قوى بلا جدال ، ولولا زوجى ما تغلبت عليه ولكان اليوم فى مكائى هذا ... » . وداخله سرور . فإذا نقل الإخشيدى حقاً خلا له الجو وصار رجل الوزير الأول ، كما صارت زوجه من قبل امرأة الوزير الأول ؟ . سر لذلك بلا ريب ، بيد أن سروره لم يدم طويلاً . عاد يفكر فى غضب الإخشيدى وانتقامه وفيما عسى أن ينجم عن هذا وذاك : وسرعان ما أدركته روح الاستهانة فاسترد مرحة وجعل يقول لنفسه : إن الناس يحبون المظاهر ويخدعون بالرياء ، فإذا اضطرت للدفاع عن نفسه عاطاهم ما يشتهون من تظاهر ورياء ، ولو بلغ به الأمر أن يشترك فى جمعية الشبان المسلمين مثلاً . ففظظ فى كل شيء إلا الناس . على الأقل فى العلانية . ولكنه لم ينته عند ذاك من الإخشيدى وغضبه ، خطر له خاطر أزعجه أيما إزعاج وقد عجب كيف أنه لم يخطر له من قبل ؟ الإخشيدى جار قديم من القناطر ألا يجوز أن تبلغ به الرغبة فى



الانتقام أن يفشى سره بطريقة ما إلى والديه ؟ ازدد ريقه بصعوبة وقد علت وجهه صفرة باهتة ، وجعل ينتفح حاجبه متفكرا مغتما . ولبث متفكرا مغتما حتى كبر عليه أن يذهب سروره — يوم مجده — ضحية وسأوس قد لا يكون لها أثر من الحقيقة ، فنفخ مغيظا محنقا ، وكور قبضته غاضبا ، وقال لنفسه : قضى الأمر ، وكان ما كان ، فليكن ما يكون . ويعيد جدا أن يبلغ الإخشيدى حقيقة زواجه فإنه هو أيضا يعرف عنه حقائق ليست دون زواجه خطورة . ثم إن الإخشيدى أحكم من أن يفشى سرا يتعرض به لغضب قاسم بك ، ولكنه من ناحية أخرى ينبغي أن يتوقع أن يعلم أبوه نبأ تعيينه فيحسن به أن يدبر للرجل ما يقيم أوده ويصون كرامته . : وأراد أن يطرد همه ، فبسط ورقة على مكتبه ، ورسم رقم مرتبه الجديد : ٢٥ جنيتها ؟ وثبت عليه عينيه الجاحظتين حتى ابتسمت أساريره . سيقبضه أول أكتوبر ، وما أول أكتوبر بيعيد ، فهل يمكن أن يتصور ذلك بائع الفول بميدان الجيزة ؟ . بل مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتبه بعد عودته من البعثة — بعد ثمانية أعوام — على مرتبه هذا ! . نجحت طظ نجاحا باهرا ! وقد ارتاح لذلك ارتياحا عزاه عن كل ما لاقى من ألم ونصب وقلق وأحزان . وسر سرورا خالصا ببراءته من ذلك المرض الوهمي الخبيث الذي يسمونه الضمير أو الندم . حقا خاف أحيانا الناس ، وعذبتهم الغيرة أحيانا أخرى ، ولكن هذا شيء والندم شيء آخر . كان كفره بالقيم والمجتمع كاملا باهرا ، وإنه ليؤمن بأنه سيظل قويا حرا ، ما امتد به العمر . وأنه لن يلين أو يضعف إذا أقعده مرض أو رد إلى أرذل العمر ، وما أجمل أن يستهين بالموت — إذا حضره الموت — وأن يرمق العدم بعين التسليم بالواقع دون فزع إلى قوة وهمية أو إله باطل . هذا هو انتصار العقل الحر على الفرائز العمياء والأوهام الباطلة ! . وتذكر قاسم بك فهمي والإخشيدى وعشرات ممن اتصل بهم في حياته الجديدة ، كل

أولئك يبدون كأنهم من مدرسته . كلا . إنه يرفض ذلك رفضا متعجرفا !  
أولئك يفعلون الشر وهم يعرفون أنه شر ، ومنهم من يفعله وهو لا يميز الخير  
من الشر ، ومنهم من لا يحمل نفسه مشقة التفكير بتاتا ، ومنهم من يفعله  
وهو يؤمن بالخير . هو غير هؤلاء جميعا . إنه ينكر الخير والشر معا .  
ويكفر بالمجتمع الذى صنعهما ، ويؤمن بنفسه فقط : يوجد للذئب  
ومؤلم ، ونافع وضار ، أما خير وشر فمحض وهم باطل . ورب قائل  
يقول : « لو آمن كل بهذا لهلك الناس جميعا » . هذا حق لا جدال  
فيه . ولكنه ليس أحق كى يدعو لرأيه هذا . إنه يحتفظ به لنفسه ، وإذا  
قال تكلم غيره ، فرزق أمثاله من الأحرار على الحمقى من المؤمنين ! .  
والمجتمع متسامح مع أمثاله إذا أحسنوا التخفى ، فالمجتمع لا يعنيه  
إلا أن يحافظ على ذاته ، ويعادى فى ذلك حتى عشاقه الذين ينشدون له  
الكمال أمثال : على طه ومأمون رضوان . فهو كالمرأة المغرورة إذا آنست  
من عاشق انتقادا نبذته ، ولذلك فنصيب هؤلاء التعب والكفاح وربما  
السجن ! .

طابت الحياة إذا . ثم ذكر أمرا فاستدرك قائلا : « إلا شيئا واحدا » ،  
هى إحسان ! . أو هى تلك العاطفة المستبدة التى لا تقع بغير الحب .  
وأين الحب ؟ الفتاة تشاركه آماله ، وتحسن معاشرته ، ولكنه يشعر بأنها  
تؤدى واجبا باخلاص . إنها كالموظف الذى يحب الوظيفة دون عمله  
بالذات . أو هو لا يحبه ولا يكرهه . ارتبط مصيرها بمصيره ، هى تحب  
الحياة كما يحبها ، وتهوى الترف كما يهواه ، ولكن ينقصه شيء كى  
يكمل هذا الامتزاج حقا ، شيء يروعه افتقاده حتى فى تلك الأوقات التى  
يدوان فيها سعيدين ثملين ، والشفة على الشفة والصدر ملتصق  
بالصدر . وليس هذا بالشئ الذى يهون وإن قال عنه . فى غمرة  
اليأس — طظ . بل إنه ليحدث فى نفسه ثورة شبيهة بتلك الثورة التى .

أحدثها الجوع من قبل . ولذلك فكر جديا فى أن يسطو كما يسطى عليه ، بل عابثته فكرة اكتراء حجرة وتأئيشها استعدادا للطوارئ ، ومن يدري ؟ . فلا يعد أن يفصد إليها غدا أو بعد غد ذوو الحاجات ، وكما أعطى ينبغى أن يأخذ !

\* \* \*

وعند مساء ذلك اليوم — يوم مجده — وفد الأصدقاء على الشقة الأنيقة بعمارة شليخر ليقدّموا التهاني لزوج مدير المكتب ، وجرى الحديث فى مرح وسرور ، وقد اقترح البعض أن يحتفلوا جميعا بترقية محبوب . وقال أحدهم مخاطبا إحسان :

— فى يوم الخميس القادم يتتصف الشهر العربى ، ويتربع البدر فى كبد السماء ، وتمسى القناطر قبلة الواردين ، فما رأيك فى رحلة قمرية ؟ ... ( وهنا لحظ عفت بطرف خفى واستدرك غامزا بعينه ) وعفت بك يملك يختا صغيرا جميلا ١٢...

وسر عفت سرورا كبيرا ، وكان إعجابه بإحسان يزداد يوما بعد يوم . وقال بسرعة دلت على حماسة للقبول :

— اليخت وصاحبه رهن أمركم !

وما سمع اسم القناطر حتى سرت فى جسده قشعريرة باردة ، وكان يعلم أن حماس الصحاب ليس لشخصه هو ، فقال معترضا :

— هذه النزهة القمرية لا توافق جو سبتمبر الرطب البارد ..

فضحك عفت وقد أشفق من أن تفلت من يده الفرصة السانحة وقال :

— لا شك أن وظيفتك الكبيرة قد بثت فى نفسك شيئا من الشيخوخة فبت ترجف من الجو اللطيف ١٠٠

وكان هذا « المدح فى قالب الذم » جديرا بأن يلد محبوب فى ظروف أخرى ، ولكنه لم يستطع أن يتذوقه فى رعبه ، وقال بحمية :

— الدنيا واسعة ، اختاروا أى مكان تحبون ، أما القناطر ..  
واعترض عليه كثيرون فضاعته بقية كلامه ، ولم يدر كيف يقنعهم  
ويحولهم عن رأيهم ، ولبت حيال احتجاجهم مقهورا ، بينما راح عفت  
يقول :

— ليس ثمة فائدة ترجى من الاعتراض ، والأولى بك أن تصفى إلى ...  
سينتظر اليخت عند قصر النيل فى الساعة التى تتفقون عليها .. أطعمة  
جافة لطيفة ... زجاجة ويسكى لكل ثلاثة ... دعونى أحصيكمم ...  
وعلا ضجيج الاستحسان ، وشاركتهم إحسان سرورهم ، وجعل  
محبوب يقلب عينيه فى وجوههم حائرا وعلى شفثيه ابتسامة لا معنى  
لها . لن يجد من رحلة القناطر مهريا ، سيقطع حداثتها ذهابا وإيابا فى  
ضوء القمر ، أليس من المحتمل أن يلقى أحدا من أهلها الذين يعرفونه ؟ ..  
بلى ، هذا محتمل ، ويحسن به والحال كذلك ألا يرح اليخت منتحلا  
عنرا ، أجل لن يستطيع مقاومة العريدين العنيدين ، فليذهب إذا لم يكن  
من الذهاب بد ، والحداثق على أية حال بعيدة عن المحطة ، بعيدة عن  
البيت البائس الباهت ...

## — ٤١ —

ومضت أيام أربعة تمتع فيها بوظيفته الخطيرة متعة صافية . وقد شعر  
جميع الذين يتصلون به من الموظفين — صغارا وكبارا — بأنه موظف  
متعجرف ينبغى أن تؤدى إليه حقوقه كاملة ، ولا يغفو عن زلل ولا يتكلم  
إلا آمرا . وكان كلما لآن الموظفون — ولابد أن يلبثوا — تمادى وطفى ،  
واستلذ تماديه وطفياته ، حتى ود فى أحيان لو يمضى يومه كله فى الوزارة  
آمرا زاجرا ... !

وجاء يوم الخميس ، موعد النزهة . فغادر الزوجان بيتهما ومضيا في طريق قصر النيل ، وقالت إحسان بتأفف وهما يقطعان طريقهما :  
— لعلك الوحيد في الجماعة الذي لا يملك سيارة ...  
فضحك محجوب قائلا :

— في الثأني السلامة ... !

ولكن ملاحظتها حملته على أن ينادى على تاكسي فيستقلانه على قرب المسافة . وذكر لهجتها المتأففة فقال لنفسه ساخرا : « عيب كبير ألا يكون لكريمة عم شحاته تركي سيارة خاصة ! » ، ثم ذكر الأعباء التي تواجهها بها الحياة الجديدة كمرغبتها في اكتراء حجرة وتأثيثها ، واقتطاع بضعة جنيهات من ماهيته لوالده ، وغير هذه وتلك من وجوه الترف والانفاق ، فهاله الأمر . وحدث نفسه قائلا : « سأظل ما حييت فقيرا إلى المال ! » . وبلغا مرسى اليخت بعد قليل . فغادرا التاكسي وأقبلا نحو الأصدقاء المنتظرين وقد غشى الظلام الآفاق . واستقبلا استقبالا جميلا ، وتقدم عفت بك من الزوجين وصافحهما ، وأعطى ذراعه لإحسان فتأبطته وسارا في الطليعة إلى اليخت . ولم يكن محجوب يحب صاحب اليخت ، وقد بدأ يخامرہ النفور نحوه منذ لبى دعوته إلى الفانتازيو . قرأ في عينيه الجميلتين آى الإعجاب بزوجه فامتعض وتميز من الغيظ ، ورمق شعره الأحمر وبشرته البيضاء وجسمه الرياضي بعين المقت والغضب ... وكان اليخت صغيرا ، ولكنه جميل أنيق . وكان مكونا من طابقين ، بالأول المقصورات ، والثانى سطح مسور اصطفت به المقاعد الوثيرة على هيئة دائرة ، وفي المقدمة منه امتدت الموائد حافلة بما لذ وطاب . وقد أمر عفت بك بالإبحار فرفعت المرساة ، وأبحر اليخت ميمما شطر الشمال . في هداية نور القمر البهيج وسط الأفق الشرقى صاعدا من وراء النخيل . هكذا بدأت الرحلة ...

وجلس الأصدقاء على المقاعد متقابلين ، وراحوا يسمرون في جو لطيف رطيب . وجعل محبوب يردد ناظره بين الوجوه المشرقة والقامات الهيف فبهره الشباب والجمال ورأى زوجه بعيدا عنه فى حالة من الإعجاب والمعجبين ، فذكر أيام كان يطالعها عن بعد من نافذة حجرته بدار الطلبة بيد أنه رآها الآن أبهى ما تكون جمالا وسحرا ، واستشعر الهوة العميقة التى تفصل بينهما ! وجرت أمام مخيلته صور سريعة مضطربة ، فرأى على طه ... فى حالتى سروره وحزنه ... وعم شحاته تركى ، والوزير ، وسالم الإخشيدى ، ومخدعه بعبارة شليخر !. ووجد نفسه يتساءل أيفضل لو كانت إحسان له قلبا وجسدا فى بيت زوجية هادىء « شريف » ولو كان موظفا صغيرا بلا مجد ؟! ولم يجد الجواب حاضرا ، أجل كان طموحه قويا كعاطفته ، بل لعل طموحه أقوى . ولكن ما جدوى المقاضلة ؟! وألقى بنظره إلى النيل يتسلى ، ثم رفع بصره إلى البدر الآخذ فى الصعود والصفاء ، كلما امتدت ظلمة الليل أذكت نوره وبهاءه ، ولكنه لم يكن من الذين تفتنهم الطبيعة بمحاسنها ، وكان يلذ له أن يقول : إن الهيام بالطبيعة مفسدة للعقل ، ومصدر منذ الأزل لجهالات لا تزال نرسف فى أغلالها . وذكر صاحبه مأمون رضوان وكيف كان يستيقظ فى الفجر للصلاة والعبادة ، وكيف كان يقلب وجهه بين النجوم الساهرة ويتلو : « والليلة إذا يغشى » ، « والسماء والطارق » بصوت حنان ، وعيناه الصافيتان تلمعان لمعان النجوم الزاهرة . ولكن هل يوجد بين هؤلاء الشبان والشواب من يعشق الطبيعة ؟! وألقى عليهم نظرة شاملة فوجدهم فى شغل عن الدنيا بأنفسهم .

وسمع آنسة فىفى تتساءل فى إغراء :

... لماذا لا نرقص ١٠٠

فقال على عفت من فوره :

— ارقصوا إذا شئتم ، ولكن هل ترقصون بلا موسيقى ؟  
فقال أحمد عاصم :

— أبشروا لقد أحضرت معى موسيقى اليد .  
وتصاعدت أصوات الاستحسان ، ودارت العيون لتصيد الأحباب ،  
وتناول أحمد عاصم آله ولعب بها وهو يتمايل على مقعده مع أنغامها  
الراقصة ، ونهض الجميع للرقص إلا إحسان ومحجوب اللذين يجهلانه  
وعفت بك الذى آثر أن يجلس إليهما . وجعلوا يشاهدون الراقصين فى  
صمت وإعجاب . ثم أعلن عفت بك إنكاره لجهلها الرقص ، وقال  
لإحسان :

— سأعلمك الرقص ، فإنه لا يجوز أن تجهليه ،.. ما رأيك ؟  
فتمتعت وعيناها لا تفارقان الراقصين :

— لا أدرى ..

— غريب من يجهل الرقص فى الحفلة الرائعة ، أليس هذا رأيك  
يا محجوب بك ؟

فشعر محجوب بالخطر المحقق به ، وأراد أن يزوغ منه ، فقال بعدم  
اكتراث :

— لا أظن ..

فضحك عفت ضحكة عالية وقال :

— يا لها من أسرة من صميم القرن التاسع عشر ..

وضحكت إحسان لضحكه وقالت :

— قد نتلمذ لك يوما ما ..

فلاح الحماس فى وجه الشاب وقال بسرور فياض :

— فى أى وقت تشائين ..

ولازم محجوب الصمت متظاهرا بالاهتمام بمراقبة الراقصين ، وهو  
يكظم حنقه وثورته . إن الشاب الأحمق التباه بجماله يتحفز للانقضاض

على عرضه ، وإنه لفاعل إذا وجد غرة ، ولكن هيهات أن ينهزه فرصة ،  
فليس لأحمق مثله أن ينبت في رأسه قرنا جديدا ، .. لقد وهب رأسه للقرون  
الذهبية ، قرون المجد والسلطان . ولكن ترى هل تستجيب لغزله ؟ . هل  
تلين هذه الفتاة الغامضة الفاتنة ؟ . وأحس أنياب الغيرة السامة تنهش  
صدره .

ورقص السراقصون حتى أدرك أحمد عاصم التعب — أو  
الملل — فكف عن اللعب ، وانفرط عقد المتجاذبين ، فعادوا إلى  
جلستهم الأولى مشرقة وجوههم بالابتسام . وكان البدر قد علا في السماء  
وانكسب نوره إلى مياه النيل المتموجة فتقاذفته ونثرته كاللؤلؤ يخطف  
الأبصار . وتساءل البعض :  
— متى نفتح البوفيه ؟

فرد عليه قرين :

— ليس قبل أن يرسو اليخت إلى شاطئ الحديقة يا جائع ؟  
فقال آخر :

— هل لكم في لعب الورق ؟

ولكن اعترض كثيرون على الاقتراح أن يلهمهم عن صفوفهم ، وعادوا إلى  
السمر ، وانتبه محجوب من أفكاره على صوت الأستاذ حسنى شوكت  
وهو يقول :

— كيف لا يكون أمرا خطيرا ؟ .. إن نجاح الحزب النازي في  
الوصول إلى الحكم أمر جد خطير .  
فقال أحمد عاصم :

— ولكن شخص الرئيس هندنبرج حقيق بأن يتلع هتلر .

— انظر إلى الأفق ، ألا ترى أن هتلر في عنفوان الشباب والرئيس في  
نهاية العمر ؟

— إذا سيتمخص القذ عن حرب ضروس ..



— كلام معقول ، بيد أن فرنسا لا تترىث حتى تستعيد ألمانيا قوتها وتجمع للانقضاء عليها ، وهنالك حلقة محكمة حول ألمانيا من البلدان الموالية لفرنسا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان ، ولا تنس أن إيطاليا العظيمة تعد نفسها حامية النمسا ، فما هو إلا أن تتصافح هذه البلدان ، وربما انضمت إليها روسيا فتضيق الحلقة الفولاذية رويدا رويدا حتى تخنق ألمانيا في النهاية وتقضى عليها القضاء الأخير .. وإنجلترا ؟ .. هل تتغاضى عن خنق ألمانيا ؟

— ولم لا ؟  
— إنجلترا أمكر من أن تترك فرنسا — أو غيرها — تتسيطر على القارة الأوروبية .

أصغى محجوب إلى الحديث باهتمام ، وكان على اطلاعه الواسع على السياسة الداخلية عظيم الجهل بالسياسة العالمية ، فاقترح على نفسه أن يعنى بمعرفة الأخبار الخارجية حتى لا يفوته الكلام فيها إذا لزم الأمر ، وتظاهر بتأمل القمر والغياب عما حوله حتى لا يلاحظ أحد صمته . فغاب حقا عن الحديث دقائق ، ولما عاد بوعيه إلى الجلوس ، وجد الحديث قد طرق الأحوال الداخلية دون أن يدري كيف . وسمع بعضهم يقول :

— أما مصر فيستطيع أى حاكم أن يستبد بها دون كبير خطر .  
— الواقع أن أى نظام من أنظمة الحكم يستحيل ديكتاتورية إذا طبق في مصر .

— هذا وطن « ضربك شرف يا أفندينا » ...

وقال أحمد عاصم بلهجة اليقين :

— لن تظفر مصر باستقلالها أبدا ...

— استبدت بها عادة الحكم الأجنبي !

فضحك عفت وقال :

— وما حاجة مصر إلى الاستقلال ؟. أما الزعماء فيتعاركون على الحكم ، وأما الشعب فغير أهل للاستقلال .  
ووجد محجوب الفرصة سانحة ليقول قولا « أخلاقيا » وليحدث لنفسه سمعة إيجابية ، الأمر الذى أجمع على تحقيقه حين فكر فى الاشتراك فى جمعية الإخوان المسلمين ، فقال مبتسما :  
— ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك !..  
فضحك عفت مرة أخرى وقال بصوت مرتفع :  
— لا تجرى فى عروقي نقطة دم مصرية واحدة .  
وأحدث قوله عاصفة من الضحك ، أما محجوب فتضاعف مقتته له ، لا غضبا لوظيفته ، ولكن ثورة لكبريائه ، وذكر خطبة رنانة ألقاها والد عفت فى مجلس الشيوخ فظن أنه قبض على عنق الشاب ، وقال بلهجة الظافر :  
— فما قولك فى خطبة الباشا والدك فى مجلس الشيوخ ، عند مناقشة الميزانية ، التى دافع بها عن الفلاح دفاعا وطنيا مجيدا ؟!  
فقهقه عفت وقال كالساخر :  
— هذا فى مجلس الشيوخ ، أما فى البيت فكلانا متفق — أنا ووالدى — على أن أنجع سياسة مع الفلاح هى : السوط .  
وضحك الحاضرون — من الجنسين — ضحكا عاليا . وابتسم محجوب يدارى هزيمته ، وقد أفرغ روعه ، وارتاح إلى تفرده بالدفاع عن « القومية المصرية » ، وقال لنفسه : « إن بدلة التشريفة الحقيقية هى ثوب الرياء فلا يفوتنى ذلك ! » وتساءل ساخرا : ترى كيف يصلح على طه هذا الشعب الكريم ؟ وكيف يحقق مثله العليا ؟  
ومضى الوقت واليخت يشق الأمواج وكأنه يسبح فى النور السنى ، وانتبه محجوب مرة ثالثة على قول شاب :  
— .. فما من شك أن الزوجة أجبرت الباشا زوجها على الإقامة فى فندق إبقاء على سائق السيارة .

فسألت إحدى الفتيات باهتمام :  
— وهل حقا خيرها الباشا بين بقائه هو أو السائق ؟  
— نعم .  
— وماذا كان جوابها ؟  
— السائق .. ؟

ولبت يلتقط الأحاديث من هنا وهناك ، طورا في يقظة وانتباه ، وطورا شاردا ذاهلا ، حتى لاحت الحداثق ساهرة في ضوء القمر كأعذب الأحلام . ونهض الصحاب مهتمين . ثم دعاهم عفت بك إلى البوفيه .

— ٤٢ —

استبقوا إلى الموائد ، واتخذوا مجالسهم ، وأترعت الكئوس ، وملاً عفت كأس إحسان ، وكانت أول مرة تشرب في جماعة ، فقالت بصوت خفيض :

— حسبي كأس واحدة

فقال الشاب ضاحكا :

— هلا تلفعت بخمار التقوى وذهبت إلى « السيدة » للوعظ

والإرشاد ؟

ثم همس في أذنها :

— انظري إلى حكمت ، إنها تشرب زجاجة كاملة دون أن ييوح

لسانها بسر .

ورأت إحسان الجميع ينظرون إليها لتبدأ بافتتاح الحفل ، فرفعت كأسها في شيء من الارتباك ، فارتفعت الأيادي بالكئوس ، وهتفوا جميعا باسم مدير المكتب ، ثم أفرغوا كئوسهم حتى الثمالة . وسرعان ما مزقت

السكّاكين اللحوم ، ثم التفتتها الشوكات وسلمتها إلى الأفواه النهمة ، وتحول المقصف إلى ميدان ، دارت به معركة بالغة في عنفها ، بالغة في لذتها ، وتعددت ضحاياها من الأطعمة والأشربة . وتنبهت إحسان إلى أن عفت بك يتعمد أن يلمسها وهو يميل نحوها ليملاً كأسها ، وأن حذاءه مس حذاءها أكثر من مرة ، ولكنها لم تشجعه . وأكل محبوب وشرب بنهم ، لا طلباً للذة ، ولكن هرباً من مشاعره ، لأنه ما انفك يفكر في البيت القائم أمام المحطة مذ رسا اليخت إلى شاطئ الحديقة ، تولاه شعور بالكآبة والخوف لم يستطيع منه فكاًكا ، ترى ماذا يفعل والداه في هذه اللحظة ؟ ، ألا يزال والده طريح الفراش ؟ وما عسى أن تفعل أمه ؟ .. هل نفدت النقود ؟ .. هل باعا بعض الأثاث القديم ؟ ألا يحتاجان لشيء من فئات هذه المائدة ؟ .. كيف يتخلص من شعور الضيق والكآبة ؟ من له بمن يخضع شعوره لقسوة عقله الحر ؟ وقد أفرط في الشراب ، وثرثر بغير حساب ، ولم يأل جهداً في الهرب من باطنه ، والارتواء بين أيدي المحيطين به واختلط الحديث أيما اختلاط ، وسأل سائل جماعة المتزوجين : هل حقق الزواج أحلامهم ؟ وتبادل الأزواج نظرات الحيرة وضجوا ضاحكين . وسأل آخر عن أمتع ما في الزواج ؟ فقال شاب متزوج : إنه الحب ، وقال آخر : إنه الخلاص من الحب ! ، وقال ثالث : إنه تحديد النسل ! ، وأجاب محبوب في سره : « بل هو القرن الذهبي ! » وقال حسنى شوكت بلا مناسبة :

— خسرت في الأسبوع الماضي خمسة عشر جنيهها

فقلت له خطيبته :

— البقية في الأسبوع القادم !

وقال أحمد عاصم :

— يقولون إن سىء الحظ في القمار سعيد في الحب :

فقال فتاة مبتسمة :

— ذلك لأن سيء الحظ في القمار لا يعرف الغش !

وقال شوكت مرة أخرى :

— إن أعجب مقامرة شاهدتها في حياتي كانت مقامرة شاب

بعشيقته !

فلاح الاهتمام في وجوه الجميع وسأله كثيرون :

— حقا ؟ .. وكيف كان ذلك ؟

فأجاب الشاب التمل قائلا :

— إنه صديق حميم ، وقد اصطحب يوما عشيقته إلى ناد خاص من  
أندية القمار ، فخسر جميع نقوده ، وكانت الخمر قد لعبت برعوس  
الجميع فاقترح عليه سكران أن يقامر بعشيقته على كل خسارته ، فإما  
استرد نقوده وإما خسر عشيقته ، فقبل الاقتراح وقامر عليه وخسر  
عشيقته ..

— وهل رضيت المرأة ؟!

— كانت في حالة سكر بين ، وقد انتقلت ملكيتها إلى الرابع ، أو —

وهو الأصح — انتقلت ملكيته إليها .

— من عسى أن يكون ذلك الصديق ؟

— أما هذا فلا ، لأن أحد الطرفين موجود بيننا .

وتبادلت الأعين نظرات الإنكار ، وابتسمت الثغور في ريب ، ولاح

الفضول في جميع الوجوه خاصة النساء ، وسألت إحسان عفت بك :

— من هذا المقامر يا ترى ؟

فسر الشاب بسؤالها وفسره على هواه ، ثم قال :

— لا يدري ذلك إلا الأستاذ شوكت ، ولعله لا يدريه أيضا :

— أيعجبك هذا النوع من القمار ؟

فقال كالساخط :

— أنا لا أقامر بمن أحب ..

وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغي ، وأجمعت على ألا تشرب غير كأسها الثالثة ، ودارت رعوس ورعوس ، فتشاحن زوجان علانية وتبادلا السباب ، وكاد الأستاذ حسنى شوكت يفقد صوابه ، وانتشى محبوب عبد الدائم ولعبت الخمر بعقله فتناسى همومه وأكب على الحديث والضحك .

ولما فرغت الصحف والزجاجات هتف بهم عفت قائلا :

— هلموا إلى الحديقة ..

ورددوا قوله : « إلى الحديقة .. إلى الحديقة » ومضوا أزواجا وأفرادا .  
وأراد محبوب أن يتخلف فى اليخت كما كان اعتزم ، وتنحى جانبا ، بالرغم من سكره الشديد ، ولكن لاحت منه نظرة فرأى زوجه متأبطة ذراع عفت بك فى مقدمة الراحلين ، فهاج دمه ، وقرض أسنانه بحنق ، وعثر به بعض الإخوان فتأبط ذراعه ودعاه إلى المسير معه ، فلم يقاوم ، ونسى عزمه ومخاوفه . وكانت الحديقة تموج بجماعات المرتادين نساء ورجالا ، بين سائرين يتضاحكون ، وجالسين يأكلون ويشربون ، وهؤلاء وأولئك ينفثون المرح فى كل مكان ، وقد ألقت بينهم جميعا دواعى الغبطة وأواصر الشباب والسرور وحب الفكاهة والمزاح ، فاشتبكوا فى الحديث على غير سابق معرفة ، وتراشقوا بالنكات بغير استئذان ، صاعدين هضبة معشوشبة أو هابطين مسيلا بين الزهور ، معتصمين بخميلة من اللبلاب والياسمين أو عابرين قنطرة على جدول يسيل بلجين القمر ، والبدر يطل عليهم من علياء السماء فى موكبه الأبدى تحف به الكواكب والنجوم ، غامرا الدنيا بنوره البهي ، وطابت النفوس وصفت ، فراح ذرو الأصوات الجميلة يسجعون الأغاني . وانطلق العازفون يستنطقون الأوتار . وكان أصحاب اليخت يمضون فى المماشى باعشين ضجيجا صاخبا ، وكان الأستاذ حسنى شوكت يعربد بلا مبالاة ، فلقت نحوهم الأبصار . وسار

محجوب إلى يمين زوجه — وعفت بك إلى جوارها — وقد بلغ به السكر .  
وكان يتكلم ويضحك ولكنه كان متغيظاً على الفتى الذى يلزم زوجه  
كظلالها ، وعلى سكره ومرحه لم يستطع أن ينسى أنه فى القناطر ، فى  
بلده ، على كثر من والديه البائسين ، فجعل ينظر فيما حوله بحذر ،  
ويقاوم جهده شعور القلق الذى يساوره . وفكر أكثر من مرة أن يقفل إلى  
اليخت ، ولكنه ظل مستسلماً لتيار الرفاق . وحدث أن أوقفهم حسنى  
شوكت عند بائع تين لبيتاع منه ، وكان البائع عجوزاً يتوكأ على عصا من كبر  
وعجز ، تذكر محجوب أباه فى غمضة عين ، وجدوا فى طريقهم وصورة  
الرجل لا تفارقه ، فأبوه إذا قدّر له أن يترك الفراش فلن يكون إلا صورة من  
هذا الرجل ، ولن يخطو خطوة بغير عصا يتوكأ عليها . وتفكر ملياً ثم قال  
لنفسه : « ولا يبعد إذا تحطمت وسائله أن يرفع سلة تين ويسرح بها ! »  
ومن يدرية فلعله يسرح الآن بسلة تين فى موضع ما من البلد ؟ وألقى بطرفه  
ناحية المحطة وهو يمشى كالمترنح وقد انقبض صدره انقباضاً شديداً . لم  
يعد يشارك الرفاق لهوهم وسرورهم ، وولى عنه الصفاء والسرور ، وغلبه  
القلق والحزن والخوف . كان مجيئه خطأ كبيراً ، ولكن هل كان تخلفه  
يغير من واقع الأمر شيئاً ؟ .. إذا كان تقدير أبيه صادقاً فقد مضى عليه الآن  
ثلاثة أشهر وهو بلا عون ، فماذا صنع بنفسه وبأمه ؟ وكيف واجه عبوس  
الحياة فى عجزه ومرضه ١٩ ثلاثة أشهر أو يزيد : يونية ويولية وأغسطس ،  
وهذا الأسبوع من سبتجبر ، أى ذلك الزمن الذى ذاق فيه حلاوة العيش  
وطيب الحياة ، وثقل رأسه ، وخمدت نشوته مخلفة خمارة مصدعا ،  
وخائته جرائته التى تستهين بكل شيء ، حتى تساعل فزعا : أهذه يقظة  
ما يسمونه بالضمير ؟ أبعد تلك الثورة المدمرة التى شملت حياته  
الجامعية كلها ، وبعد مواجهة التجربة الخطيرة ثلاثة أشهر كاملة والظفر  
بالتجائح المطلق ، يجد نفسه فى هذه الحالة الزرية من الجبن والألم ؟ .  
وكور قبضته بعنف ، ورفض بعناد أن يعترف بضعته وخوفه ، أو بأن الذى

يشن في صدره ضمير ، أو بأنه لا يزال يتأثر بعاطفة البنوة ، رفض ذلك رفضا عنيدا مغيظا ، وقال يعزى نفسه ويشجعها : إن هو إلا الخوف من فضيحة قد تهدد مركزه الاجتماعي ، إنه لا يأسى على والديه ولكنه يخاف أن يدفعهما البؤس إلى إزعاج حياته وتكدير صفو مجده . وموعدهما أول أكتوبر فإذا تسلم ماهيته الجديدة اشترى طمأنينته ببضعة جنيهات يرسلها إلى أبيه وانتهى من هذا العذاب . وردد هذا الرأي في نفسه وأكد له تأكيدا شديدا ، وحاول أن يستعيد شجاعته وطربه . ولما عاوده شعوره بما حوله وجد نفسه يخبط منفردا ، فنظر فيما حوله ذاهلا فلم يجد إلا الأستاذ أحمد عاصم ، وسأله عن الرفاق ؟ فهز كتفيه قائلا : « لا أدري » فأدرك أنه ضل الجميع . وشعر بتعب ، وغثيان مباغت ، ثم انقلب يقىء ..! وأخذ صاحبه من يده إلى اليخت ، وهناك مضى به إلى مقصورة ، فاستلقى على أريكة وراح فى سبات . ولم يدر كم لبث ، ولكنه كان يرى فى مخيلته دائما بائع التين حتى خاله أباه بالذات . وقد قهره الشقاء على ذل السؤال .

### — ٤٣ —

وعادوا إلى اليخت وقد نال منهم التعب وبخت منهم الأصوات . وأبحر اليخت قبل منتصف الليل بقليل . وسألت إحسان عن زوجها فأخبرها أحمد عاصم بأنه نائم فى مقصورة ، ودعاها لاصطحابها إليه ، ولكن عفت تطوع بالمسير بين يديها ، وهبطا معا إلى باطن اليخت ، وتقدمها فى ردهة جانبية إلى باب مقصورة وفتح وأوسع لها فدخلت وتبعها على الأثر ورد الباب ، ووجدت المقصورة خالية ، وطالعتها فى وسطها صورة لعلى عفت على نضد ، فتحولت إلى الوراء فرأت صاحبها يقف وراء الباب يتسم إليها بعينين تنطقان بالهيام والظفر ، فأدركت أنه استدرجها إلى مقصورته ، وخامرها الخوف فسألته متجاهلة مقاصده :



— أين محجوب .. ؟

فقال والابتسامة لا تزال على شفثيه ، وقد احمرت عيناه الجميلتان من أثر الخمار :

— سنذهب إليه بعد استراحة قصيرة ..

فسألته بلهجة رزينة :

— لماذا أتيت بي إلى هنا ؟

كانت ثقته بنفسه لا حد لها ، فكان جوابه أن جثا على ركبتيه عند قدميها وأحاط ساقيهما بذراعيه وضدها إلى صدره ، وقال لها رافعا إليها وجهه :

— لا تسأليني يا إحسان ، أنت تعرفين كل شيء ، والكلام في مثل حالتى تحصيل حاصل ، ألم يتكلم قلبي منذ أول لقاء بيننا ؟ ألم يصرخ هذه الليلة حتى خفت أن تصك نجواه آذان الحافيين بنا .. !

وتولاها الاضطراب والاستياء ، وأمسكت بساعديه لتفك السلسلة التى تطوقها ، ودفعته بعنف ، وصاحت به بصوت خشن ، غاضب :

— دعنى من فضلك .. دعنى ..

ثم أريد وجهها وعيس ، فقرأ فيه الجذ والنفور ، وتورد وجهه خجلا ، وأرخى ذراعيه ، ونهض واجما دون أن ينبس بكلمة . وفتح الباب حتى غادرت المقصورة ، ثم دلها على مكان زوجها وعاد أدراجه . ووجدت محجوب نائما أو كالنائم ، وكان فى حالة إعياء شديد وقد علت وجهه صفرة شديدة ..

\*\*\*

ورسا اليخت إلى قصر النيل حوالى الساعة الثانية صباحا . وعاد الزوجان إلى عمارة شليخر فى سيارة أحمد عاصم ، وكان محجوب أفاق قليلا ولكنه لبث متعبا منهوك القوى ، وما اعتور روحه وحالته المعنوية كان

أدهى وأمر . تركت نكسة السكر في روجه آثارها فانقبض صدره ،  
وخمدت نشوته ، وامتعضت نفسه ، وأحس الدنيا بحواس المريض ،  
وغابت إحسان قليلا وجاءته بفنجان قهوة ، وجلست قبالة على  
الشيزلنج ، قالت له :

— أفرطت في الشراب ..

فأحنى رأسه بالإيجاب وإن ذكر الأسباب الأخرى التي كدرت صفوه  
وقال بسخط :

— لقد قبلت الدعوة إلى هذه الرحلة على غير إرادتى ..

فقالت تدافع عن الرحلة :

— وما ذنب الرحلة ؟ .. كانت رحلة جميلة طيبة ..

فقال بحدة :

— يا له من صفيق سى عفت بك هذا !

فابتسمت إحسان ، وترددت مليا ، ثم غمغمت :

— انتهى .. أوقفته عند حده .

فثبت عليها عينيه الجاحظتين الذابلتين المحمرتين متسائلا ، فأوجزت  
له ما حدث ولكنه أبى إلا أن تسهب ولا تترك كبيرة ولا صغيرة ، فروت له  
الحادثة بحذافيرها ، حتى انفجر قائلا :

— صفيق .. وقع ، ولكنك أحسنت كل الإحسان ، يا لهم من أرذال

جميعا ! ..

وانقدت عيناه ، بيد أنه تساءل بأى حق يعيب أى إنسان فى هذه الدنيا

وهو ما هو رأيا وفعلا ؟ .. وقال وكأنه يعجيب نفسه :

— نستغفل الناس إذا شئنا ، ولكن لا نسمح لمخلوق بأن يستغفلنا .

فتفكرت فى قوله وعلى شفيتها ابتسامة غامضة ، وعاد يفكر فى والديه

فصدقت نيته على مد يد المعونة إليهما حتى ينفض عن حياته أى ظل

للكدر ، ثم عجب كيف أن تغيرا هينا فى الجسم قد يذهب بهجة الدنيا

فى غمضة عين ، وبحيل لذاتها وصفاءها ألما وكدرا يزهقان النفس .  
واقترحت عليه إحسان أن ينام ، ولكنه أراد أن يرتاح قليلا بمكانه من  
المقعد ، فمضت هى إلى الفراش . وعاد يتساءل ماذا يحدث لو لازمه  
هذا التغير فدأب على تناول الحياة بحواس المرض والامتعاض ؟! واقشعر  
بدنه !.. ولم يجد سوى جواب واحد : الانتحار !. هكذا قد يقضى على  
نفسه من كرس نفسه للأناية ! ومع ذلك يوجد فى هذه الدنيا أناس يؤثرون  
التعب والأهوال على السلامة ، كصاحبه القديم على طه ، ولا يمكن أن  
يسلم مخلوق بأنه ليس لهم لذاتهم الخاصة بهم فى نضالهم وكفاحهم ،  
فأية لذة هذه ؟! أحقا للإيثار لذة كلذة الأثرة ؟ إنه يجعل هذه اللذة  
ويحتقرها . وتمثل له على طه بوجهه الجميل وحماسه المتقد ، وذكر عهد  
دار الطلبة ومأمون رضوان ، فتحول رأسه وهو لا يدري إلى الفراش ، ورنى  
عيناه إلى إحسان وقد غطت فى سبات عميق . فبدت له الذكريات فى  
إطار من الدهشة والأحلام ..

— ٤٤ —

واستيقظ فى ضحى اليوم الثانى — الجمعة — وعادته فى الحال  
ذكريات الليلة الماضية مقرونة بإحساساتها المحزنة . وغادر الفراش بهمة  
متوثبة ، واستحم بالماء البارد لينعش جسمه ونفسه ، وعاد إلى الصلاة ،  
فالتقى بزوجه ، وقد سأله برقة :

— كيف أنت الآن ؟

فغمغم وقد ابتسم ابتسامة دلّت على الخجل والارتباك :

— عال .. شكرا لك ..

وارتدى ثيابه وانطلق إلى الخارج ، ومضى إلى حديقة صولت حيث  
اجتمع ببعض الزملاء من الموظفين ، وشرب كوبة من عصير الليمون ،  
ولبث ساعة بينهم يتحادثون هونا ، ثم غادر المكان ، تاركا قدميه للطريق  
ينقله من شارع إلى شارع مستسلما للذة المشى . فذكر الليلة الماضية

فعبس وجهه ، وهاله ما بثته فى نفسه من مشاعر الألم واليأس ، وما أشاعته فيها من أفكار سود وخواطر ضعف واستكانة . وتولاه خجل لما اعتوره من خور فى الجسم والنفس ، وقال لنفسه : « لقد ظفرت حتى الآن بفضل حرية عقلى وقوة إرادتى وتلك الحكمة العالية : طظ .. فلا يجوز أن أفرط فى كنز من كنوزى الغالية ! » .. أجل ، هنالك وظيفة سامية وطموح وجاه وخمر ونساء ومال وطعام وترف ، فكيف يسمح بأن ينغص عليه هذه اللذات أب مشلول ، وخواطر مرض ، وغيره جنونية ١٢ . وسرعان ما استرد نشاطه وحيويته ، وعقليته الصارمة الساخرة ، واستقبل الحياة مرة أخرى بجسارته المعهودة وطموحه الذى لا يعرف الحدود . وبدا كل شيء كأنما يسير فى مجراه الطبيعى ، وكأن الحياة ستظل مدعنة لمنطقه أبد الدهر . وجاء يوم السبت وقد انتصف سبتمبر ، فأثبتت له حوادثه أنه إذا كان يستطيع أن يتحكم فى نفسه فإنه أعجز من أن يدعى القدرة على التحكم فى الحوادث ..

كان السبت يوم قاسم بك فهمى ، وكان محجوب يغادر الشقة فى تمام الساعة مساء ليهيئ للرجل الخلوة المنشودة . ولكن كانت الساعة السادسة حين رن الجرس ، ولم يكن الشاب يتوقع قدوم أحد فى تلك الساعة ، فدلف إلى الردهة الخارجية ليرى القادم ، وفتحت الطاهية الباب فرآه كما أراد . لم يصدق عينيه ، وجعل يحملق بذهول جنونى . رأى أباه ، أباه دون غيره من البشر ، وقد وقف الرجل على عتبة الباب متوكئا على عصاه ، ملقيا إليه ببصر جامد مكفهر . سمر كلاهما فى مكانه . وجمدت عيناهما لا تتحولان . وكابد محجوب فى تلك اللحظة الرهيبة شعورا بالخوف والقنوط والهزيمة لم يشعر بمثله من قبل ، ثم مزق الأب السكون الأليم فقال بصوت ضعيف ولكنه واضح ينم عن الألم والتهكم المرير :

— ألم تعرفنى بعد .. لماذا لا تهرع إلى استقبالى ١٩  
وأفاق الشاب من ذهوله فاقترب من أبيه فى خطى متهاككة ومد إليه  
يده ، ولكن الرجل تجاهلها . فقال محجوب بارتباك وتلعثم :  
— تفضل يا والدى ... تفضل ..

فتحرك الرجل متوكئا على عصاه يسير فى خطوات ثقيلة ، وقد تقوس  
ظهره ، وتهدم بنيانه ، وجعل يتفحص الأثاث والجدران بعين ملوها  
الإعجاب الهازىء ، ويقول :

— ما شاء الله .. ما شاء الله .. لشد ما تعانى يا بنى مرارة البؤس  
والفقر ٢١

فاشتد ارتباك محجوب وحصر ، فما استطاع أن ينبس بكلمة ، ها هو  
ذا والده يملأ الشقة بالفزع وعما قليل يأتى قاسم بك ، حقيقتان لا يدرى  
كيف يمكن أن يجتمعا ، ومع ذلك فهما واقعتان لا محالة وإن أشفق من  
التفكير فى عقابهما . ترى كيف يذكر غداً هذا اليوم الخطير ١٩ أذكره  
كما يذكر مأزقا خطيرا نجا منه بأعجوبة ؟ أم يذكره يوما أسود انهارت فيه  
آماله جميعا ؟ ، ولم يستطع فى انفعاله الأول أن يحسن التفكير ولا التدبير .  
وفتح عند ذاك باب حجرة النوم وبرزت منه إحسان ، ولعله بعثها للخروج ما  
سمعت من صوت وحركة غير عادية ، فعجبت لوجود الشيخ الغريب ،  
وألقت على هيئته الرثة نظرة إنكار . وحول عبد الدائم أفندى إليها رأسه ،  
فلاحت على شفثيه ابتسامة حزينة ، وقال بغير مبالاة ملتفتا إلى ابنه :  
— زوجتك ١٩ . ( ثم حول رأسه إليها ) أهلا بزوج ابنى ، أنا حموك  
يا عروس ٢١ .

وحدجت إحسان فى وجه زوجها فهالها جموده وارتباك وكآبه ،  
وأنست فى عينيه نظرة منكسرة لم ترها من قبل ، فلم تشك فى صدق  
الرجل ، ولم تكن تعلم شيئا عما بين الرجلين مما يستوجب الموقف الذى

يقعه زوجها ، ولكنها لم تتردد عن القيام بواجبها ، فاقتربت من القدام ومدت له يدها باحترام ودعته إلى الجلوس . وكان محجوب يرى ما يقع أمامه بعينه الذاهلتين ، ولكنه كان انتقل من ذهول سليلي إلى ذهول إيجابى ، فجعل يستصرخ إرادته وعقله لينتشلاه من ورطته وأخذ يفيق من وقع المباغثة فلم يرتج لوجود زوجه ، وأوماً لها إيماءة خفية بالانسحاب ، فلم تلبث أن تراجعت بلطف . وتوثب بجامع قوته ليمتلك زمام الموقف ويسترد عقله وإرادته ، وأعانه على ذلك الخطر الذى يتهدده باقتراب موعد الوزير . أجل ينبغي أن يخفى أباه عن عيني القدام عما قليل ويعالج أمره فى خلوة وهدوء ، هو أبوه على أية حال وليس شيطانا ولا قضاء وقدر ، وقال له بصوت رقيق لئن :

... تفضل معى يا أبتى ..

وأعطاه ذراعه ، فلم يرفض الرجل ، وأدرك أنه يريد أن يحادثه على انفراد ، فنهض بمعونته ، وسار به محجوب إلى حجرة الاستقبال على يمين الداخل ، ثم أغلق الباب ، وكان عقله لا ينى عن التفكير : ما الذى دله على مسكنه ؟ ما الذى جاء به ؟ وهل من المصادفات أن يجىء فى يوم الوزير وقبل مواعده بقليل ، وشم فى الجو رائحة مؤامرة تنته ، وتخابل لعينه شبح الإخشيدى بوجهه المثلث وعينه المستديرتين ، فسرت فى جسده رعدة ، وامتلات نفسه حنقا وكرهية . ترى هل أفشى سره كله ؟ .. رياه أى كارثة ترصده ؟ .. ولكن كلا .. أبوه لا يعلم بسر الخطير ، وإلا ما استطاع — وهو الريفى الغيور — أن يتمالك أعصابه ، ولكن البغيض جاء به فى الوقت المناسب لعله أن يكتشف الحقيقة بنفسه لتكون الصدمة أفظع ، وتفصد جيئنه عرقا باردا ..

وصوب الرجل نحوه نظرة ملتبهة وقال :

— لماذا تقف أمامى هكذا ؟ ، لماذا لا ترحب بى ؟ .. وكيف لا تهتئنى بالشفاء ؟

وسكت الرجل الغاضب حتى تمالك أنفاسه ثم استدرك بلهجة ساخرة  
قاسية :

— لشد ما ألمنى ما علمت من ققرك وبؤسك وسعيك عبثا فى سبيل  
الحصول على وظيفة ، فحفرنى ذلك على ترك أملك وحدها فى القناطر ،  
والحضور بنفسى لمواساتك ، أعانك الله يا مسكين ! .  
واستطاع محجوب أن يتكلم بعد أن أغلق الباب واطمأن بعض  
الاطمئنان :

— أبى .. لا تتهكم بى .. أنا أعلم أنى أستحق غضبك ولكن دعنى  
أشرح لك ما التبس عليك فهمه ، والحكم لك ..  
— وهل من حاجة إلى الشرح يا بنى ؟ .. حسى أن أنظر فيما حولى  
لأدرك فى أى شقاء تعيش ! ..  
فعض محجوب على شفثيه وقال :

— أبى ... ، والله ما غفلت عنك قط ، والله ما سنحت فرصة  
لمساعدتك فأهملتها ، ولكن ظروفى قاسية رغم هذه المظاهر الخداعة ،  
لذلك لم يرتح لى جنب ، وما كان ليقر لى قرار قبل أن أطمئن عليك وعلى  
والدتى ..

فاشتد اكفهرار وجه الشيخ وقال بحدة وحنق :  
— ظروفك قاسية أيها الابن البار ١٢ .. ماذا تنتظر حتى تنفضل عاينا  
بجنيهين ؟ أنتتظر الوزارة ١٢ ، إنى أعجب كيف طابت لك الحياة وأنت  
تعلم أن والدك يعانى الفاقة والجوع والتشريد ! لقد استصرختك باكيا  
ولكنى علمت فيما بعد أنى خاطبت ضميرا ميتا . تركتنا للعجز والفقر حتى  
بعنا أثاث بيتنا ، وها أنت تنعم بالوظيفة العالية ، والماهية الكبيرة ،  
والمسكن الوثير ، ولكنك لا تجد فى ذلك كله إلا ظروفا قاسية لا تسمح  
لك بأن تنقذنا من التسول ، أليس كذلك أيها الشاب الهمام ؟ .

امتقع وجه محجوب حتى حاكى وجوه الموتى ، شعر كالمختنق الذى ينتفض ويقتل عبثا لاستنشاق نفس واحد . ولم يكن كلام أبيه قد حرك قلبه ولكنه أربكه وكرَّبه وأوقعه فى ضيق شديد ، فقال :

— لشد ما يؤلمنى كلامك يا والدى ، أصغى إلّى ، سأكاشفك بالحقيقة وأصلح نخطئى ، وأكفر عما تتهمنى به من عقوق . يعلم الله أنى كتب سأزف إليك أنباء توفيقى وأمدُّك بالمعونة أول الشهر القادم ، لقد وقَّفت إلى وظيفتى منذ شهرين وكنت معدما فكان على أن أهيب نفسى بالمظهر اللائق ، وإلا ضيعت على نفسى فرصة لا تسنح فى حياة مرتين ، فاقترضت مبلغا كبيرا ما زلت مدينا به ، هكذا فزت بالوظيفة ولكن لا زلت أكابد الارتياك والفاقة ، هذه هى الحقيقة .

فهز الرجل رأسه فى ريبة وقال بامتعاض :

— إنك تعنى أكثر مما ينبغى بالمظهر اللائق ، والمسكن الأنيق ، والمآدب الفاخرة ..!

فأدرك محجوب أن الإخشيدى وفى وشايته حقها ، وقال وهو يغالب عواطف الحنق والغضب :

— هذه المظاهر وإن بدت كمالية إلا أنها من ضرورات وظيفتى ..  
— وهل من ضرورات هذه الوظيفة المجيدة أن نتضور جوعا ؟  
فقال الشاب وهو يبذل جهدا المستميت ليدارى غضبه وحنقه :

— كلا يا أبى . لقد أبنت لك عن حسن مقصدى فلا تثبط همتى بنقمتك ودعنى أتم بنجاحى ..

— أحسبه لا يتم إلا بقتلنا ..  
— بل سيتم بما فيه سعادتنا جميعا ..  
وسكت عبد الدائم أفندى مليا وهو يرنو إليه بنظرة مليئة بالريبة وسوء الظن ، ثم قال متسائلا :



— إذا كانت هذه حالتك فكيف تزوجت ؟ .. لماذا لم تؤجل الزواج إلى ميسرة ؟ وكيف تتزوج دون إخبارنا فضلا عن الرجوع إلى رأينا ؟ .. وارتاح محجوب لتساؤل والده هذا الذي أكد له جهله بالسر الخطير ، وقال بصوت خفيض :

— كانت الزيجة ثمن الوظيفة كما يحدث في أيامنا هذه كثيرا ، لقد صاهرت أسرة محترمة تمت إلى الوزير بصلة القربى وكانت الزيجة من أسباب ارتباكى ، ولعلك أحطت الآن بالظروف القاسية التى اكتفت حياتى فى الشهرين الماضيين .

بيد أن الرجل لم يكن مطمئنا ، واشتدت بالشاب حالة التوتر والاستياء ، وشعر كلاهما بأن لديه ما يقوله ، ولكن جرس الباب الخارجى رن بفتة ، وفتح الباب ثم أغلق : وسمعا وقع أقدام ثقيلة فى الدهليز يعرفها محجوب حق المعرفة ..

## — ٤٥ —

وخفق قلبه بعنف ، وسرت فى جوارحه رعدة خوف لم يجد عليها من سلطان ، وتخايلت لعينيه مرة أخرى صورة الإخشيدى البغيضة . ترى كيف تنتهى هذه الليلة ؟ أيدكرها فى المستقبل وهو يضحك أم وهو يبكي ؟ . وسمع أبوه وقع أقدام القادم فسأله :

— هل كنت تنتظر ضيفا ؟

فقال بلا تردد وهو يتظاهر بالهدوء :

— نعم .. هذا حمى جاء لزيارة كريمته ..

— ألا تذهب للقاءه ؟

فتلجج لحظات ثم قال بحزم :  
— كلا ، ستجد زوجي عذرا تتحلله لغيايى ، وسأقدمك إليه فى وقت  
آخر 1..

وساد الصمت ، وقد شعر الشيخ بأن ابنه يتأفف من تقديمه إلى حميه  
فنكس ذقنه فى سكون وحزن . وجلس محجوب قريبا من الباب يحاول  
جهده أن يضبط عواطفه ، واختلس من والده نظرات غاضبة تنم عن حنقه  
وحقده . ينبغى أن تنتهى الليلة بسلام . أحس فى باطنه بأنه إذا انتهت  
الليلة بسلام فقد نجا بحياته وآماله إلى الأبد . ولكن ما الذى يدعو إلى  
الخوف ؟ قد بلغ الوزير المكان الذى يريده بسلام ، ونمت حالة والده  
على أنه يجهل سره الخطير ، فما عليه إلا أن يأخذ نفسه بالصبر والانتظار  
حتى يذهب البك — كما جاء — بسلام . بيد أنه لبث — على رغم ما  
تبشر به الحوادث — قلقا مغتما . وزاد من توتر أعصابه أن والده عاد يقول  
ببراته الدالة على الإنكار والمرارة :

— لو كان قلبك حنوناً يا بنى لاستهان بضرورات الوظيفة التى تعتذر  
بها ، ولشق عليك أن تترك والديك يتضوران جوعاً . وأعجب لوالدتك  
ما برحت تدفع عنك جاهدة الظنون ، ونبتت ما نقل إلينا عنك ، وقالت  
لى : « ستبدي لك الأيام أنى أعرف بابننا منك » فليتها جاءت معى لترى  
بعينها 1..

وشعر محجوب بضجر ، وضاق بالرجل الذى لولا وجوده لم يكن فى  
المأزق الذى هو فيه ، وتوئب للرد عليه ، ولكن الجرس دق مؤذنا بقادم  
جديد ، فوجب قلب محجوب وجيباً مؤلماً . من يكون الطارق ؟ هل من  
جديد ؟ وفتحت الطاهية ثم سمع صوت يتكلم بحدّة ، فتميز الشاب  
غيظاً ومضى إلى باب الحجرة وفتحه ، فرأى سيدة تزيح الطاهية من طريقها  
وتدخل فى حالة هياج عصبي شديد ، كانت السدة أرستقراطية المظهر ،

أنيقة الزى ، فتولته الدهشة والانزعاج ، ثم ارتاع وذعر وأعيا عليه القول ،  
ورأته المرأة فأقبلت نحوه بهيئة متعجرفة ، تقدح عيناها شررا ، حتى وقفت  
أمامه وسألته بازدياء :

... أنت المدعو محبوب عبد الدائم ؟

وكان محبوب فى حالة جعلته مهياً للذعر والتشاؤم ، وحدثته نفسه  
المضطربة بأنه ضحية مؤامرة غادرة ، أبوه أداة من أدوات القتالة ، وغلبه  
القنوط ، وأيقن أن مجده بات معلقا بخيط وشيك الانقصاص . نظر إلى  
المرأة بإنكار وقال بصوت منخفض مشفقا من صوتها المرتفع الذى يصك  
أذنى أبيه :

... نعم يا سيدتى أنا هو ..

فعبست حانقة ولوت شفتيها اشمئزا وقالت بلهجة قاسية :

... هلا دلتنى على الحجرة التى ينفرد فيها زوجى بالسيدة المصون

زوجك ؟

فنفذ الكلام إلى قلبه فشقه شطرين ، وخارت قواه ، وأوشك أن يذهل  
عما حوله ، وتحولت المرأة عنه كالمجنونة إلى باب المخدع ، وأدارت  
الأكرة ، ولكنها وجدت الباب مغلقا ، فدقته براحة يدها بشدة صائحة  
بغضب جنونى :

... افتح الباب ، افتح أيها الرجل والوزير الخطير ، لقد برح الخفاء  
ورأيتك بعينى داخلا هذا الماخور .. افتح وإلا حطمت الباب .

وبلغ اليأس بالشاب نهايته ، فوقف مكانه لا يبدى حراكا ، وكأنه يرى  
فاجعة خطيرة لا تعنيه ولا يناط بها مصيره ، وكأنه كبير عليه أن يصدق أن  
مجده الذى حشد له ما حشد من قوة وفكر ، وبني عليه ما بنى من آمال ،  
يمكن أن يصير فى بعض الدقيقة أثرا بعد عين . وشعر بوالده يقترب منه  
ويسأله بصوته الذى بات يمقته مقتا :

— ماذا هنالك ؟ .. ماذا تقول هذه السيدة ؟  
ولكن لم يكلف الشاب نفسه معونة الرد عليه ، وكأنه لم يسمع قوله ،  
فلم يعد ياله ، ولم تكف المرأة عن دق الباب ، وصاحت حائقة :  
— إنى أنذرك بأنك إذا لم تفتح الباب طوعا فتحتة كرها بقوة الشرطة .  
فاستجمع محجوب قواه المشتتة ودنا من السيدة ، وقال لها بصوت ينم  
على الرجاء :

— سيدتى ..  
ولكنها لم تتركه يتم كلامه ، فتحولت إليه ولطمته على وجهه بشدة  
وغل ، وصاحت به :  
— لا تنبس بكلمة أيها القواد الخسيس ..

فتراجع محجوب مروعا إلى موقف أبيه وهو لا يدرى به . وانفتح عند  
ذاك الباب وبرز منه قاسم بك فهمى ثم أغلقه وراءه ، وسمع صرير المفتاح  
من الداخل ، وكان الرجل يحاول أن يتظاهر بالثبات ، ولكن ارتباكه كان  
أعظم مما تنفع فيه المداراة ، وقال لزوجته بسرعة :

— هلمى معى إلى الخارج من فضلك ..  
فصاحت به وقد جنت غضبا :  
— افتح هذا الباب ، لا بد من فتحه .  
فقال لها بصوت خفيض :

— خفضى من صوتك يا هانم .. هذا لا يليق بك ..  
فصاحت به بتهكم :

— حدثنى عما يليق وعما لا يليق يا معالى البك . هل من اللائق يا ترى  
أن أضبطك فى مخدع زوج هذا القواد الصفيق ! ، وهل يسرك أن يطلع  
ابنك وابنتك على سيرتك المحمودة !؟  
— كفى .. كفى ، هلمى معى ولنسوين خلافنا فى بيتنا .

وحاول أن يمسك بساعدها ، ولكنها نترت ساعدها من يده باحتقار  
وصاحت به :

— سأغادر هذا البيت الملوث ، ولكن لا تمن نفسك بتسوية  
الخلاف . لقد فاض الإناء ، فلا تفاهم بعد اليوم ، ولأنتقم منك انتقاما  
يكون الدهر عظة لأمثالك من المستهترين .

ومضت المرأة نحو الباب الخارجى ، والبك فى أعقابها ، وذهبا معا

\* \* \*

وتتم محجوب بصوت مبحوح :

— انتهى كل شيء .

أعجب بها من حقيقة ! أيخفق ذاك الكفاح الجبار ولما يتسلم ماهيته  
الجديدة ؟ .

أتصاب الحفظ كالأعمار بالسكته القلبية ؟ !

وقطع عليه تفكيره صوت أبيه وهو يسأل محزونا :

— ما معنى هذا يا بنى ؟ .

وكأن هذه الجملة نفضت ألقى على صدره الملهب ، فالتفت نحوه

هائجا تقدر عيناه شررا ، وقال بحق وحقد :

— انتهى كل شيء ، انتهت الوظيفة والماهية . هلم نتسول معا ...

وارتسمت فى عيني الرجل الذابلتين نظرة زائغة ذاهلة ، وبدا فى حيرة  
قتالة وكرب عظيم . لم يصدق ما رأت عيناه ولا ما سمعت أذناه . كابد  
الألم الممض والغضب المختنق . ولولا ما آتت من قنوط ابنه وهذيانه  
لأنفجر بركانه . لم تنته الوظيفة والماهية فحسب ، ولكن ابنه نفسه  
انتهى ، ولم يعد ذا مال ولا ولد وسيقول لامرأته إذا عاد إلى بلده : لا تسألى  
عن محجوب ، فقد انتهى محجوب وغدا ذكرى من الذكريات . وشعر  
عند ذاك باعياء ونخور ، وبأنه يسقط إن لم يطمئن إلى مجلس ، فولى

الشاب ظهره ، وعاد أدراجه فى خطوات ثقيلة ، متوكئا على عصاه يكاد يقع على وجهه .

وارتمى محجوب على مقعده فى الصالة ، مرتفقا يد المقعد ، مسندا رأسه إلى راحته . وكان السكون شاملا كأنه بيت مهجور ، وكل شيء بموضعه كأن أمورا خطيرة لم تنقلب رأسا على عقب . هل تستطيع روحه النائرة أن تصمد لهذا الشلال العارم من الحظ العاثر ؟ هل يمكن أن ينبرى لمواجهة هذه الأزمة الخطيرة بذرعه المعهود : طظ ؟ وما الحيلة إذا لم يستطيع ؟.. ما عسى أن يصنع أنانى مثله ، لا يهمه فى الدنيا شيء إلا نفسه ، إذا تألب الشقاء على سعادته ؟ أمامه سبيل واحد هو الموت . تبا لحظه ! كيف انتهى مجده بهذه السرعة الجنونية ؟ ألا تكتظ الدنيا بأمثاله من المغامرين الذين تترفق بهم حتى النهاية ؟ وتنبه من تأملاته على وقع أقدام خفيفة ، فرفع رأسه المثقل فرأى إحسان أمامه تطلعه بوجه تعلوه صفرة الموت . التقت عيناهما فى صمت أليم وكأن كلاهما يقول لصاحبه : « أهذه نهاية الكفاح والتعب ! »

وخرجت عن صمتها أخيرا فسأله بنبرات متضعضة :

— هل ذهبوا ؟

فأجابها فى مثل نبراتها :

— أجل .. كما ترين .

فترددت هنيهة ثم سألت :

— ما عسى أن ينتظرنا ؟

وكيف يدري هو ! بيد أنه هز رأسه وقد أخذت يسراه تشدد حاجبيه ،

وقال :

— لا أعلم الغيب . يحتمل حدوث أى شيء ، ولكن لا مفر من

التشاؤم ، فالأمر المؤكد أن أحلامنا تبددت . هذه هى الحقيقة .

وساد صمت ثقيل . ولاحت فى عينيها نظرة غائبة ، وجعلت تستحضر من الماضى ما أودعته من ذكريات ، ذكرت آمالها وكيف خابت واحدا بعد آخر ، فاعتلج بصدرها الألم والحسرة حتى اغرورقت عيناها ، وأغرق محجوب فى أفكاره مرة أخرى ، ولكنه لم يستشعر الندم ولا أقر بالخطأ ، كلا ولا عدل عن رأى ، وراح يتساءل هل يتكشف الغد عن حياة جديدة أو لم يبق له إلا الموت ؟ بيد أنه غلب على أمره هذه المرة فاستسلم لليأس والقنوط ، وغشيت عينيه سحابة مظلمة ، وحاول جهده أن يهيب بروحه المتمردة ، وغمغم بصوت لا يكاد يسمع هامسا : « طظ » ولكنها نمت — على خلاف عاداتها — عما يمكنه فؤاده من اليأس والاستسلام .

#### — ٤٦ —

اجتمع الرفاق الثلاثة — على طه وأحمد بدير ومأمون رضوان — بإدارة مجلة النور الجديد التى يصدرها على طه . وكان مأمون رضوان يكثر من اجتماعه بصاحبيه ليتزود منهما قبل سفره الوشيك . ولم يكن للناس من حديث فى تلك الأيام إلا حديث الفضيحة الكبرى التى لاكتها الألسن فى كل مكان . قيل : إن حرم قاسم بك فهمى همت بنشر بيان فى الصحف عن الأسباب التى أدت إلى طلاقها من زوجها . وقيل : إن بعض الجهات تدخلت فى الأمر وأقنعتها بالعدول عما كانت أجمعت عليه وانتهت المسألة باستقالة الوزير ، وسحب مذكرة ترقية مدير مكتبه من مجلس الوزراء ونقله إلى أسوان . استبعدت الفضيحة من أعمدة الصحف ولكنها لم تعد تخفى على أحد . وقد خاض فيها الرفاق بأسف شديد ، لأنهم لم ينسوا زميلهم القديم ، ولا نسوا عهد الزمالة والجيرة بالجامعة ودار الطلبة . وكان على طه أشدهم ألما ، ولكنه لبث ألما دفينا يعتلج مع بواعثه الباطنة وقد قال أحمد بدير :

— أتذكرون أحاديث صاحبنا البائس المستهترة ؟. أتذكرون طظ المشهورة ؟.. لطالما حسبت ذلك لغوا وسخرية وفكاهة لا شأن لها بالعقيدة والعمل ..

فقال مأمون رضوان بنبرات تنم عن الأسى :  
— إذا تزعزع إيمان الإنسان بالله غدا صيدا سهلا لكل شر .  
فابتسم على طه على حزنه وشجنه ، وقال :  
— اسمح لى أن أحتج على هذا الاتهام !  
فقال مأمون رضوان مستدركا :

— أنت لك إيمانك الخاص وإن كنت أراه دون الكفاية .. !  
وابتسمت عيناه النجلاوان وتساءل قبل أن ينبس أحد بكلمة :  
— ترى أنصير فى المستقبل عدوين للدودين ؟  
فقهقه أحمد بدير ضاحكا وقال :

— لا شك فى هذا . ستهاجمك هذه المجلة التى تباركها الآن  
بتمنياتك وستتهمك غدا بالرجعية والجمود ، وستتهم أنت  
صاحبها — صديقك — بالزيف والكفر والاباحية ، ومن يعيش يره ا .  
وابتسم الأصدقاء الأعداء . ثم قال مأمون رضوان بثقة وإيمان :  
— مأساة اليوم هى مأساة الزيف !  
فhez على طه رأسه فى شك وقال :

— كم فى المؤمنين من أوغاد . فليست الحقيقة ما ترى . وصاحبنا  
البائس وحش وفريسة معا ، فلا تنس نصيب المجتمع من جريرته .  
وهناك مئات من المؤمنين يشقى الملايين لإسعادهم ، فليست جريمتهم  
دون جريمة صاحبنا التعس . فالمجتمع الذى نعيش فيه يغرى بالجريمة ،  
بيد أنه يحمى طائفة المجرمين الأقوياء وينهال على الضعفاء . أحب أن  
أسألكما : هل يكفى أن يستقيل ذلك الوزير ؟



فقال مأمون رضوان :

— ما كان عمر بن الخطاب يتردد عن رجعه !

فقال أحمد بدير ساخرا :

— دعنا من عمر . إن مجتمعنا يستطيع أن يهضم هذا الوزير وأمثاله إذا أساغه بشيء من النسيان . وسوف يقبع عاما أو عامين أو أكثر في نادي محمد علي ، وعسى أن تخرجه غدا المظاهرات الوطنية عن عزائه وتحمله كالأبطال إلى الوزارة مرة أخرى ، فيعيد سيرته الأولى ، أو يلعب دورا جديدا ، ومن يعيش يره .

فقال مأمون رضوان ممتعضا :

— حقيقة المسألة أنى أرى الخير متعلقا بجوهر الروح ، وتريانه ، أو يراه الأستاذ تابعا للرغيف . فإذا حسن توزيع الرغيف محق الشر ..!

فقال علي بلهجة لم تخل من حدة :

— إننى لا أوافق على هذا الوضع للمسألة ، وإنك لتعلم بأنى أهميم بلذات الروح . وليس المجتمع الذى نحلم به بخال من الشر ، فلا خير فى مجتمع يخلو من نقص يحث على الكمال ، ولكن المجتمع الذى نحلم به يمحو شرورا نراها فى وضعنا الحالى ضربا من القضاء والقدر

وهنا ضحك أحمد بدير ضحكا عاليا وقال :

— لماذا تتعجلان المعركة ولما يأزف موعدها ؟!

وابتسم الرفاق ، الأصدقاء الأعداء وتبادلوا نظرة ذات معنى ، وكأنهم يتساءلون معا : « ماذا تخبىء لنا أيها الغد ؟ » .

### مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

| اسم الكتاب        | تاريخ اول طبعة | تاريخ آخر طبعة |
|-------------------|----------------|----------------|
| مصر القديمة       | ١٩٣٢           |                |
| همس الجنون        | ١٩٣٨           | مجموعة         |
| عبث الاقدار       | ١٩٣٩           | رواية تاريخية  |
| رادوبيس           | ١٩٤٣           | رواية تاريخية  |
| كفاح طيبة         | ١٩٤٤           | رواية تاريخية  |
| القاهرة الجديدة   | ١٩٤٥           | رواية          |
| خان الخليلي       | ١٩٤٦           | رواية          |
| زقاق المسك        | ١٩٤٧           | رواية          |
| السراب            | ١٩٤٨           | رواية          |
| بداية ونهاية      | ١٩٤٩           | رواية          |
| بين القصرين       | ١٩٥٦           | رواية          |
| قصر الشوق         | ١٩٥٧           | رواية          |
| السكرية           | ١٩٥٧           | رواية          |
| اللعن والكلاب     | ١٩٦١           | رواية          |
| السمان والخريف    | ١٩٦٢           | رواية          |
| دنيا الله         | ١٩٦٢           | مجموعة         |
| الطريق            | ١٩٦٤           | رواية          |
| بيت سوء السمعة    | ١٩٦٥           | مجموعة         |
| الشحاذ            | ١٩٦٥           | رواية          |
| ثوثة فوق النيل    | ١٩٦٦           | رواية          |
| مصر امار          | ١٩٦٧           | رواية          |
| خمارة القط الاسود | ١٩٦٩           | مجموعة         |
| تحت المظلة        | ١٩٦٩           | مجموعة         |
|                   |                | العاشرة        |
|                   |                | العاشرة        |
|                   |                | العاشرة        |
|                   |                | العاشرة        |
|                   |                | الثانية عشرة   |
|                   |                | العاشرة        |
|                   |                | العاشرة        |
|                   |                | الثانية عشرة   |
|                   |                | الرابعة عشرة   |
|                   |                | الثانية عشرة   |
|                   |                | الثانية عشرة   |
|                   |                | الحادية عشرة   |
|                   |                | التاسعة        |
|                   |                | الثامنة        |
|                   |                | الخامسة        |
|                   |                | الثامنة        |
|                   |                | السابعة        |
|                   |                | السابعة        |
|                   |                | السادسة        |
|                   |                | الخامسة        |
|                   |                | السابعة        |
|                   |                | السادسة        |

| اسم الكتاب                   | تاريخ أول طبعة | تاريخ آخر طبعة |
|------------------------------|----------------|----------------|
| حكاية بلا بداية ولا نهاية    | مجموعة         | ١٩٧١ السابعة   |
| شهر العسل                    | مجموعة         | ١٩٧١ السادسة   |
| المرايا                      | رواية          | ١٩٧٢ الخامسة   |
| الحب تحت المطر               | رواية          | ١٩٧٣ الرابعة   |
| الجريمة                      | مجموعة         | ١٩٧٣ الخامسة   |
| الكرنك                       | رواية          | ١٩٧٤ السابعة   |
| حكايات حارتنا                | رواية          | ١٩٧٥ السادسة   |
| قلب الليل                    | رواية          | ١٩٧٥ الثالثة   |
| حضرة المحترم                 | رواية          | ١٩٧٥ الرابعة   |
| ملحمة الخرافيش               | رواية          | ١٩٧٧ الرابعة   |
| الحب فوق هضبة الهرم          | مجموعة         | ١٩٧٩ الرابعة   |
| الشیطان يعط                  | مجموعة         | ١٩٧٩ الرابعة   |
| عصر الحب                     | رواية          | ١٩٨٠ الثانية   |
| أفراح القبة                  | رواية          | ١٩٨١ الثالثة   |
| ليالى ألف ليلة               | رواية          | ١٩٨٢ الثالثة   |
| رأيت فيما يرى النائم         | مجموعة         | ١٩٨٢ الثالثة   |
| الباقى من الزمن ساعة         | رواية          | ١٩٨٢ الثانية   |
| أمام العرش (حوار بين الحكام) |                | ١٩٨٣ الثانية   |
| رحلة ابن فطومة               | رواية          | ١٩٨٣           |
| التنظيم السرى                | مجموعة         | ١٩٨٤           |
| العائش فى الحقيقة            | رواية          | ١٩٨٥           |
| يوم مقتل الزعيم              | رواية          | ١٩٨٥           |
| حديث الصباح والمساء          | رواية          | ١٩٨٧           |
| صباح الورد                   | مجموعة         | ١٩٨٧           |
| تحت الطبع                    |                |                |
| قشتمر                        | رواية          |                |
| الفجر الكاذب                 | مجموعة         |                |

## الاستاذ احسان عبيد القدوس

- صانع الحب وبائع الحب
- أنا حرة
- الطريق المسدود
- أين عمري
- القنطرة السوداء
- مي بيتنا رجل
- لا أنام
- منتهى الحب
- لا تطفىء الشمس ( جزء أول )
- لا تطفىء الشمس ( جزء ثان )
- شيء في صدري
- زوجة أحمد
- البنات والصيف
- لا شيء يهم
- أنف وثلاث عيون ( جزء أول )
- أنف وثلاث عيون ( جزء ثان )
- شفتاه
- لا ، ليس جسدك
- عقلى وقلبي
- بئر الحرمان
- غلبة من صفيح
- ثقب في الثوب الأسود
- بنت السلطان

- سبيدة في خدمتك
- نساء لهن أسنان بيضاء
- لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص
- الوسادة الخالية
- دمي ودموعي وإبتسامتي
- الراقصة والسياسي
- حتى لا يطير الدخان
- العذراء والشعر الأبيض
- ونسيت أني امرأة
- الهزيمة كان اسمها فاطمة
- لا تتركوني هنا وحدي
- الحياة فوق الضباب
- أسف لم أعد أستطيع
- وتاهت بعد العمر الطويل
- لم يكن أبدا لها
- وعاشت بين أصابعه
- زوجات ضائعات
- الرصاصة لا تزال في جيبي
- الحب في رحاب الله
- على مقهى في الشارع السياسي ج ١
- على مقهى في الشارع السياسي ج ٢
- ومضت أيام التلوث
- في وادي الغلابة
- رائحة الورد وأنوف لا تنهم

## الإستاذ يوسف السباعي

- اثنا عشر رجلا
- اثنتا عشرة امرأة
- ست نساء وستة رجال
- العسقا مات
- طريق العودة
- بين الأطلال
- لست وحدك
- جفت الدموع ( الجزء الأول )
- جفت الدموع ( الجزء الثاني )
- ليل له آخر ( الجزء الأول )
- ليل له آخر ( الجزء الثاني )
- هذه النفوس — هذه الحياة
- من العالم المجهول — خبايا الصدور
- ليلى ودموع — أطياف
- نفحة من الإيمان — صور طبق الأصل
- ليلة خمر — من هياتى
- مكي العشاق — في موكب الهوى
- سمار الليالى
- هذا هو الحب
- طائر بين المحيطين

- من وراء الغيم
- ابتسامة على شفثيه
- أغنيسات — الشيخ زعرب
- بين أبو الريش وجنيانة ناميش — يا أمة ضحكت
- نائيب عزرائيل — البحث عن جسد
- همسة عابرة — أقوى من الزمن
- أم رقية — جمعية قتل الزوجات
- نادبة ( الجزء الأول )
- نادبة ( الجزء الثاني )
- رد قلبي ( الجزء الأول )
- رد قلبي ( الجزء الثاني )
- نحن لا نزرع الشوك ( الجزء الأول )
- نحن لا نزرع الشوك ( الجزء الثاني )
- إني راحلة
- أرض النفاق
- فديتك يا ليلي
- وراء الستار
- العمر لحظة

رقم الإيداع ٢٢٢٦ /  
الترقيم الدولي ٤ — ٣٥٠ — ٣١٦ — ٩٧٧





مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

التمن ٢٥٥ قرشا

دار مصر للطباعة  
سميد جودة الحجار وشركاه

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)